

عربي زبدان

ناتج المذاق الاسلاني

الجزء الخامس

تاريخ المتمدن الإسلامي
مكتبة
الإمام محمد القبط طبعية
في دار الكتب
بمصر
الملك

٩ أكتوبر ١٩٧٢

تأليف

عرجي زيدان

منشئ الهلال

المجلد الخامس

يبحث في نظام الاجتماع وطبقات الناس والآداب الاجتماعية والمعيشة العائلية وحضارة المملكة وآثار المدنية وأبهة الدولة ومظاهر العظمة والفخامة

طبعة جديدة راجعها وعلق عليها

الدكتور حسين مؤنس

استاذ التاريخ الاسلامي بكلية الآداب بجامعة القاهرة

دار الهلال

مقدمة

هذا الجزء الخامس من تاريخ التمدن الاسلامى هو آخر أجزاء الكتاب . فنحمد الله لاننا وفقنا الى اتمام هذا العمل الشاق ، مع ما يعتوره من العقبات ويحتاج اليه من اعمال الفكرة والمراجعة لما توخيناه فيه من التحقيق والتدقيق ، ولا سيما بعد ان عمدنا الى ذكر المراجع في هوامش الصفحات ، مع الاشارة الى الكتاب والجزء والصفحة من كل منها . ولا يخفى ما يقتضيه ذلك من التيقظ والتعب في ضبطه والتوفيق بين أجزاءه . ولكنه أعاننا من الجهة الاخرى على الايجاز في بعض الاماكن ، اكتفاء بالاشارة الى خلاصة الموضوع وحالة القارئ في استيفائه الى المصدر الاصلى لئلا يخرجنا ايراده الى التطويل

على ان كثرة الموضوعات وتعدد فروعها وتداخلها ، قد حملنا أحيانا على ايراد بعض النصوص في جزء مع ورودها في جزء آخر قبله . وانما فعلنا ذلك رغبة في استيفاء الأدلة واحكام البرهان ، بتنسيق المقدمات ونتائجها وتفاديا من ارجاع القارئ الى بعض الأجزاء السابقة ، وان كنا لم نعمل الى هذا التكرار الا عند الضرورة ، لان وجهتنا الاولى في كتابتنا انما هى بسط العبارة وايضاح الموضوع ، حتى ينجلى للقارئ كأنه مجسم . على اننا كثيرا ما أحلنا المطالع الى مراجعة ما سبق ذكره في امكانه

والجزء الذى نحن بصددده اكثر سائر الأجزاء طلاوة واقربها الى أفهام المطلعين على اختلاف طبقاتهم وتفاوت معارفهم ، لانه يبحث في مثل ما الفوه من العادات والآداب مما تلذ مطالعته وتتوق النفس الى معرفته ، من الأبحاث الاجتماعية والموضوعات العمرانية والاحوال العائلية ، مما يريده الناس عادة بقولهم « حضارة » أو « مدنية » ، وهو في الحقيقة بعض ظواهرهما على ما تبين لك في الأجزاء السابقة (*)

(*) يفرق الباحثون اليوم بين الحضارة والمدنية ، فالاولى تقابل مصطلح culture ويراد به أى تحسن في أحوال البشر . واول من استعمل هذا اللفظ في ذلك المعنى هو الامان ، فقالوا kultur وأرادوا به كل ما يوفق اليه الانسان من تحسين في أحواله بالتجربة والتفكير . اما المدنية فراد بها ما يصل اليه البشر من تقدم باجتماعهم بعضهم الى بعض . فرقى الانسان مثلاً في عصور ما قبل التاريخ يسمى حضارة ولا يسمى مدنية ، اما رقيه بعد ان نشأت المجتمعات فيسمى مدنية - وقد قال ابن خلدون ان الانسان مدنى بالطبع ، أى ميل الى الاجتماع بغيره للتعاون على شئون العيش ، ومن هنا تنشأ المدنية . وقد استعمل الاستاذ جرجى زيدان مصطلح « التمدن » وهو صحيح ينطبق على موضوع كتابه ، ونحن نقول اليوم « الحضارة الاسلامية » لابن لفظ الحضارة يشمل المدنية ايضاً ، في حين ان المدنية لا تشمل الحضارة

فموضوعات هذا الجزء سهلة على المطالع ، ولكنها شاقة على المؤلف ، لخلو كتب القوم من أمثالها على الأسلوب الذى تطلبناه فى هذا الكتاب . ولو بحثت فيما كتبه أسلافنا فى التاريخ والأدب والعلم وغيرها ، ما رأيت لأحدهم فصلا ولا جملة ولا فقرة فى نظام الاجتماع مثلا أو طبقات الناس أو الآداب الاجتماعية أو الحضارة أو الأبهة ، إلا ما قد يرد عرضا فى أثناء النواذر أو الحكم أو التراجم أو الوقائع مما استعنا به فى الاستدلال على بعض الحقائق المذكورة (*)

وأبحاث هذا الجزء تنتظم فى أربعة أبواب كبرى :

(١) نظام الاجتماع

(٢) الآداب الاجتماعية

(٣) حضارة المملكة

(٤) أبهة الدولة

فنظام الاجتماع أساسه طبقات الناس ، ولذلك قدمنا الكلام بفصل فى طبقاتهم قبل الإسلام فى جزيرة العرب وما يحق بها من البلاد العامرة فى الشام والعراق ومصر وفارس وأفريقية ، ثم طبقاتهم بعد الإسلام وما طرأ عليها من التغيير فى أيام الراشدين فالأمويين فالعباسيين . وبسطنا الكلام فى نظام الاجتماع فى العصر العباسي ، فقسمنا الناس إلى طبقتين كبيرتين : الخاصة والعامة ، وجعلنا الخاصة أربع طبقات : الخليفة ، وأهله ، وأهل دولته ، وأرباب البيوتات . وأضفنا إلى الخاصة طوائف من الناس يصح إلحاقهم بها سميناهم « أتباع الخاصة » وهم : الجند ، والاعوان ، والخدم . ويدخل فى طائفة الخدم : العبيد ، والجواري ، والخصيان . وبينما ما كانت عليه كل طبقة أو طائفة فى عهد ذلك التمدن

وجعلنا العامة طبقتين كبيرتين : الأولى المقربون وهم فئة من العامة سمت بهم قرائحهم أو هممهم إلى اللحاق بالخاصة ، كأصحاب الفنون الجميلة وأهل الأدب والشعر والغناء وأرباب التجارات الثمينة والصناعات العليا . وذكر ما كان يكتسبه هؤلاء من الأموال المتدفقة من خزائن الدولة . وأما الطبقة الثانية من العامة فهم معظم الأمة ، وينقسمون إلى فئتين : الأولى أهل القرى وهم السواد الأعظم ، والثانية عامة أهل المدن وهم أكثر سكانها ، ويتعاطون الصناعات اليدوية والتجارات الصغرى ، وبينهم طوائف العيارين

(*) ربما كان هذا الحكم صحيحا فى الوقت الذى ألف فيه المؤلف كتابه ، إذ لم تكن الأصول الخاصة بالنظم ووجوه الحضارة الإسلامية قد نشرت بعد ، أما الآن فالمادة فى هذا الموضوع وفيرة فى كل ناحية من نواحي الحضارة والتنظيم السياسى أو الاجتماعى ، وسترد الإشارة إلى أهم أصول هذا الباب فى تعليقاتنا على هذا الجزء

والشطار والمخنثين وغيرهم ، وذكرنا تاريخ كل منها (١)

(١) لتقى الدين أحمد بن علي المقرئ المصري عبارة غاية في الأهمية في طبقات الناس وطوائفهم في مصر على أيامه أوردها في كتاب « أغانة الأمة بكشف الغمة » الذي فرغ من تأليفه سنة ٨٠٨ هجرية (نشر الدكتورين محمد مصطفى زيادة وجمال الدين الشبيل ، القاهرة ١٩٤٠) وهو من أحسن ما كتب المسلمون في الاجتماع والاقتصاد ونظام الدولة ، نوردها هنا على تواليها لأهميتها ولشابهة ما جاء فيها بمذهب المؤلف في هذا التقسيم الاجتماعي :

١. الناس بأقليم مصر في الجملة على سبعة أقسام : القسم الأول أهل الدولة ، والقسم الثاني أهل اليسار من التجار وأولى النعمة من ذوي الرفاهية ، والقسم الثالث الباعة وهم متوسط الحال من التجار ، ويقال لهم أصحاب البز ، ويلحق بهم أصحاب المعاش ، وهم السوق ، والقسم الرابع أهل الفلح وهم أهل الزراعات والحرث سكان القرى والريف ، والقسم الخامس الفقراء وهم جبل الفقهاء وطلاب العلم والكثير من أجناد الحلقة ونحوهم ، والقسم السادس أرباب الصنائع والأجراء أصحاب المهن ، والقسم السابع ذوو الحاجة والمسكنة وهم السؤال الذين يتكفون الناس ويعيشون منهم

فأما القسم الأول ، وهم أهل الدولة ، فعالمهم في هذه المحن على ما يبدو لهم وإن لا تأمل عنده ولا معرفة بأحوال الوجود له ، أن الأموال كثرت بأيديهم بالنسبة لما كانت قبل هذه المحن ، باعتبار ما يتحصل من خراج الأراضي ، فإن الأرض التي كان مبلغ خراجها قبل هذه الحوادث مثلاً عشرين ألف درهم صار الآن خراجها مائة ألف درهم . وهذا الظن ليس بصحيح بل قلت أموالهم بالنسبة إلى ما كانت عليه أموال أمثالهم من قبل : وبيان ذلك أن العشرين ألف درهم فيما سلف كان مالكة يتفق منها فيما أحب واختار ، ويدخر منها بعد ذلك ما شاء الله ، لأنها كانت دراهم ، وهي قيمة ألف مثقال من الذهب أو قريب منها . والآن إنما يأتيه بدل تلك المائة ألف درهم فلوس ، هي قيمة ستمائة وستة وستين مثقالاً من الذهب ، يتفق ذلك فيما يحتاج إليه في اليوم من لحم وخضر وتوابل وزيت ونحوه ، وفيما لا بد له من كسوته وكسوة عياله ، وما تدعو إليه الحاجة من خيل وسلاح وغيره ، مما كان يشتريه قبل هذه المحن بعشرة آلاف من الفضة ونحوها . ولولا تساوى العالم من الخاصة والعامة بتفاوت ما بين سعر المبيعات الآن وبين سعرها قبل هذه المحن لبينا ذلك ، ولا بد من اللامع بطرف منه أن شاء الله تعالى : فأهل الدولة لو ألهموا رشدهم ، ونصحوا أنفسهم لعلمو أنهم لم يتلهم ربح البتة بزيادة الأطنان ، ولا بغلاء سعر الذهب الذي كان أصل هذا البلاء وسبب هذه المحن ، بل هم خاسرون ، وإن ذلك من تلبس مباشرهم لتلهم ما يحبون من اغراضهم ، ولا يحق المكر السيء إلا بأهله

وأما القسم الثاني ، وهم مياسير التجار وأولو النعمة والترف ، فإن التاجر إذا استفاد مثلاً ثلاثة آلاف درهم في بضاعته ، فأنما يتعوض عنها فلوساً أو عشرين مثقالاً من الذهب ، ويحتاج إلى صرفها فيما لا غنى له عنه من مؤونته ومؤونة عياله ، وكسوته وكسوة عياله . فهو لو تأمل لافضح له أنه لما كان أولاً يستفيد في مثل هذه البضاعة ألف درهم مثلاً ، أنها تغنى عنه في كلفته أكثر مما تغنى عنه هذه الثلاثة آلاف درهم من الفلوس بكثير . فالبائس لقبائوته يزعم أنه استفاد ، والحقيقة أنه إنما خسر ، وسوف صا قليل ينكشف له الفطاء ، وبرى ماله قد أكلته النفقات ، وأتلفه اختلاف النقود ، فيعلم فساد ما كان يظن ، وكذب ما كان يزعم ، ومن يضل الله فما له من هاد

وأما القسم الثالث ، وهم أصحاب البز وأرباب المعاش ، فإنهم في هذه المحن يعيشون مما يتحصل لهم من الربح ، فإن أحدهم لا يقنع من القوائد إلا بالكثير جداً ، وهو بعيد ساعات من يومه يتفق ما اكتسبه فيما لا بد له منه من الكلف ، وحسبه ألا يستدين لبقية حاجته ، ويقنع كما قال الأول :

على اننى راخى بأن أحمل الهوى وأخلص منه لا على ولا ليا

وأما القسم الرابع ، وهم أصحاب الفلاحة والحرث ، فهلك معظمهم لما قدمناه من شدة السنين وتوالي المحن بثلة رى الأراضي . وفيهم من أثرى ، وهم الذين ارتوت أراضيهم في سنى المحل ، فقالوا من زراعتها أموالاً جزيلة عاشوا بها هذه الأزمنة ، على أن فيهم من عظمت ثروته، وفخمت نعمته ، ونال ما أربى على مراده ، وزاد على ما أمله ، وألح يقبض ويبسط واليه ترجعون

وأما القسم الخامس ، فهم أكثر الفقهاء وطلاب العلم ، ومن يلحق بهم من الشهود ، والكثير من أجناد الحلقة ، ومن شابههم ممن له عقار أو جار من معلوم سلطان أو غيره ، فهم ما بين

وأما الآداب الاجتماعية فصدرناها بتمهيد في تاريخها من زمن الجاهلية ، فذكرنا مناقب البدو كالعصية والانفة والوفاء والسخاء والنجدة والأريحية والعفة ، وكيف تسرب الفساد الى هذه المناقب تدريجا بتقدم القوم في معارج الحضارة ، وذكرنا الأسباب التي بعثت على تبديل بعضها في عصر الراشدين فالامويين الى العصر العباسي . وبسطنا الكلام في آداب هذا العصر بسطا وافيا ، لأنه هو المراد بهذا الباب ، فقسمننا الكلام فيه الى فصول في العائلة ونظامها وما يتخلل ذلك من حال المرأة العربية ، فبيننا عفتها وانفتها في الجاهلية وأوردنا أمثلة ممن اشتهرن فيها بالشجاعة والحزم والرأى ، وكيف تبدلت أحوالها في عصر الترف بما أدخله عليها الرجل من الجوارى والسراى ، حتى ذهبت الفيرة ونشأ سوء الظن فحبسها وضيق عليها . وأفردنا فصلا لأسلوب الارتزاق في عهد ذلك التمدن بالسخاء المتسلسل على سنة العرب . وجعلنا كلامنا في المعيشة العائلية فصولا في الطعام واللباس والماوى ، فأجملنا تاريخ كل منها في أيام الجاهلية وما أحدثه فيه ذلك التمدن

ثم أتينا الى الباب الثالث من هذا الجزء وهو حضارة المملكة ، فقسمناه الى قسمين : أولهما العمارة (١) أو العمران ، وثانيهما الثروة والرخاء . والعمارة اما في المدن أو في القصور ، فأتينسا بأمثلة من عمارة أهم المدن الاسلامية ، وأشهر القصور والمباني في دمشق وبغداد والقاهرة وقرطبة وغرناطة وغيرها . أما الثروة فيدور الكلام فيها على إبحاث في ثروة الخلفاء والأمراء وما تقتضيه من التأنق في الطعام والتنعم باللباس والتزين بالآثاث والرياش والمجوهرات ونحوها . ثم القصص وما يلابسه من التسرى وعقد مجالس الغناء والشراب . ثم السخاء وقد نظرنا فيه من أيام الراشدين الى العباسيين ، وكيف تدرج القوم في مقدار الصلة ونوعها . ويتخلل ذلك فصول في الغناء وتاريخه من الوجهة الاجتماعية والأدبية ، والمسكر وخلصصة أقوالهم في تحريمه وتحليله وتاريخ انتشاره وأنفماس الخاصة فيه ، فضلا عن العامة وما نتج عن ذلك من التهلك والإسراف والفحشاء

ميت أو مشتته الموت ، لسوء ما حل بهم . فان أحدهم اذا أتته مائة درهم مثلا فان ما يأخذ عنها فلوسا أو ثلثي مثقال ، ينفق ذلك فيما كان ينفق فيه من قبل عشرين درهما من الفضة . فلحقهم من أجل ذلك القلة والخصاصة ، وساءت أحوالهم ، وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير

وأما القسم السادس ، فهم أرباب المهن والأجراء والعمالون والخدم والسواس والحاكة والبناء والفعلة ونحوهم ، فان أجرهم تضاعف تضاعفا كثيرا ، الا انه لم يبق منهم الا القليل لموت أكثرهم ، بحيث لم يوجد منهم الواحد الا بعد تطلب وعناء ، والله عاقبة الأمور . وأما القسم السابع ، فهم أهل الخصاصة والمسكنة ، ففنى معظمهم جوعا وبردا ، ولم يبق منهم الا أقل من القليل . لا يسأل عما يفعل وهم يسألون « ص ٧٢ - ٧٥

(*) تطلق « العمارة » الآن كمصطلح على المنشآت من المباني وما جرى مجراها ، وهى تقابل لفظة architecture في الانجليزية والفرنسية

أما إبهة الدولة فجعلنا مدار الكلام فيها على الخلفاء وأحوالهم ، من سداجة الراشدين وتقشفهم الى بدخ العباسيين وأبهتهم . وقسمنا البحث في هذا العصر الى فصول عديدة في مجالس الخلفاء ومواقبهم واحتفالاتهم وعلاقاتهم بالدول المعاصرة وملابسهم وألعابهم وملاهيهم . ويتفرع القول في مجالسهم الى المجالس العامة ومجالس الادب والغناء والمنظرة وغيرها . فوصفنا المجلس وفرشه ومراتب الجلاس فيه وشروط الاستئذان في الدخول والتحية وآداب المجالسة وعلامة الصرف ونحو ذلك . وقسمنا ملاهيهم الى فصول في الصيد والسباق والكرة والصولجان ورمى البندق وارتباط السباع وغيرها

وذيّلنا هذا الجزء بجدول أسماء الكتب التي ذكرت في هوامش الاجزاء الخمسة مع اسم المؤلف وسنة نشر الكتاب ومحل طبعه ، فضلا عن فهرس هذا الجزء

وقد بذلنا الجهد في تحرى الحقيقة وتوخينا الانصاف والاخلاص بما يبلغ اليه الامكان ، فان أحسنا فذلك قصدنا وأقصى مرادنا ، وان أسأنا فعن غير عمد منا وما العصمة الا لله وحده .

نظام الاجتماع

نظام الاجتماع في المملكة الإسلامية

موضوع هذا الباب النظر في حال الهيئة الاجتماعية في إبان التمدن الإسلامي ، وبين الجماعات التي كانت تتألف منها طبقاتهم وعلاقاتهم بعضها ببعض . ولزيادة الايضاح نمهد بالكلام عن نظام الاجتماع على عهد الروم والفرس في البلاد التي فتحها المسلمون من تينك الملكتين ، وما كان من تأثير الاسلام في ذلك النظام ، وكيف تدرج في الارتقاء من أيام الراشدين فالامويين فالعباسيين ، ثم نبسط القول في نظام الاجتماع في العصر العباسي

طبقات الناس قبل الإسلام

ويقسم الكلام في ذلك الى وصف طبقات الناس (١) في الشام والعراق (٢) في مصر (٣) في افريقيا (٤) في بلاد فارس (٥) في جزيرة العرب

١ - طبقات الناس في الشام والعراق

نريد بهذين البلدين ما بين دجلة في الشمال الشرقي وآخر حدود الشام في الجنوب الغربي (*) ، وسكان هذه البقعة اكثر اُمم الارض اختلاطا في اجناسهم واديانهم وآدابهم لكثرة الدول التي توالى عليها من اقدم ازمنة التاريخ . وللعلماء ابحاث طويلة وآراء متضاربة في احوالهم لا محل لها ولا فائدة منها . وخلاصة ما يستخرج من ابحاثهم أن اقدم من عرف من اهل تلك البلاد بطون من الساميين ، وكانت مساكن القبائل السامية تمتد من دجلة عند ما بين النهرين شمالا شرقيا الى سواحل سوريا حتى العريش فالبحر الاحمر غربا وشواطئ اليمن وحضرموت جنوبا فخليج فارس وبحر عمان شرقا ، وهى عبارة عن بلاد ما بين النهرين والعراق وسوريا وفلسطين وجزيرة سينا وجزيرة العرب

والساميون ثلاثة فروع كبرى :

(١) الآراميون ، وهم القبائل السامية الشمالية . كانت مواطنهم فيما بين النهرين والعراق وسوريا الاقسما من شواطئها

(*) أى أن المراد ما بين دجلة والفرات ثم بلاد الشام بحدودها التاريخية وقبل تقسيمها الحالي ، أى من آسيا الصغرى الى مشارف الجزيرة العربية

(٢) العبرانيون ، وهم القبائل السامية الوسطى . وموطنهم في فلسطين وشواطئ سوريا

(٣) العرب ، وهم القبائل السامية الجنوبية . ومقامهم في جزيرة العرب وما يليها من بادية الشام والعراق وجزيرة سينا (✳)

الآراميون

فالآراميون كانت لغتهم فرعاً من اللغة السامية يعرف باللغة الآرامية ، وانقسموا بتوالي الأجيال الى أمم اشتهرت في التاريخ ، أهمها أمة السريان فيما بين النهرين والعراق ، والكلدان في أعالي سوريا . وانقسمت اللغة بهذا الاعتبار الى الفرعين السرياني والكلداني .

والعبرانيون يراد بهم أبناء ابراهيم عليه السلام ، وقد استقروا في فلسطين نحو القرن الثالث عشر قبل الميلاد ، ويلحق بهم الفينيقيون وكانوا يتكلمون لغة تشبه العبرانية .

وأما العرب فكانوا يتفاهمون بلغة من اللغات السامية هي العربية ، ومن

(✳) كان لفظ الساميين يطلق على اهل الاقاليم التي تعرف اليوم بالشرق الأدنى ، عدا مصر . وقد لاحظ العلماء أن هذه الشعوب تشابه في الكثير من خصائصها الذهنية والجسمية ، فاللغات التي يتكلمونها متقاربة وقواعد هذه اللغات متشابهة وعاداتهم الاجتماعية وأفكارهم السياسية وأساليب حياتهم متقاربة . ولهذا فقد أطلق عليهم اسم واحد هو الساميون ، وتسميتهم بالساميين ترجع الى التوراة التي تجعل شعوب العالم ثلاثة انحدرت عن أبناء نوح وهم سام وحام ويافت . وقد ظل هذا القول مقبولاً عند عامة المؤرخين حتى العصور الحديثة ، وأخذ به نسبة العرب ومؤرخوهم ، بل ان إيرنست رينان أيد هذا القول في كتابه المعروف عن تاريخ اللغات السامية الذي نشره سنة ١٨٥٥ في باريس وأحدث به ضجة كبرى ، ففسد قال بالأصل المشترك للساميين وأيد قوله بتشابه لغاتهم وطرائقهم في التفكير ونظرتهم الى جزئيات الاشياء دون كلياتها وتأثيرهم بالعقبيات وميلهم الى البساطة في التفكير وقولهم بالوحدة ، ثم قال ان هذه الخصائص العقلية والجسمية ترجع الى عوامل بيولوجية متصلة في طبيعتهم وورثوها عن أصلهم الواحد الذي تحدروا منه ، ومضى يقارن بينهم وبين الآريين ، ونشأت نتيجة لذلك نظرية الآرية والقول بامتيازها على غيرها من الاجناس ، وهو قول دفع اليه التعصب الأوروبي والنزوع الى الاستعمار والرغبة في أن يستقر في أذهان الناس أن الجنس الابيض أسمى من غيره وأن له الصدارة والقيادة ، وأن الناس لهذا ينبغي أن يتقادوا له ويسيروا في ركابه ، وقد بلغت هذه العصبية الآرية ذروتها على أيدي الالمان وخاصة النازيين . غير انه تبين بعد ذلك أن هذه كلها ان هي الا مزاعم وخرافات لا يؤيدها الواقع أو البحث العلمي ، فان شعوب العالم مختلط بعضها ببعض اختلاطاً يصعب معه القول بوجود شعب نقى الدم ، وأولئك الذين يسمون بالساميين ان هم الا خليط من شعوب واجناس كثيرة تلاقى في منطقة الشرق الأدنى . ثم ان الاختلاف في اتجاهات التفكير عند الشعوب لا يرجع الى اختلاف في تركيب دماغ أفرادها ، بل ان ذلك متأثر بالبيئة الجغرافية والاجتماعية وظروف التاريخ

وعلى هذا فالشعوب التي تسمى سامية ليست شعوباً نقية الدم متحدرة عن اصل واحد من اقدم الازمنة ، وإنما المراد بها شعوب تعيش في بيئات جغرافية متشابهة ، وهذه البيئات الجغرافية أوجدت ظروفاً اجتماعية متقاربة ، وقد خضعت هذه الشعوب لظروف تاريخية واحدة ، فكانت النتيجة ان تشابهت لغاتها وصور مجتمعاتها وأساليب تفكيرها وربما امكن القول برجوع اللغات السامية الى أصل لغوي واحد ، فالعبرية والعربية والآرامية والنبطية والسريانية ترجع كلها الى لغة أصلية تسمى السامية القديمة **Ursemetisch** يقال انها نشأت في قلب الجزيرة العربية ، ثم حملتها موجات الهجرات البشرية من داخل الجزيرة الى خارجها

فروعها أو أخواتها الحميرية والحبشية . وأقرب القبائل العربية الى الشام الأنباط ، وكان لهم شأن في أثناء تسلط الرومان على الشام سيأتي ذكره

فما بين النهرين والعراق والشام وفلسطين كانت في أقدم أزمنة التاريخ مأهولة بشعوب سامية تتقارب نسبا ولغة . أما قبل نزول الساميين فكانت مقاما للأمم لا يعرف أصلها ، وكان الساميون أقوى منهم فغلبوهم على بلادهم واستقروا فيها ، وأخذ أولئك في الانقراض قبل الميلاد بعدة قرون . وهالك ترتيب مساكن الساميين هناك من الشمال الى الجنوب : السريان ، فالكلدان ، فالفينيقيون ، فالعبرانيون ، فالأنباط . وخالطتهم أمم شتى غير سامية ، أقامت بين أظهرهم في بقاع مختلفة من بلادهم ، غير بقايا الشعوب الأصلية مما يطول بيانه ، ولكن الساميين تغلبوا عليهم جميعا وعاشت أديانهم وآدابهم وعاداتهم

على أن مركز هذه البلاد الجغرافي جعلها عرضة لمطامع الفاتحين من الأمم القديمة ، كالحثيين والآشوريين والفرس ، فكانوا يتناوبون فتحها أو اكتساحها وتتقاطر شعوبهم اليها . ولكن الأمر لم يستقم لدولة من هذه الدول في سوريا كما استقام لليونانيين خلفاء الاسكندر ، فان هذا القائد العظيم فتح هذه البلاد في القرن الرابع قبل الميلاد ، وأوغل فيها وغرس في نواحيها بذور الحضارة الاغريقية ، وقد اختلطت هذه العناصر الاغريقية بعناصر الحضارات الأصلية في هذه البلاد ونشأ عن ذلك ما يعرف بالحضارة الشبيهة بالهيلينية Hellenistic وتوافد اليها اليونان وأقاموا فيها واختلطوا بأهلها ولا سيما بعد ظهور النصرانية وهي في سلطة الرومان . ولكن العنصر اليوناني مازال متغلبا عليها ، وأكثر تغلبه على سواحل بحر الروم . ويضعف شأنه في الداخل تدريجا ومع ذلك الاختلاط ظلت الشعوب السامية محافظة على آدابها وعاداتها ولغاتها ، ولا سيما اليهود فانهم مع ما أصابهم من الاضطهاد والسبى ظلوا من حيث الآداب والدين على نحو ماكانوا عليه في أيام داود وسليمان ، الا ما أصاب لغتهم من التغيير في أثناء السبى ببابل ، فانها اختلطت بالسريانية والكلدانية وعرفت باللغة الآرامية أو الكلدانية ، وبها كتبوا التلمود وانقسموا الى اليهود والسامريين . أما من بقى من الشعوب السامية ولا سيما السريان فتنصروا وانفردوا بآدابهم وعاداتهم ، وأكثرهم كانوا يقيمون في العراق وما بين النهرين وأعلى سوريا الى فلسطين

الأنباط (**)

فكانت حدود الشام الغربية على سواحل بحر الروم يغلب عليها العنصر

(**) تحدث المؤلف من هذا الموضوع بالتفصيل في كتابه « العرب قبل الاسلام » ، وقد ملقنا على طبعته الجديدة بما فيه الكفاية

اليوناني ، وحدودها الشرقية مما يلي البادية يغلب عليها العنصر العربى . وكان هناك فى أوائل القرن الرابع قبل الميلاد أمة عربية عرفت بالانباط أو النبط ، كان مقامهم وراء فلسطين غربا جنوبيا على أنقاض الادوميين ، فى بقعة تمتد من جزيرة سينا الى حوران تعرف بالبلاد العربية الصخرية Arabia Petraea ، ولا تزال آثار مدينة بطرا باقية الى الآن وفيها الابنية المنقوشة والتماثيل المنحوتة ونحوها . حاربهم الروم سنة ٣١٢ ق.م بقيادة انتيجونوس وكان الانباط عشرة آلاف مقاتل . وذكر ديودورس أنهم يجتنبون الزراعة رغبة فى الرحلة ، ويعيشون على اللحوم والالبان ويحرمون الخمر تحت طائلة القتل ، وانما شرابهم الماء يحلونه بالبن وهو كثير عندهم . وكانوا يتجرون بالمر والاطياب يحملونها من شواطئ البحر الاحمر وبلاد العرب ، وبالحرير أو القار يحملونه من البحر الميت الى مصر ليستخدمه المصريون فى التحنيط . وكانت طرق التجارة بين مصر وسائر المشرق لا تسلك الا على يدهم ، والا فانهم يهاجمون القوافل وينهبون التجار . ثم تغلب عليهم البطالسة وقهروهم ، فتباعدوا عن حدود مصر ونزلوا حوران ، ونبغ منهم فى القرن الاول قبل الميلاد ملك يسميه اليونانيون اريتاس (الحارث) حارب عامل دمشق وغلبه على مدينته واستولى عليها وعلى ملحقاتها تحت رعاية الرومانيين نيفا واربعين سنة . ثم صار الانباط حلفاء الرومان فى القرن الاول للميلاد ، وامتدت شوكتهم فى اثناء ذلك الى جزيرة العرب مما يلي سواحل البحر الاحمر

وظلت مدينة بطرا مركزا تجاريا بين الشرق ومصر ، حتى اكتشف الناس الطريق من القصر الى قفط على النيل فأخذت بطرا فى التدهور ، وكان الانباط قد تحضروا فذهبت خشونتهم وعجزوا عن الغزو والحرب وركنوا الى الزراعة وأدوا الى المنازل وانغمسوا فى الترف ، فجاءهم تراجان الرومان سنة ١٠٥ م فحاربهم وأخضعهم وأذلهم فذهبت عصبيتهم وانحلت قواهم واخلدوا الى اللذة ، واختلطوا بأهل البلاد الأصليين من السريان أو الآراميين ، وانتشروا على حدود سوريا وفلسطين مما يلي البادية بين جزيرة سينا والفرات ، ولم تقم لهم قائمة من ذلك الحين

ولما جاء المسلمون لفتح الشام وجدوا بقايا هذه الامة هناك يتكلمون اللغة الآرامية أو السريانية ، لغة أهل العراق وما بين النهرين ، فحسبوا الانباط والعراقيين أمة واحدة فأطلقوا عليهم جميعا اسم «الانباط» ، والذي اتفق عليه المحققون أن انباط بطرا وما يليها عرب ، وانما تكلموا الآرامية على اثر اختلاطهم بأهل الشام والعراق بعد ذهاب دولتهم . ويظن علماء التوراة أن النبطيين ينسبون الى نباطوط من آباء التوراة (*)

(*) انظر من ذلك كتاب

René Dussaud. Les Arabes en Syrie avant l'Islam, (Paris, 1907).

ولما ضعف الانباط ظهر مكانهم على حدود الشام والعراق أجيال جديدة من العرب ، اتخذهم الروم والفرس حلفاء يردون عنهم غارات اخوانهم اهل البادية ، أو ينصروهم فى الحروب التى كانت تنشب بين تينك الدولتين قبيل الاسلام . فأقام حلفاء الروم فى جهات حوران وهم الغساسنة ، وأقام حلفاء الفرس على شاطئ الفرات فى الحيرة وهم المناذرة . فاذا انتشبت حرب بين الروم والفرس تجند الغساسنة للروم والمناذرة للفرس ، ودافع كل منهما عن صاحبه . فكانوا مع بداوتهم وسداجتهم عوناً قوياً لهاتين الدولتين الضخمتين ينصرون احدهما على الأخرى . ولنحو هذا السبب اقام العرب على الحدود بين الفرس والروم فيما بين النهرين والعراق ، وفيهم بطون من اباد وربيعة ولخم وتنوخ

فسكان الشام والعراق عند ظهور الاسلام كان معظمهم من بقايا الآراميين الأصليين ، وهم السريان فى الشمال والشرق ، واليهود والسامريون فى الجنوب ، وبقايا الانباط فى الغرب ، يليهم العرب الغساسنة والمناذرة ثم قبائل اباد وربيعة بين النهرين ، ويتخلل هذا المجموع شتات من أمم أخرى كالجراجمة فى جبل اللكام (١) والجرامقة فى الموصل (٢) وأخلاق من مولدى اليونان والرومان على الشواطئ ، ومولدى الفرس والاكرد فى الشمال . وكانت جامعة الدين قد غلبت على جامعة النسب أو الجنس أو اللغة ، فأصبحت الطوائف تنتسب الى مذاهبها الدينية ، كالنصارى واليهود والسامريين . وينقسم النصارى الى ملكيين ويعاقبة ونساطرة وموارنة (*) وغيرهم . وكانت الديانة والسياسة مرتبطتين احدهما بالآخرى ، والحزب الدينى عبارة عن حزب سياسى يستخدم فى تأييد الدولة ، فالكنيسة القسطنطينية كانت أم كنائس المشرق ، وشعوب هذه الكنائس تنقاد الى تلك الكنيسة لتأييد سلطة القيصر صاحب العرش فيها ، والكلام فى تفصيل ذلك يطول

نظام الاجتماع فى الشام والعراق

أما موقف الأهالى من الحكومة فكان على غير المألوف بيننا ، لبعده النسبة

(١) البلاذرى : فتوح البلدان ، القاهرة ١٩٣٢ ، ص ١٦٣ وما بعدها

(٢) مختصر تاريخ الدول لابن العبرى ، ص ١٣١

(*) يقال ايضا ملكانيين نسبة الى ملكا ، وهم الذين على مذهب الدولة . اما اليعاقبة فهم المخالفون لمذهب الدولة ، ويقال لهم المونوفيزيون أى أصحاب القول بطبيعة واحدة للسيد المسيح ، وقد سمو اليعاقبة نسبة الى يعقوب البردعى الذى فتن مذهبهم وصاغه فى صورة ثابتة ، فنسب المذهب اليه ، وهم عبادة أهل مصر ومعظم أهل الشام . اما النسطوريون فممنسوبون الى نسطوريوس ومذهبهم أميل الى مذهب اليعاقبة ولكنه يختلف منه . والموارنة هم الذين يقولون بطبيعتين منفصلتين للسيد المسيح ، ومذهبهم قريب الشبه من الكاثوليكية ، بل هم اليوم معدودون ضمن الكاثوليك

بين الحاكم والمحكوم في تلك الايام ، ولا سيما في البلاد التي يحكمها الغرباء البعيدون عن اهلها لغة أو ديناً أو جنساً . فالرومان كانوا يعدون البلاد واهلها ملكاً لهم يتصرفون فيهم كيف شاءوا ، وكان الفلاحون في كثير من البلاد يعدون من توابع العقار ، فينتقل العقار من مالك الى آخر ، وفلاحوه معه يسمونهم *Serfs* أى الأقنان (جمع قن) ، الا الذين تسمو بهم همهم الى التقرب من رجال الدولة بالصناعة أو الأدب أو التجارة وهم قليلون . فكان الناس طبقتين : طبقة الخاصة وهم الملك واهله وأعوانه ورجال الدين ومن جرى مجراهم ، والعامة أهل البلاد الأصليون وأكثرهم الفلاحون أو الأمرة

فخاصة أهل الشام في العصر الروماني حكمها وهم البطارقة ، والبطريق غير البطريك (*) . وكان البطارقة عند الرومانيين جماعة من أشرف المملكة الرومانية ، نشأوا مع مدينة روما وكان لهم نفوذ عظيم في الدولة الرومانية ، وانحط شأنهم بعد انقسامها ولم يبق لهم عمل ، فلما امتدت سطوة الروم الى المشرق راوا تلك البلاد البعيدة لا يستطيع الحكم فيها واخضاع اهلها الا أهل السطوة والهيبة ، فعهدوا بذلك الى البطارقة وولوهم المستعمرات الشرقية وفي جملتها الشام ومصر ، وكانت الشام ولاية واحدة تقسم الى ١١ اقليماً ، على كل اقليم بطريق معه الجند كأنه حاكم مستقل (١) . وكانت حدود الشام بالنظر الى الحكومة تنتهى من الشمال الشرقى الى الفرات ، ولا يدخل العراق وما بين النهرين فيها ، وانما جعلناها في كلامنا عن الأهالي ، لأنهم وأهل الشام من أصل واحد كما رأيت

٢ - طبقات الناس في مصر

أن سكان مصر أقل اختلاطاً بغيرهم من سكان الشام والعراق ، ومع ذلك فقد توالى الهجرة الى مصر من أقدم أزمنة التاريخ قبل زمن الفراعنة . والفراعنة أكثرهم من الفاتحين الغرباء ، فكانوا اذا فتحوا مصر واستقام الأمر فيها هاجر اليها أهل عصبيتهم لاستثمار ذلك الفتح (*) . فيأتون على أن تكون

(*) البطريق هو النبيل ، وهو لفظ *patricius* اللاتينى ، أما البطريك فهو *patriarch* ومعناه الأصلي أبو الاسرة أو شيخ القبيلة ، ثم استعملته الكنيسة للدلالة على النفس الكبير أو شيخ القساوسة ، ثم أصبح رأس الكنيسة في المشرق في مقابلة البابا وهو رأس الكنيسة الغربية

(١) راجع تفصيل ذلك في الجزء الاول من هذا الكتاب

(**) هذا القول في حاجة الى تعديل، اذ من الثابت ان الفراعنة مصريون أصلاً وقرعاً، وهم ملوك مصر القديمة وهم من أهل البلاد توالى أسرهم على حكم البلاد من أيام الاسرة الاولى وأول فراعنتها مينا أو نارمر . وكان يحدث اذا غزا قوم من الاجانب مصر وأرادوا أن يقيموا لانفسهم فيها ملكاً أن يتحجبوا الى الناس بادعاء المصرية وأخذ لقب الفرعون كما حدث أيام الهيكسوس وغيرهم ، وهذه الحالات معروفة ، وهى قليلة بالنسبة الى سلسلة الفراعنة المصريين الطويلة

اقامتهم وقتية ريثما يجتمع لهم المال ، ولكن اكثرهم لا يرجعون ولا تمضي بضعة اجيال حتى يختلطوا بالسكان ويصيروا جزءا منهم ، كما حدث في زمن الرعاة والفرس واليونان والرومان وغيرهم ممن فتحوا مصر قبل الاسلام . والغالب في الفاتحين أنهم لا يزالون يميزون عصبيتهم على عصبية سائر رعاياهم ، حتى ينتقل الأمر من أيديهم الى فاتح آخر فتتناسى عصبيتهم ويندمجون في جملة الوطنيين . ناهيك بمن يأتي مصر للتجارة أو الاستثمار لاشتهارها بالخصب والرخاء

وكان الفاتحون يترفعون غالبا عن الاختلاط بسائر افراد الأمة ، فيكون منهم الجند ورجال الدولة والكهنة ونحوهم من أهل السيادة ، ويجعلون مقامهم في المدن الكبرى ويبقى الشعب للفلاحة والصناعة والخدمة . فالبطالسة حكموا مصر نحو ٣٠٠ سنة ، وتقاطر اليونان في أيامهم بكثرة ، وكانوا يقيمون في الاسكندرية أو غيرها من العواصم ، واكثرهم من الجند أو التجار أو رجال الدولة لادارة الحكومة . وكذلك كان شأن الرومان ، فانهم تولوا وادى النيل ستة قرون ، والرومانى يجتهد في أن يميز نفسه عن المصرى لغة ومذهبا وخلقا ، وكانوا يقيمون في المعقل والحصون أو المدن الكبرى كما كان حالهم في الشام

فلما ظهر الاسلام كان سكان مصر طبقتين :

(١) الرومان أو الروم ، وعاصمتهم الاسكندرية ومنهم رجال الدولة والأجناد وبعض رجال الدين

(٢) الأهالى وهم الأقباط الاصليون ، يخالطهم بعض المولدين من اليونان والرومان وغيرهم من النازحين للتجارة أو الخدمة أو غيرها ، من أهل الشام واليمن والعراق والنوبة وافريقية ، وكان بين الحكومة والأهالى فاصل آخر مذهبى ، فكان الروم على مذهب الملك وهم الملكيون ، والأقباط على مذهب يعقوب البردعى وهم يعاقبه (*)

٣ - طبقات الناس فى افريقية

يريد العرب بافريقية البلاد الواقعة فى شمال افريقيا ، حيث الآن تونس وطرابلس والجزائر ومراكش (***) ، وهى فى الأصل مستعمرة سامية لبعض

(*) فى الفصول الاولى من كتاب « فتح العرب لمصر » يقدم الفريد بظفر صورة طيبة للمجتمع المصرى قبل الفتح الإسلامى . انظر ترجمة محمد فريد أبو حديد ، القاهرة ١٩٤٠

(**) يطلق العرب « افريقية » على ما يعرف الآن بتونس فقط ، اما بقية الشمال الافريقى فكان يشتمل على المغرب الاوسط وهو يتأهل الجزائر الحالية ، والمغرب الاقصى وهو يتأهل المملكة المغربية الحالية (مراكش)

النازحين من فينيقية قبل الميلاد بعدة قرون ، بنوا فيها مدينة قرطاجة أو قرطجنة وأنشأوا دولة تعتبر شرقية باعتبار أصلها وإن كانت غربية في موقعها ، لأن أهلها ساميون ولغتها من أخوات اللغة العربية (**) وقد حارب القرطاجنيون الرومانيين ونازعوهم على السيادة ، فقطعوا إليهم البحار وجبال الألب حتى حاصروا روما وكادوا يذهبون بدولتها ، ولو فعلوا ذلك لتغير وجه الأرض عما نعرفه ، ولكنهم أخفقوا فرجعوا ثم ارتد عليهم الرومان وحاربوهم في بلادهم حتى أفنواهم وخربوا مدينتهم ، وتوالى على قرطاجة بعدهم أمم شتى كالرومان والوندال وغيرهم

أما أهل البلاد الأصليون فقد كان معظمهم قبل القرطاجنيين أقواما من الجنس البربري يعتصمون بالجبال دأبهم النهب والغزو . ولما ذهب القرطاجنيون وخلفهم الرومان وجدوا أهل تلك البلاد طبقتين ، أحدهما حضرية تتوطن السواحل فيما هو الآن مراكش والجزائر وتونس يتعاطون التجارة والصناعة ، والآخرى تسكن الجبال والبادية ، فسموا الأولى الموريتانيين والثانية النوميديين . وكان النوميديون من القبائل الرحل الأشداء فلم تقو الدولة الرومانية على إزلالهم بل كانوا كثيرا ما يهاجمون حاميتها في المدن ويعودون إلى جبالهم . ذلك كان شأنهم مع من فتح أفريقية بعد الرومان ، وما زالوا على ذلك حتى جاء المسلمون وفتحوا أفريقية وأهلها طبقتان : الأولى أهل المدن وهم الموريتانيون ومن اختلط بهم من الأئمة الفساحية كالروم والوندال وقد اعتنقوا النصرانية وتحضروا ، والثانية النوميديون وهم لا يزالون على بدائنتهم وظلوا ممتنعين في جبالهم إلى أواخر القرن الأول للهجرة ، وهم الذين يسميهم العرب قبائل البربر على ما هو مدون في كتبهم ، ولهم شأن كبير في تاريخ الإسلام (***)

(**) لم تمتد دولة الفينيقيين في أفريقية إلى أبعد مما يعرف اليوم بتونس ، أما الباقي فقد كانت سواحله بأيدي الرومان ونواحيه الداخلية يسيطر عليها البربر

(***) كان سكان المغرب قبل الفتح الإسلامي ثلاث طوائف : الأولى الروم أو البيزنطيون ، وكانوا يحكمون أفريقية (تونس) وربما امتد سلطانهم إلى بعض أجزاء من سواحل المغرب الأوسط والأقصى . وكان عددهم قليلا ، ولكنهم كانوا على درجة كبيرة من الحضرة وكانت ديانتهم المسيحية ، وكان مركزهم الرئيسي ميناء قرطاجة . والثانية طائفة الأفارقة ، وهم جماعات من أهل البلاد خالطت البيزنطيين - والرومان قبلهم - وأخذت حضارتهم ولغتهم ودينهم ، وربما تزاوجت معهم ، وكانوا قلة في البلاد ولكنهم كانوا يتولون الوظائف الكبيرة ويقومون بالتجارة وشؤون المال ، ومن هنا فقد كان لهم دور عظيم في تاريخ البلاد قبل الإسلام . والطائفة الثالثة هي البربر وهم أهل البلاد الأصليون والغالبية العظمى من سكانها ، وهم جنس أصيل قديم ينقسم بصفة عامة إلى قسمين كبيرين : الأول البربر المستقرون ، سكان السهول الساحلية وبعض الأراضي الصالحة للزراعة في الداخل ، ويسمون بالبربر البرانس ، والبربر الرحل الذين يسكنون البوادي والجبال ، ويعيشون عيشة قريبة مما كان عليه العرب الجاهليون ، ويسمون البربر البتر . ويمثل القسم الأول وهم البربر البرانس الصنهاجيون ، أما الرحل البتر فيمثلهم الزناتيون ، وكانت الحروب مستمرة بين زناتة وصنهاجة قبل الإسلام وبعده . أما الموريتانيون والنوميديون الذين يذكركم المؤلف ، فاسماء أطلقها الرومان على سكان البلاد وهم البربر ، وكان الرومان يطلقون على سكان

٤ - طبقات الناس في بلاد فارس

نريد ببلاد فارس ما بين دجلة في الغرب الجنوبي ونهر جيحون في الشرق الشمالي ، ويدخل فيها خوزستان وكرمان ومكران وبلاد الجبال وخراسان واذربيجان وأرمينيا وغيرها ، وهي تحوى شعوبا شتى من أمم مختلفة لا يمكن حصرها وتمييزها بعد أن طال العهد عليها . ولكنها تمتاز على أى حال عما يجاورها من سكان العراق والشام امتيازاً كلياً في الجنس واللغة والدين : أما الجنس فسكان بلاد فارس أكثرهم من الجنس الآرى وهو غير الجنس السامى الذى عمر الشام وما وراءها كما تقدم ، أما اللغة فالفارسية من اللغات الآرية أخوات لغات أوروبا وهي غير اللغات السامية ، وأما الدين فالمذهب الذى كان شائعاً في تلك البلاد قبل الاسلام هو الزردشتية أو المجوسية في حين أن ديانة أهل العراق والشام كانت النصرانية واليهودية .

وتوالى على بلاد فارس دول كثيرة حتى فتحها الاسكندر في القرن الرابع قبل الميلاد ، فلما مات واقتسم المملكة قواده لم يستطيعوا استبقاء تلك البلاد في حوزتهم ، فافتسمها أمراؤها وهم المعروفون بملوك الطوائف ، حتى قام أردشير بن ساسان سنة ٢٢٤ م فجمع كلمتها بالسيف وتوالى عليها أهله الى ظهور الاسلام ، وهي الدولة الساسانية

فلما ظهر الاسلام كان سكان تلك المملكة طبقتين : العامة والخاصة . أما العامة فأهل البلاد الاصيليون ومنهم الفلاحون والصناع والخدم وغيرهم من نتاج الاختلاط قروناً بين القبائل الآرية وبعض القبائل الطورانية من الأتراك والديلم . وكانوا يسمون عند ظهور الاسلام « الطاجية » ، ولا يعرف أصل هذه اللفظة تماماً (١) ولكنهم يريدون بها طبقة العامة ، والطاجية ضخم الأجسام أقوىاء الأبدان

وأما الخاصة فالملك وأهله ورجال دولته ورجال الدين والأشراف من بقايا الدول السالفة . فبعد الملك وأهله تأتي طبقة الشهاجة « شهريجان » أو السهاجة (٢) وهم أشراف السواد وأرباب الدولة كالبطارقة عند الروم . تليهم طبقة الدهاقين - وأحدهم دهقان - وينتسبون الى الملوك القدماء من

السواحل المغربية اسما عاما هو الماورى *mauri* جمع *maurus* وهو اللفظ الذى أتى منه *maure* الفرنسى و *moor* الانجليزى و *moro* الاسبانى بمعنى مغربى أو مسلم وربما عربى ، فاطلق الرومان اسم موريتانيا ، أى بلد الماورى على بعض نواحي الشمال الأفريقى ، وقد عرب العرب هذا اللفظ الى مرطانية ، وكان الرومان يقولون *Mauretania Caesariensis* أى مرطانية القيصرية وهي تعادل الجزائر الحالية تقريبا ثم *Mauretania Tingitana* أى مرطانية الطنجية ، وهي تعادل شمال المغرب الأقصى . أما النوميديون فهم عند الرومان سكان نوميديا وهي جبال الاطلس الوسطى

(١) الهلال ، ص ٩٩ سنة ١٣ (٢) السمودى ١٢٣ ج ١ .

الدول السالفة ، وهم أصحاب الأرض وفي أيديهم أكثر البقاع التي يستغلونها على رقاب الطاجية . والدهاقين خمس مراتب ، وقد يتولون الامارات ويتعاطون الحكومة كأمرأ بخارا (بخارا خدا) فقد كانوا عند ظهور الاسلام من الدهاقين ، وكذلك هرات . وقد يكون الدهقان مثل بعض العامة (※)

وكانت مملكة فارس - عند ظهور الاسلام - في حوزة الدولة الساسانية : تنقسم الى عمالات يتولى كل عمالة أمير يسمونه «مرزبان» ، وأصل معنى هذه اللفظة قائد الحدود . على أن بعض العمال كانوا يتمتعون بشيء من الاستقلال في أحكامهم ، ولا سيما في الامارات البعيدة ، وكان بعضها مستقلا استقلالاً

(※) جاء في كتاب « إيران في عهد الساسانيين » تأليف آرثر كريستنسن Arthur Christensen (ترجمة الدكتور يحيى الخشاب ، القاهرة ١٩٥٧) ص ٨٤ وما بعدها عن طبقات الناس في إيران قبل الاسلام مايلي :

« لقيت أحوال الحياة العامة والتنظيم الإداري للدولة الساسانية تغييراً مختلفاً في القرون الأربعة التي دامت فيها الإمبراطورية التي أسسها أردشير ، ولكن الهيكل الاجتماعي والإداري الذي أنشأه أو أكمله مؤسس الأسرة الساسانية قد بقي حتى نهايتها في الأمور الكبرى وتذكر الأوستا الحديثة ثلاث طبقات : طبقة رجال الدين (آثروان Athravan) وطبقة رجال الحرب (راثااستار Rathastar) وطبقة الزراع (واستريوفشويانت Vastroysoyuant) وهذا تقسيم إداري يسمو إلى الزمن الغابر . وتشير فقرة واحدة (١٩ - ١٧) إلى طبقة رابعة هي طبقة الصناع (هويتى Huité) . ثم نجد في أيام الساسانيين تقسيماً جديداً إلى أربع طبقات . فقد أصبح الكتاب (ديبهران = دبيران) الطبقة الثالثة . وكون الصناع والزراع الطبقة الرابعة . وهكذا كان التقسيم الاجتماعي متمشياً مع الوضع السياسي فكان هناك الطبقات الأربع الآتية أيام الساسانيين : ١ - طبقة رجال الدين (آثروان) ، ٢ - طبقة رجال الحرب (ارتشتاران) ، ٣ - طبقة الكتاب ، كتاب الدواوين (دبيران) ، ٤ - طبقة الشعب (الفلاحين - وستريوشان - والصناع - هوتخشاشان)

وقد قسمت كل طبقة إلى عدة أقسام ، فرجال الدين منهم الحكام (دادور) والعباد ، وطبقتهم الأقل درجة والأكثر عدداً هي المغان (جمع مغ) والزهاد والسدنة الهريدان (جمع هريد) ثم علماء مختلفون يشغلون وظائف خاصة ، ثم المراقبون (دستوران) ، والعلمون (مغان - اندرزبد) وتكون طبقة المحاربين من الفرسان والرجال ، ولكل من القسمين رتبة وموظفوه المختصون به وتنقسم طبقة الكتاب إلى كتاب الرسائل وكتاب المحاسبات وكتاب الأفضية والسجلات والشروط وكتاب السير ويدخل فيهم الأطباء والشعراء والمنجمون

وأخيراً فإن الشعب كان يشمل الزراع والرعاة والتجار وسائر أهل الحرف . ولكل طبقة رئيس ، فعلى رأس رجال الدين الموبدان موبد ، وعلى رأس رجال الحرب إيران سباهيد ، وعلى رأس الكتاب إيران دبيريد (يسمى كذلك دبيران مهيست) ، وعلى رأس الطبقة الرابعة وستريوشا نسالار (وبعبارة أخرى وستريوشيد أو هتخشيد) . ولكل رئيس عارض تحت إشرافه ، مكلف بإحصاء أهل الطبقة ، ثم مفتش عليه أن يتحقق من معرفة دخول كل فرد ، وأخيراً معلم (اندرزبد) « لكن يلقن كل فرد حرفة أو عملاً أو علماً منذ الطفولة »

وهناك تقسيم اجتماعي آخر ظهر في الأيام الأولى من الدولة الساسانية ويرجع من غير شك إلى ما ورثته هذه الدولة من دولة البرت . نجد هذا التقسيم في النقش المسطور بلفتين في حاجي آباد ، حيث يذكر الملك شابور الأول رمية سهمه المشهورة التي رميت في حضور أمراء الدولة (شهبدران) ، ورؤساء أو أفراد العائلات الكبيرة عامة (واسبوران) والعظماء (بزركان) ، والأحرار أو النبلاء (آرادان) . وليس من اليسر تحديد الصلة بين هذا التقسيم الذي لا يشمل غير الطبقات الممتازة ، والتقسيم الآخر الذي يتعلق بالشعب عامة ، فإن هذه الصلة لم تكن واحدة دائماً . وبالعجلة فإن نظام الطبقات كان شاملاً جداً

والاضطراب والتضارب الظاهران في التقسيم الاجتماعي والسياسي للأمة بتصلان مباشرة بما كان بين نظامي الاقطاع والسيادة المركزية المطلقة التي ورثتها الدولة الساسانية من دولة البرت ، وهذا الخلاف بين هذين المنصرين في الاقطاع وسيادة الشاهنشاه ، هو المميز للتطور الاجتماعي والسياسي منذ أيام أردشير بابكان إلى عصر الأكاسرة » . ص ٨٤ - ٨٧

تاما ويتخذ كل أمير لقباً خاصاً به ، مثل « رتبيل » لقب أمير سجستان ، و « رنجان » لأمير سمنجان ، و « جيفويه » لصاحب طخارستان ، و « اصبهيد » لصاحب بلخ ، و « باذان » لمرو الروذ ، « شهرک » للطالقان ، و « أخشيد » لصاحب فرغانة - وقس عليه * على أن بعض الولايات ، كمرو وسرخس وطوس ، كان يتولاها المرازبة

وأكبر نفوذاً وسطوة من أشرف المملكة وملوكها رجال الدين وهم كهنة الزردشتية ، ويسمى بهم المسيحيون المجوس ، واسمهم عند الفرس الموبدان واحدهم « موبد » ، وهم كالأساقفة عند النصارى ، رئيسهم يسمى « موبد موبدان » مثل رئيس الأساقفة ، وكان نفوذهم فى الدولة يفوق نفوذ الملك (١) ومنهم القضاة أو من يقوم مقامهم فى الحكومة بين الناس

وكان فى بلاد الفرس جماعات تجمعهم نسبة أو صفة يقيمون فى بلد أو يتنقلون فى البلاد ، كالأساورة والسيابجة والزلط والاحامرة ونحوهم (٢)

٥ - طبقات الناس عند العرب الجاهلية

قد علمت أن سكان جزيرة العرب من الشعوب السامية اخوان الاراميين والعبرانيين ، ولكنهم لم يصبهم ما أصاب اخوانهم فى العراق والشام من الاختلاط ، لامتناع جزيرتهم على الفاتحين بما يحدق بها من البوادر التى يعسر سلوكها على الجيوش . وقد هم بها الآشوريون واليونان والروم وغيرهم ورجعوا عنها بلا طائل ، حتى اذا كان القرن الخامس للميلاد فتح الاحباش قسمها الجنوبي (اليمن) وعجزوا عن الحجاز ، فاستنصر اليمينيون الفرس فنصروهم وأخرجوا الاحباش وحلوا محلهم واختلطوا بأهل اليمن وعرفوا بالآبناء الأحرار

على أن بلاد العرب كانت ملجأ النازحين من الشام أو مصر أو العراق ، فرارا من ظلم أو ضغط أو امتناعا على الحكومة لسبب من الأسباب * وأكثر الامم نزوحا إليها اليهود ، لكثرة ما قاسوه من الاضطهاد منذ خروجهم من مصر الى أن اضطهدهم الروم فى عهد طيطس وغيره - وهاجر اليها كثيرون من اليونان والرومان والفرس والهنود والاحباش وغيرهم بلا حرب ولا اضطهاد . ومع ذلك فان العرب ظلوا مستقلين بأنسابهم وعاداتهم وآدابهم * ويقسمون باعتبار النسب أو الوطن الى : قحطانية أو يمنية ، وعدنانية أو حجازية * وانقسمت لغتهم بهذا الاعتبار الى حميرية ومضرية ، وقد فصلنا طبقات العرب وقبائلهم وحلفاءهم ومواليهم وعبيدهم فى الجزء الرابع من هذا الكتاب

(١) Le Christianisme dans l'Empire Perse, 6

(٢) البلاذرى ٢٨١

نظام الاجتماع في عصر الراشدين

بينما في الجزء الرابع ما أحدثه الاسلام من التغيير في العصبية العربية ، وما تولد به من الطبقات الجديدة التي لم تكن قبل الاسلام ، كالمهاجرين والانصار وأهل بدر وأهل القادسية ، وما اقتضاه النسب الهاشمي أو القرشي من العصبية الجديدة ، ومنهم طبقات الاشراف من العلويين أو العباسيين وأبناء الانصار والمهاجرين ، على ما وضعه عمر في ديوانه من مراتب العطاء باعتبار تلك الطبقات (١) وما يلحق بذلك من طبقات التابعين وتابعي التابعين والانتساب الى مشاهير الصحابة كآل الزبير وآل أبي بكر وغير ذلك مما اقتضاه الاسلام والفتوح . فتولد من ذلك بيوتات اسلامية غير البيوتات العربية التي كانت قبل الاسلام (*)

وعندما سار العرب لفتح الشام والعراق كان أول من لقيهم على حدودها العرب أبناء لغتهم وأهل عصبيتهم ، ولما أوغلوا في هذين البلدين استأنس أهلوهما باللسان العربي لقربه من لسانهم الآرامي أو السرياني، مع بعد لسان حكاهم يومئذ الرومي أو الفارسي عنهم - فكان ذلك من جملة ما مهد لهم أسباب الفتح . أما طبقات الناس الاصلية في هذين القطرين فقلما أصابها تغير في عصر الراشدين ، لأن المسلمين لم يكونوا يخالطونهم ولا يدخلون في شيء من أحوالهم الادارية أو الدينية أو السياسية ، وانما كان همهم اقتضاء الجزية والخراج وحماية من دخل في ذمتهم من أهل الكتاب . فكانوا يقيمون في مضاربهم أو معاقلمهم بضاحية البلد المفتوح بما يشبه الاحتلال العسكري - الا من دخل في حوزتهم من الأرقاء بالأسر أو السبي ومن أعتقه فصار من الموالي (***) . وهناك طبقة جديدة نشأت بانتشار الاسلام خارج جزيرة العرب .

(١) الجزء الاول من هذا الكتاب

(*) يريد المؤلف بذلك ان الاسلام أحدث تغييراً حاسماً في التنظيم الاجتماعي للعرب، فبعد ان كان الناس قبائل تتفاضل فيما بينها ويتفاضل أفرادها فيما بين بعضهم البعض بحسب مفايس الشرف والرياسة في الجاهلية ، نشأت مراتب جديدة للناس تقوم على السابقة في الاسلام والامتياز في الميادين الجديدة التي فتحتها امام الناس من سياسية وعلمية . والبيوتات الاسلامية التي يذكرها بيوت عربية في نفس الوقت ولكنه يريد ان يقول ان اساس ظهورها وامتيازها كان الاسلام قبل العروبة

(**) يصدق هذا الكلام على مصر وفارس ولكنه لا يصدق تماماً على الشام والعراق، فقبل بدء اختلاط العرب بأهلها بعد الفتح مباشرة ، وقد ذكر المؤلف ما يؤيد ذلك عندما قال ان الكثير من سكان الشام قبل الاسلام كانوا من العرب ، وكذلك كانت قبائل عربية كثيرة ضاربة على حدود العراق وما بين النهرين ، فمن الطبيعي أن يبدأ اختلاط العرب بأبناء مومنتهم في هذين القطرين بعد الفتح مباشرة . وقد درس دوسو Dussaud في كتابه الذي أشرنا اليه من العرب في الشام قبل الاسلام خطوات هذا الاختلاط ، وقد ألف كوسان دي برسيغال كتاباً شاملاً من العرب قبل الاسلام تحدث فيه عن حرب الشام والعراق وشبه جزيرة سينا وصحراء مصر الشرقية حديثاً وانياً نشير على من يطلب الاستزادة في هذه الناحية بقراءته :

Caussin de Perceval, Essai sur l'histoire des Arabes avant
l'Islamisme, 3 volumes, 2^e éd. Paris, 1920

وهم المسلمون من غير العرب ، ولهم شروط وأحوال تخالف ما للعرب على ما بيناه في الجزء الرابع

نظام الاجتماع في عصر الأمويين

كانت قسبة الاسلام على عهد الراشدين في المدينة بجوار قبر النبي صلى الله عليه وسلم ، فنقلها الأمويون الى الشام قرب البلاد المفتوحة ، وعملوا على توسيع دائرة مملكتهم ، فجردوا الجيوش وفتحوا المدن حتى وطشت حوافر خيولهم ما وراء النهر في أقصى الشرق . . . وركبوا بحر المجاز (مضيق جبل طارق) الى اسبانيا ففتحوها وما وراءها من بلاد الافرنج الى منتصف غالة وهي ما يعرف الآن بفرنسا ، ونصبوا أعلامهم على أعظم مدائن الفرس والترك والروم والاسبان والافرنج ، وهددوا القسطنطينية . وحولوا الاحتلال المؤقت الى السيادة الدائمة ، وأقاموا دولة الاسلام في هذه الاقطار وأيدوها بنقل دواوين الحكومة في الشام ومصر والعراق من اليونانية والقبطية والفارسية الى العربية ، وبعد أن كانت تلك الدواوين يتولاها أهل البلاد غير المسلمين جعلوها في أيدي المسلمين . وضربوا النقود العربية فاستعاضوا بها عن نقود الروم والفرس ، ونقشوا عليها الآيات القرآنية بدلا من الصور والرموز . ونقلوا طراز الدولة من اليونانية أو الفارسية الى العربية - قال ذلك كله الى انتشار العرب في الارض وسيادة العنصر العربي ونشر اللغة العربية .

وقد استمسك العرب بعصبيتهم خلال العصر الاول الذي تلا الفتح، وفرقوا بين أنفسهم وبين الموالي تفرقة واضحة . وانقسموا هم أنفسهم الى قحطانيين وعدنانيين . وظل العرب في أيامهم على بداوتهم بما كانوا يتوخونه من المحافظة على خشونة الجاهلية وسذاجتها. وآدابها

فطبقات الناس في العصر الأموي تقدمت خطوة عما كانت عليه في زمن الراشدين ، فكان الناس طبقتين كبيرتين : المسلمين وغير المسلمين . والمسلمون طبقتان : العرب وغير العرب وهم الموالي . وظل غير المسلمين، وهم أهل الذمة من القبط والانباط والروم والفرس وغيرهم ، على ما كانوا عليه قبل الاسلام - الا من دخل منهم في خدمة المسلمين من الأطباء والكتاب والمترجمين فقد نشأت منهم طبقة جديدة من أهل الذمة لم تكن قبل الاسلام . هذا الى ما حدث في أثناء الفتوح الأموية والحروب الاهلية من انتقال بعض الطوائف والجماعات من بلد الى آخر ، كانتقال السبابة والزط الى سواحل الشام في أيام معاوية ، ونقل الحجاج لجماعة من زط السند الى العراق واسكانه اياهم بأسافل كسكر ، وسبي عبيد الله بن زياد خلقا من أهل بخارا وانزاله اياهم البصرة . ولما بنى

الحجاج مدينة واسط نقل كثيراً منهم اليها فأقاموا فيها وتناسلوا (١) فضلاً
عن كانوا يصطحبونهم أحياناً في حملاتهم البعيدة للفتح أو الغزو، فقد يكون
في الحملة جماعات من البرابرة والانباط والاقباط والجرامقة والجراجمة (٢)
فهؤلاء اذا فتحوا بلداً أقاموا فيه وتناسلوا واختلطوا بأهله

وبالجملة فان الهيئة الاجتماعية في أيام الأمويين كانت في بدء انتقالها من
حالتها القديمة في عصر الروم والفرس الى حالها الجديد الذي ستكون عليه في
العصر الاسلامي. ولم يتم ذلك الانتقال وتتكيف هذه الهيئة الاجتماعية بشكلها
الخاص بالاسلام والتمدن الاسلامي الا في العصر العباسي ، لترفع الأمويين عن
الاختلاط بغير العرب ورغبتهم في البقاء على البداوة . ومع أيغال جنودهم في
بلاد فارس وخراسان وتركستان ومصر والمغرب والاندلس فانهم قلما اختلطوا
بأهلها أو اقتبسوا منهم أو قلدوهم في شيء من عاداتهم وأخلاقهم ، الا ما
اتخذوه من الحرس والبريد والسرين على ما يأتي بيانه . أما العباسيون فنظروا
لتغلبهم بالموالي على الأمويين فقد جعلوا مقامهم بين أشياعهم الفرس ، فبنوا
بغداد على الحدود بين الفرس والسريان ، أو بين الآريين والساميين ، أو بين
المجوس والنصارى ، وقربوا الفرس واتخذوا منهم الوزراء والعمال ورجال
الدولة ، فنظموا لهم الدواوين على نحو ما كانت عليه في الدولة الساسانية

(١) البلاذري ٢٨٤

(٢) البيان والتبيين ١١٤ ج ١ وابن الأثير ٣٥ ج ٥

نظام الاجتماع في العصر العباسي

كل ما قدمناه من الكلام على طبقات الناس في العصور السالفة إنما هو تمهيد للكلام عن العصر العباسي، عندما نضج الثمدن الاسلامي وتكيفت طبقاته على شكل خاص بهذا الثمدن ، وكان على أتم أشكاله في مدينة بغداد قسبة العالم الاسلامي ، فهي أوضح أنموذج يمثل به نظام الاجتماع في ذلك العصر كان الناس في العصر العباسي طبقتين : الخاصة والعامة ، تحت كل منهما طبقات وأتباع وفروع سيأتى تفصيلها :

طبقات الخاصة

كان الخاصة خمس طبقات : (١) الخليفة (٢) أهله (٣) رجال دولته (٤) أرباب البيوتات (٥) توابع الخاصة

فالخليفة صاحب السلطتين الدينية والسياسية (١) فأحر بمن كان هذا منصبه أن يعظم الناس شأنه ويتقربوا اليه بالطاعة وبذل الخدمة والتزلف بالمدح والاطراء . وسيأتى الكلام على الخلفاء ومجالسهم ومواقبهم والآداب المتبعة في مخاطبتهم وغير ذلك في باب أبهة الدولة من هذا الجزء

وأهل الخليفة هم بنو هاشم ، وكانوا أرفع الناس قدرا بعده ويسمونهم الأشراف وأبناء الملوك (٢) فإذا دخلوا على الخليفة جلسوا على الكراسي، وسائر الناس دونهم على الوسائد أو البسط ، الا هو فإنه يجلس على السرير . وكانوا يرتزقون على الغالب يرواتب يقتضونها من بيت المال ، فضلا عما ينالونه من النعم والهدايا بحسب ما يترأى للخليفة في أمرهم ، فإذا خاف تطاول أحدهم للملك أثقل يديه بالهدايا وقطع لسانه بالعطاء - تلك كانت سياسة العباسيين منذ تأسيس دولتهم . وكان الهاشميون في أوائلها عونا كبيرا في تأييدها، يتولون الاعمال ويقودون الجند ويعينون الخليفة بالرأى والسياسة . فلما تأيدت أصبح الخلفاء يخافون مطامع أهلهم ، فأخذوا يبذلون لهم الاموال ، فمن أعجزهم كف أذاه بالمال عمدوا الى الفتك به - باشر ذلك أبو جعفر المنصور وسار الخلفاء على خطته ، فكانوا يعطون أهلهم الرواتب الباهظة والهدايا

(١) راجع الجزء الرابع
(٢) المسعودي ١٧٧ ج ٢ وفيه

الفاخرة ويسهلون عليهم أسباب القصف واللهو ليشـتغلوا بذلك عن طلب الملك وتعجز همهم عن النهوض

فكان الهاشميون فى الغالب من أهل السعة والرخاء ، يتمتعون بشرف الملك ولا يحملون أوزاره وأعباء تبعته ، فانغمس أكثرهم فى الترف وانهمكوا فى الشراب والغناء وأبتنوا القصور السماء والحدائق الغناء ، واستكثروا من الجوارى وجمعوا اليهم المغنين والقيان وقربوا الشعراء والأدباء وأكثر مقامهم فى البصرة ، بعيدين عن دور الخلفاء ودسائسها الا من ولاء الخليفة عملا أو جندا • واشتهر بعضهم بالثروة الطائلة كمحمد بن سليمان، فقد بلغت أمواله نيفا وخمسين مليون درهم غير الضياع والدور ، وكانت غلته ١٠٠٠٠٠ درهم فى اليوم (١) وبلغت ثروة خنـة بنت عبد الرحمن الهاشمى مالا يسعه الديوان (٢) ومع ذلك فقد كانوا يؤخذون بغير ذنبهم ويخافون الدسائس على حياتهم

وأما رجال الدولة فنريد بهم الوزراء والكتاب والقواد ومن جرى مجراهم من أرباب المناصب العالية • وكان أكثرهم فى إبان الدولة العباسية من الموالى وخصوصا الفرس ، كالبرامكة وآل سهل وآل وهب وآل الفرات وآل الخصيب وآل طاهر وغيرهم • وكانوا يختلفون نفوذا وسطوة باختلاف الخلفاء وثقافت أدوار التمدن ، ولكن الوزارة كانت على الاجمال من أوسع أبواب الكسب على ما بيناه فى الجزء الثانى من هذا الكتاب

أما أهل البيوتات فهم الأشراف من غير الهاشميين ، ومرجع شرفهم الى اتصال جبل قرباهم بالنسب النبوى أو بقريش ، وكان الخلفاء يراعون جانبهم ويفرضون لهم الاعطية والرواتب ويقدمونهم فى مجالسهم • على أن هذه الانساب كانت أكثر نفعا لأصحابها فى عهد بنى أمية منها فى أيام بنى العباس ، ولا سيما بعد ضعف العنصر العربى بقتل الأميين • فلما أفضى الامر الى المعتصم قطع رواتب الأشراف فى جملة ما قطعه من أعطيات سائر العرب ، وربما أعيد بعضها بعد ذلك على غير قياس

اتباع الخاصة

وللخاصة أتباع أخرجوهـم من طبقات العامة بما خصوهم به من أسباب القربى والخدمة وهم أربع طبقات : (١) الجند (٢) الاعوان (٣) الموالى (٤) الخدم فالجند فرق كثيرة تختلف أصلا ونظاما على ما فصلناه فى الجزء الاول من هذا الكتاب ، وقد يتبادر الى الذهن قياسا على المؤلف عندنا أن الجند رجال

(١) المسعودى ١٨٨ ج ٢

(٢) الاثليدى ١٥١

الخليفة يأترون بأمره . وقد يكون بعضهم كذلك ، لكنهم كانوا يختلفون في ذلك العصر عما هم عليه الآن ، لأن بعض الخاصة من الوزراء والعمال كانوا يجندون رجالا ينفقون عليهم من أموالهم ، وقد يتساعون غلمانا ويربونهم للاستعانة بهم على أعدائهم وقت الحاجة ويسمونهم بأسمائهم . وقد يذهب الوزير أو العامل وينتقل جنده الى غيره ويبقى معروفا باسمه . فاجتمع في بغداد من الاجناد طوائف كثيرة تنتسب الى اصحابها، كالساجية والنازوكية والبيلىغية والهارونية ، وفيهم الاتراك والفرس والبرابرة والاحباش والاكراذ . ومن هذا القبيل الفرق العزيزية والاششيدية والكافورية في مصر مما لا يحصى ، ومن تلك الفرق ما هو من قبيل الضابطة أو نحوها كالشاكسية، أو لمجرد حماية القصور أو غير ذلك (*)

أما الاعوان فهم خاصة الرجل ورفاقه ، ولا يراد بهم ما يراد بالرفاق أو الاصدقاء اليوم ، فقد كان للخلفاء وسائر الخاصة من رجال الدولة والاشرف رفاق يصطحبونهم ويجالسونهم ويعيشون في منازلهم ويكون لهم رواتب يقتضونها . ومنهم طائفة الجلوساء الذين يجالسون الخليفة أو الأمير ، وهم غير الندماء أو الشعراء وإنما هم رجال من أهل التعقل والثقة يختصهم الخليفة أو الأمير أو الشريف بمجالسته ، فيفاوضهم في شؤونه ويركن اليهم في مهامه وتكون لهم الدالة عليه ، وربما كان بعضهم من مشايخ أهله أو بعض ذوى قرابته

وأما الموالي فقد فصلنا الكلام عنهم في الجزء الرابع من هذا الكتاب ، وبيننا أحوالهم وشروطهم وتاريخهم ولا حاجة الى المزيد

الخدم

أما الخدم فأكثرهم في ذلك العهد الأرقاء السود والبيض من الذكور والاناث ، وقد اصططلحوا أن يسموا الأرقاء البيض ممالك والسود عبيداً ، ويقسم الكلام في الخدم الى ثلاثة أقسام : الأرقاء والحصيان والجواري

(*) لا يطلق الجند الا على مسكر صاحب الامر من خليفة او عامل او أمير على ناحية . أما من يقتنيهم غير صاحب السلطان من الرجال فيقال لهم الفلمان ، وكان كبار الناس والاغنياء يتخذون الفلمان لحراستهم وحماية بيوتهم . وفي العصر العباسي الاول لم يكن يباح للقادة أن يستكثروا من غلمانهم الخاصين بهم أو يتخذوا لانفسهم جنداً الا اذا كانوا عمالا على الفواحش ، ومع ذلك فقد كان جندهم في هذه الحالة الأخيرة يعتبر جنداً للدولة ، فإذا عزل عن الولاية لم ينتقل جنده معه . وخلال العصر العباسي الثاني ، عندما صار الامر للقواد ، أصبح كل منهم يحرص على أن يكون له جند خاص ، بل اجتهد بعضهم في أن يكون جند الدولة الذين بقودهم وكانهم جنده خاصة ، وكان يأخذ رواتب جنده من خزانة الدولة ويفرقها فيهم ، وإذا كان عاملاً على ناحية أعطى جنده أرزاقهم من الخراج ، وإذا تأخر عطاء الجند طالب لهم به . ومعظم أنواع الاجناد الذين ذكرهم المؤلف هم اجناد قادة عسكريين أو عمال فواح ، أما فيما يتصل بمصر فإن العزيزية هم جند الخليفة العزيز بالله الفاطمي والاششيدية جند محمد بن طغج وأولاده والكافورية جند كافور الاششيدى ، أى انهم كانوا فرقاً من جيش الدولة

١ - الأرقاء

فى الجزء الرابع من هذا الكتاب فصل عن الرق فى الإسلام ومصـادـره وأحكامه ، وفصل آخر عن الخدم وطبقاتهم ونفوذهم فى الدولة حتى نبغ منهم القواد والوزراء ، فنأتى فى هذا المقام بما يختص من هذا الموضوع بنظام الاجتماع

قلنا فيما تقدم عن طبقات الناس قبل الإسلام ان العامة من أهل البلاد الأصليين بالشام والعراق ومصر وفارس كانوا يثنون تحت نير الاستعباد ، وبعضهم أرقاء فعلا ولا سيما الأقنان خدمة المزارع الذين كانوا ينتقلون مع العقار من مالك الى مالك . فهؤلاء العامة جاءهم الإسلام رحمة لانهم تحولوا من الرق الى الحرية أو الى العهد (*) ، فمن أسلم صار حرا له ما للمسلمين وعليه ما عليهم ، ومن ظل على دينه دخل فى ذمة المسلمين يدافعون عنه ما أدى الجزية ، الا من حاربهم وأسروه فهو ملك لهم يتصرفون به كيف شاءوا . ولكن أكثر الذين حاربوا المسلمين فى صدر الإسلام من حامىة البلاد وهم الجنود من الروم أو الفرس لم يكونوا من عامة أهل البلاد المظلومين . فمن دخل من الحامىة فى أسر المسلمين صار ملكا لهم ، وكان للمسلمين بعد ذلك أن يطلقوا سراحهم أو يعتقوهم ، ولكن الغالب أنهم كانوا يدخلون الإسلام ويصبحون فى جملة الموالى ، وقد زعم بعض أمراء بنى أمية استعباد أهل البلاد المفتوحة عنوة أو اعتبار المسلمين غير العرب من الموالى ، ولكن الشريعة الإسلامية لم تجز لهم ذلك ، فأنكره العلماء وذوو الرأى فلم يلبث أن رجع عنه من أراده من القواد ورجال الدولة . وقد كانت تصرفات أولئك القواد والأمراء من بين الأسباب التى دفعت الى الثورة على بنى أمية . فلما قامت الدولة العباسية تلاشت هذه النزعات نهائيا

كثرة الاسرى والأرقاء

وتكاثر الاسرى فى أثناء الفتوح حتى كانوا يعدون بالالوف ويباعون بالعشرات - اعتبر ما كان من ذلك فى الصدر الاول وما تبعه من الفتوح البعيدة فى أيام بنى أمية ، فقد بلغت غنائم موسى بن نصير سنة ٩١ هـ فى افريقية ٣٠٠.٠٠٠ رأس من السبى ، فبعث خميسها الى الخليفة الوليد بن عبد الملك ٦٠.٠٠٠ رأس ، ولم يسمع بسبى أعظم من هذا (١) وذكروا أن موسى هذا لما عاد من الأندلس كان معه ٣٠.٠٠٠ بكر من بنات شرفاء القوط

(*) يريد أنهم أصبحوا معاهدين للمسلمين ، والمعاهدون هم أهل الذمة ، فكان يقال : لهم عهد الله ورسوله ، أو لهم ذمة الله ورسوله

(١) نفع الطيب ١١٣ ج ١ وابن الأثير ٢٥٩ ج ٤

وأعيانهم (١) وقس على ذلك غنائم قتيبة في بلاد الترك وغيرها (*)

وبلغت غنائم ابراهيم صاحب غزنة سنة ٤٧٢ هـ من قلعة في الهند ١٠٠٠٠٠٠ نفس (٢) وفي وقعة ببلاد الروم سنة ٤٤٠ هـ بقيادة ابراهيم بن اينال سبأ المسلمون ١٠٠٠٠٠ رأس غير الدواب (٣) . وفي جملة غنائم الحرب ، فضلا عن الأسرى من الرجال ، جماعات من النساء والغلمان مما يثقل نقله ، فكثيرا ما كانوا يبيعونهم بالعشرات رغبة في السرعة كما فعلوا في واقعة عمورية سنة ٢٢٣ هـ اذ نادوا على الرقيق خمسة خمسة أو عشرة عشرة * وربما بلغ ثمن الانسان بضعة دراهم - ذكروا أنه بلغ من كثرة غنائم المسلمين في واقعة الأرك بالأندلس أن بيع الأسير فيها بدرهم والسيوف بنصف درهم (٤) والبعر بخمسة دراهم ، وقد يقضون عدة أشهر وهم يبيعون الأسرى والغنائم تلك أمثلة من أسباب تكاثر الرقيق عند المسلمين ، غير ما كان يرسله بعض العمال إلى بلاط الخلفاء من الرقيق وظيفه كل سنة من تركستان (٥) وبلاد البربر وغيرهما

معاملة الأسرى

كانوا في صدر الاسلام اذا ظفروا بغنيمة تولى الامير قسمتها على القواد ، بعد ارسال الخمس إلى بيت المال ، ثم اختلف ذلك مع الزمان باختلاف الدول . ففي الدولة الفاطمية بمصر كانوا اذا عاد الجند من حرب ومعهم الأسرى يصل الاسطول بالنيل الى شاطئ القاهرة فينزلون الأسرى ويطوفون بهم القاهرة ، ثم ينزلونهم في مكان كانوا يسمونه المناخ (في جهة الاسماعيلية اليوم) كان مستودعا للأسرى الذكور ، فينظرون فيهم فاذا استرابوا في أحد قتلوه ، ومن كان شيخا لا ينفع ضربوا عنقه وألقوا جثته في بئر كانت في خرائب مصر تعرف ببئر المنامة * ومن بقي يضاف الرجال منهم الى من في المناخ ، ويمضى بالنساء والاطفال الى قصر الخليفة ، بعد ما يعطى الوزير منهم طائفة ويفرق الباقي لخدمة المنازل * ويدفع الصغار من الأسرى

(١) ابن الاثير ٢٧٢ ج ٤ (*) هذه المبالغ من اختراع القصص والرواة ، وقد نقلها الكثيرون من محققى المؤرخين دون تدقيق أو نظر ، ومن المعروف ان مؤرخى المسلمين عامة لا يدققون في الأرقام ، بل كانوا اميل الى الأخذ بالمبالغ فيه منها على اعتبار أن ذلك يكسب التاريخ طلاوة وغرابة . وقد اخذ ذلك ابن خلدون عليهم في الفصل الاول من مقدمته المشهورة ، وأورد أمثلة من مغالطات المؤرخين وأوهامهم في الأرقام والأعداد . أما ما يذكره المؤلف عن سبى موسى بن نصير رواية من نفع الطبيب للمقرئ فاصله في فصول من كتاب الامامة والسياسة المنسوب لابن قتيبة خاصة بموسى بن نصير ، ويرجح أن هذه الفصول ليست جزءا من الكتاب وإنما هي قطعة من تاريخ قصصى لموسى بن نصير كتبه أحد أحفاده المعروف بمعارك النصيرى

(٢) ابن الاثير ٤٦ ج ١٠

(٣) ابن الاثير ٢٢٧ ج ٩

(٤) نفع الطبيب ٢٠٩ ج ١

(٥) المقرئى ٣١٣ ج ١

الى الاستاذين فيربونهم ويعلمونهم الكتابة والرماية ويسمونهم اذ ذاك «الترابي» وقد يرتقى أولئك الصبيان الى رتب الامراء (١) (*)

ولم يكن استخدام الاسرى على هذه الصورة خاصا بالمسلمين ، بل هي عادة كانت مرعية في تلك الاعصر ، فمن يقع من المسلمين في ايدي أعدائهم كان حظهم الاسترقاق حتى يفتديهم المسلمون ، وكان للخلفاء عناية في فكك الاسرى يبذلون في سبيله المال أو يعطون اسرى عندهم على سبيل المبادلة . ومن هنا نشأ ما يعرف « بالفداء » في تاريخ العلاقات بين المسلمين والروم ، لان الحرب كانت سجالا بينهما في البر والبحر يأسرون بعضهم بعضا ، فاحتاج الجانبان الى تنظيم عملية فداء الاسرى ، فكانوا يتفقون على اللقاء في موضع معين لتبادل الاسرى ، فيتبادلونهم واحدا بواحد ، حتى اذا زاد عند أحدهم عدد من الاسرى افتداه الجانب الآخر بالمال . وكان الامويون يفتدون اسراهم أحيانا وعلى قلة ، النقر بعد النقر ، في سواحل الشام والاسكندرية ومطية وسائر الثغور على الحدود . وأول فداء منظم وقع في أيام بنى العباس على يد الرشيد كان سنة ١٨٩ هـ وتوالى الفداء بعده بضع عشرة مرة في أثناء ١٥٠ سنة . وتزايدت عناية المسلمين في فكك اسراهم حتى أصبح أهل الورع من الاغنياء يقفون المال على فككهم (٢)

أما الروم فقلما كانوا يفتدون اسراهم بالمال ، ولعل السبب في ذلك أن أولئك الاسرى يكونون في الغالب لقيفا من رعاياهم أو أجنادا من الغرباء المأجورين وليس من الروم أنفسهم ، أما المسلمون فهم غالبا المهاجمون ، فاذا ظفروا كانت غنائمهم من ذلك اللقيف واذا غلبوا فمن وقع في الاسر منهم كان من المحاربين الذين يستحقون الفداء ، والرابطة القومية بين المسلمين يومئذ أشد وثوقا منها بين الروم ورعاياهم وأجنادهم . على أن المسلمين كثيرا ماكانوا يأبون المال بدل الاسرى ولا سيما في الدولة الفاطمية ، ولا يعرف عن هذه الدولة أنها فادت أسيرا من الافرنج بمال ولا بأسير مثله ، فكان ذلك من جملة البواعث على زيادة الأرقاء عند المسلمين

فهل يستغرب بعد ذلك اذا استكثر المسلمون من العبيد والماليك فيبلغ عددهم عند بعضهم عشرة أو مائة أو ألفا ؟ حتى الفقراء من عامة الجند كان أحدهم لا يخلو من عبد أو بضعة عبيد يخدمونه (٣) وكان للفارس في عصر

(١) المقرئى ١٩٣ ج ٢ و ٤٨٩ ج ١

(*) الاستاذون جمع استاذ ويراد بهم في المصطلح الفاطمي الربون الذين يربون الخدم والريق في قصور الخلفاء ويعنون بشؤونهم

(٢) المقرئى ٧٩ و ١٩١ ج ٢

(٣) المسعودى ٢٢ ج ٢

الأيوبيين عشرة أتباع يخدمونه أو بضع عشرات إلى مائة (١) فكيف بالأمراء والقواد ؟ حتى في صدر الاسلام ، فان الخليفة عثمان كان له ألف مملوك مع علمك بزهد الراشدين قبله (٢) فاعتبركم يكون عددهم في أيام الشروة والترف ، فقد كان الأمير في الدولة الأموية اذا سار مشى في ركابه مائة عبد أو بضع مئات أو ألف عبد (٣) وبلغ عدد غلمان رافع بن هرثمة والى خراسان سنة ٢٨٩ هـ ٤٠٠٠ عبد ولم يملك أحد من ولاية خراسان قبله مثله

اصناف الأرقاء

وكانوا اذا تكاثروا الأرقاء عند أحدهم وأراد استخدامهم في منزله جعل عليهم نقيبا يتولى النظر في شئونهم يسمونه الأستاذ . على أن الغالب في الغلمان اذا كثروا عند أمير أن يتخذهم جندا يحرسونه فيعلمهم الحرب والقتال . فقد كان عند الأخشيدي صاحب مصر ٨٠٠٠ مملوك يحرسه في كل ليلة الفان . وأكثر فرق الجند عند الأمراء من غلمانهم ، وأصلهم من السبى والأسرى أو يبتاعونهم بالمال لهذه الغاية كما تقدم في كلامنا عن فرق الجند ، وربما بلغ تمن المملوك ألف دينار

أما الباقون من الأرقاء للخدمة في البيوت فيعلمونهم الصنائع اللازمة لتدبير المنزل ، فعنهم الفراش والطباخ والخازن والوكيل أو النقيب والبواب والملاح والركابى وغيرهم (٤) ومنهم الوصيف والمملوك ، وفيهم التركي والفارسي والبربري والزنجي والصقلبي بين مجلوب ومولد من الذكور والإناث مما لا يحصى

وإذا زادوا عما يحتاجون اليه في الخدمة أو الحراسة أو الحماية اتخذوا الغلمان منهم زينة لمجالسهم ، وكان يفعل ذلك أهل السعة واليسار ولا سيما الخلفاء ، فانهم تأنقوا في تزيينهم بأنواع اللباس المزخرفة مما لم يستيق له مثيل . وأول من أقدم على ذلك الأمين بن الرشيد فانه بالغ في طلب الغلمان ولا سيما الخصيان ، وابتاعهم وغالى فيهم وصيرهم لخلوته وزينهم زينة الجوارى . ثم صار الاستكثار من الغلمان سنة عند الخلفاء فكان عند المقتدر بالله ١١٠٠٠ غلام أو مملوك ، وفيهم البيض والسود . فالبيض من الفرس والديلم والترك والطبرية وغيرهم ، والسود من النوبة والزغاوة يجلبونهم من مصر ومكة وأفريقية . والزنج أصلهم من رجال صاحب الزنج الذى ثار بالبصرة ، وهم غثم قثم يأكلون لحوم الناس والبهائم الميتة ، وقد عوقبوا على ذلك فلم يرجعوا

(١) المقرئ ٦٥ ج ١

(٢) الدميرى ٤٩ ج ١

(٣) ابن الأثير ١٤٧ ج ٤ والافغانى ٣٧ ج ١

(٤) طبقات الأطباء ١٤١ و ١٤٥ ج ١

وكانوا منفردين لا يختلطون بالبيض ، ولكل طائفة نوبة فى خدمة الخليفة بين حراسة وغيرها (١)

٢ - الخصيان

الخصاء عادة شرقية كانت شائعة قديما بين الاثوريين والبابليين والمصريين القدماء ، واخذها عنهم اليونانيون ثم انتقلت الى الرومان فالافرنج . ويقال ان اول من استنبطها سميراميس ملكة اشور نحو سنة ٢٠٠٠ قبل الميلاد - وكان المظنون ان الخصاء يذهب بقوة الرجولية ، وفى التسارنج جماعة من الخصيان اشتهروا بالشجاعة والسياسة ، وتولوا مناصب مهمة فى أزمنة مختلفة ، منهم نارسس القائد الرومانى الشهير فى عهد جوستينيان فى القرن السادس للميلاد ، وهرمياس حاكم اثارنية فى ميسيا الشهير الذى قدم الفيلسوف ارسطو ذبيحة عن روحه غير مذكوره فيه من القصائد . ومن اشتهر من الخصيان فى الاسلام كافور الاخشيدى صاحب مصر . واشتهر منهم فى الهند وفارس والصين جماعات كبيرة ، واستبد الخصيان فى اواخر الدولة الرومانية استبدادا كبيرا

وللخصاء اغراض اشهرها استخدام الخصيان فى دور النساء غير عليهن . فلما ظهر الاسلام وغلب الحجاب على اهله استخدموا الخصيان فى دورهم ، واول من فعل ذلك يزيد بن معاوية ، فاتخذ منهم حاجبا لديوانه اسمه فتح ، واقتدى به غيره فشاع استخدامهم عند المسلمين مع ان الشريعة الاسلامية اميل الى تحريمه ، على ما يؤخذ من حديث رواه ابن مظهر

وكانت تجارة الرقيق شائعة فى اوربا قبل الاسلام . ومن اسباب رواجها ان قبائل الصقالبة (الروسين) نزلوا فى اوائل ادوارهم شمالى البحر الاسود ونهر الطونة ، ثم اخذوا ينزحون قريبا جنوبيا نحو واسط اوربا وهم قبائل عديدة عرفت بعدئذ بقبائل السلاف (الصقالبة او السكلاف) والصرب والبوهيم والدماشيين وغيرهم . فاضطروا وهم نازحون ان يحاربوا الشعوب الذين فى طريقهم كالكسون والهون وغيرهم . وكان من عادات اهل تلك العصور ان يبيعوا اسراهم بيع الرقيق كما تقدم ، فتألف لذلك جماعات كبيرة من التجار يحملون الاسرى عن طريق فرنسا فاسبانيا ، وقد يحملونهم الى افريقية والشام ومصر . فلما وقعت هذه البلاد فى ايدي المسلمين راجت تلك التجارة

فكان التجار من الافرنج وغيرهم يبتاعون الاسرى من الصقالبة والجرمان من جهات المانيا عند ضفاف الرين والالب وغيرهما الى ضفاف الدانوب وشواطئ

(١) تاريخ الوزراء ١٢

البحر الأسود - ولا يزال أهل جورجيا والجركس الى اليوم (حوالى ١٩١٠) يبيعون أولادهم بيع السلع - فاذا عاد التجار من تلك الرحلة ساقوا الأرقاء أمامهم سوق الاغنام ، وكلهم بيض البشرة على جانب عظيم من الجمال ، وفيهم الذكور والاناث حتى يحطوا برجالهم في فرنسا ومنها ينقلونهم الى أسبانيا (الاندلس) فكان المسلمون يتناعون الذكور للخدمة أو الحرب والاناث للشرى . وغلب على أولئك الأرقاء انتسابهم الى قبيلة السلاف ، وكانت تلفظ عندهم « سكلاف » فعربها العرب « صقلبي » وأصبح هذا اللفظ عندهم يدل على الرقيق الأبيض بالاجمال . وكثيرا ما يرد لفظ الصقالبة في تاريخ الاسلام ويراد به الأرقاء من قبائل السلاف والجرمان - وفعل الافرنج نحو ذلك أيضا فاستخدموا هذه اللفظة لنفس هذا المعنى ومنها *esclave* في الفرنسية و *Sklave* في الجرمانية و *slave* في الانجليزية

ولما شاع الحجاب بين المسلمين في ابان سلطنتهم واستخدموا الخصيان في دورهم ، عمد تجار الرقيق - وأكثرهم من اليهود - الى خصاء بعض الأرقاء وبيعهم بأثمان غالية ، فراجت تلك البضاعة وكثر المشتغلون بها وأنشأوا « لاصطناع » الخصيان معامل عديدة أشهرها « معمل » الخصيان في فردان بمقاطعة اللورين في فرنسا . وكان اليهود يخصصون أولئك المساكين وهم أطفال فيموت كثيرون منهم على أثر العملية ، فمن بقى حيا أرسلوه الى أسبانيا فيشتريه الكبراء بثمن كبير . وأصبحوا بتوالى الأزمان يتهددون الخصيان كما يتهددون الخيل أو الاناث أو الآنية ، فكان ملوك الافرنج اذا أرادوا التقرب من خليفة المسلمين في الأندلس أو غيرها أهدهو التحف ومن جملتها الخصيان ، كما فعل أمير برشلونة وطركونة لما طلبا تجديد الصلح من المستنصر خليفة الأندلس فأنهما أهدياه ٢٠ خصيا من الصبيان الصقالبة و ٢٠ قنطارا من صوف السمور ، الخ . فتكاثر الخصيان في بلاط الخلفاء حتى تألفت منهم فرق الحراسة الخاصة ، كما تألفت الفرق من سائر الممالك والعبيد . فاذا احتفل الخليفة ببيعة أو نحوها كان الممالك والخصيان زينة ذلك الاحتفال

وراجت تجارة الصقالبة في ابان التمدن الاسلامي ، وكل ما كان يفد على المملكة الاسلامية منهم يستجلب من الأندلس لأنهم كانوا يخصصون بالقرب منها ، غير ما يحملونه من الصقالبة من جهات خراسان مما يسببه الخراسانيون ويحملونه للبيع ، لأن بلد الصقالبة طويل يسببه الافرنج من الغرب والخراسانيون من الشرق (١)

٣ - الجوارى

تكالرهن

للجوارى شأن كبير في تاريخ التمدن الاسلامى لا يقل عن شأن العبيد والمواالى، وأصل الجوارى مايسببه الفاتحون في الحرب من النساء والبنات ، فهن ملك الفاتحين ولو كن من بنات الملوك أو الدهاقين ، يستخدمنهن أو يستولدنهن أو يتصرفون فى بيعهن تصرف المالك بملكه (١) ولما أفضت أحوال المسلمين الى الترف والقصف وتدفقت الأموال من خزائن الخلفاء والأمراء جعلوا يتهادونهن كما يتهادون الحلى والجواهر . فمن اخب التقرب من كبير أهدي اليه جارية اتقنت صناعة يعلم أنه راغب فيها - فاذا علم مثلاً أنه يجب الجمال أهداه وصيفة جميلة ، أو علم منه ميلا الى الفناء أهدي اليه قينة رخيصة الصوت . وقد يهديه عدة جوار اتقن عدة صناعات ، وربما صارت احداهن بعد حين أم ذلك المنزل وصاحبة الأمر فيه اذا استولدها سيدها . واذا كانت في دار خليفة لا يبعد أن تصير من أمهات الخلفاء ، كما اتفق لأكثر خلفاء بنى العباس ، ذكروا أن جارية اسمها دنائير صفراء صادقة الملاحاة كانت أروى الناس للفناء القديم ، وقد خرجها رجل من أهل المدينة فاشتراها جعفر البرمكى ، وسمع الرشيد صوتها فألفها وصار يسير الى جعفر لسماع غنائها ووهب لها هبات سنية . وعلمت امراته زبيدة بخبرها فشكته الى عمومته فلم ينجحوا فى ارجاعه ، فرات أن تشغله عنها بالجوارى فأهدت اليه عشر جوار منهن مارية أم المعتصم ومراجل أم المأمون وفاردة أم صالح (٢)

وكثيرا ماكان العمال والأمراء يتقربون الى الخلفاء بأمثال هذه الهدايا ، فأهدى ابن طاهر الى الخليفة المتوكل هدية فيها ٢٠٠ وصيفة ووصيف (٣) فلاغرو اذا تكاثرن فى قصور الخلفاء والأمراء وأهل الوجاهة . وليس الاستكثار منهم حادئا فى الاسلام ، وانما هو من بقايا التمدن القديم ، فقد كان ملوك الفرس والروم يتهادونهن وبلغت عدتهن عند بعض الأكاسرة ٦٠٠٠ جارية (٤) وكان جماعة من بنى العباس ألف جارية ، وسيأتى بسط ذلك فى مكان آخر

اصناف الجوارى

فلما تعود الناس اقتناء الجوارى اشتغل النخاسون فى استجلابهن من أقصى بلاد الترك والهند والكرج والخطا (✱) وارمينيا والروم والبربر والنوبة والزنج

(١) ابن خلكان ٣٢٠ ج ١ ،

(٢) الاغانى ١٣٧ ج ١٦

(٣) المسعودى ٢٨٠ ج ٢

(٤) المسعودى ١١٥ ج ١ وترتيب الدول ١١١

(✱) يراد بالخطا بلاد الصين ، وقد استعمل الاوروبيون هذا اللفظ اول الامر ، فكانوا يسمون الصين Cathay

والحبشة صفارا وكبارا ، يربونهن على ما تقتضيه مواهبهن أو جمالهن ، فينبغ منهن الخدم والحواضن والمواشط والولائد والمغنيات والعودات والعالمات وأمهات الدهاء والسياسة وغير ذلك . وفيهن البيضاء والسمراء والحمراء والبربرية والزنجية ، بين مولدة في البصرة أو الكوفة أو بغداد ممن يفصحن العربية ، ومجلوبة من أرضها أو سبية أخيدة على حالها تتكلم التركية أو الفارسية أو الرومية أو الهندية أو البربرية ، ولا تزال ولو تعربت أعجمية اللسان . والمولدة أئمن من الجليبة ، وتختلف أئمانهن باختلاف الصناعة أو الجمال وباختلاف الغرض من ابتياعهن للتوليد أو الغناء أو الخدمة . وفي الجليبات النصرانية واليهودية والمجوسية ، لكل منهن شأنها في دينها حتى يعيدن أعيادهن بما يستلزمه العيد من الزينة الدينية كالصلبان والأحجية ونحوها - ذكر أحمد ابن صدقة أنه دخل على المأمون في يوم الشعانين وبين يديه عشرون وصيفة جلبا روميات مزنرات (**) قد تزين بالديباج الرومي وعلقن في أعناقهن صلبان الذهب وفي أيديهن الخوص والزيتون (١)

على أنهم كانوا يختصون كل صنف من الجوارى بصفات خاصة ، وقد صنفوا كتباً في هذا الموضوع بينوا فيها الصفات المستحسنة في كل صنف منهن ، وخلاصة ذلك قولهم : من أراد النجابة فبنات فارس ، ومن أراد الخدمة فبنات قيصر ، ومن أراد غير ذلك فبنات بربر ، والمولدات والزنجيات للزمر ، والحبشيات للحفظ وخرن المال ، والنوبة للطبخ ، والأرمن للتربية والرضاع . ومن أقوالهم : الوجه في الترك ، والأجسام في الروم ، والشعور في الخطا وفارس ، والعيون في الحجاز ، والخصور في اليمن (٢) وقالوا في وصف المولدات بالبصرة والكوفة : انهن ذوات اللسن العذبة ، والقنود المهفهفة ، والأوساط المخصرة ، والاصداغ المزرفنة ، والعيون المكحلة (٣) مما يطول شرحه . وكانت تجارة الجوارى على أروجها في بغداد ، فكانوا يحملون إليها أجملهن خلقا وأذكاهن عقلا ، لما يتوقعونه من بيعهن بالائمان الباهظة .

تعليم الجوارى

وكان تعليم الجوارى وتربيتهن من أبواب الكسب الواسعة في ذلك العصر ، فيذهب أحدهم إلى دار الرقيق يبتاع جارية يتوسم فيها الذكاء ، فيثقفها ويرويهما الأشعار أو يلقنها الغناء أو يحفظها القرآن أو يعلمها الأدب أو النحو أو العروض أو فنا من فنون المنازل ثم يبيعها . وكان يفعل ذلك على الخصوص المغنون المشهورون بدقة الصناعة كإبراهيم الموصلى وابنه اسحق ، فربما

(**) أي شددن خصوصهن بالزناز ، وهو حزام خاص كان من شارات النصارى في اللباس

(١) الأغاني ١٢٨ ج ١٩

(٢) ترتيب الدول ١١٢

(٣) المسعودي ١٥٤ ج ٢

ابتاع أحدهم الجارية بمائة دينار فاذا علمها وثقفها باعها بخمسمائة أو ألف ديناراً (١) وأشهر المغنيات في المدينة والبصرة وبغداد تعلمن على هذه الصورة . وقد يربى بعضهم الجارية ويهديها إلى الخليفة أو الوزير لتكون وسيلة له في نفوذ الكلمة عنده . وقد تنبغ أحدهن في فن من الفنون الجميلة كالغناء أو الشعر أو الأدب فتبتاع بالوف الدنانير (٢) . فكيف إذا أتقنت غير فن منها ؟ وربما نبغت منهن من تجيد الشعر والغناء أو فنون الأدب والأخبار ، فيقصدها أهل الأدب وذوو المروعة للمذاكرة والمساجلة في الشعر وغيره ، وقد ينبغن في حفظ القرآن حتى كان منهن عند أم جعفر مائة جارية لكل واحدة ورد عشر القرآن ، وكان يسمع في قصرها كدوى النحل من القراءة (٣)

فتعدد الجوارى في دور الكبراء وتسابق أهل الترف إلى التفتن في تزيينهن . وأشهر من فعل ذلك أم جعفر المذكورة ، فانها لما رأت ابنتها يغالى في تخنيث الغلمان والباسهم ملابس النساء اتخذت طائفة من الجوارى سمتهن المكدودات ، عممت رءوسهن وجعلت لهن الطرر . والاصداغ والاقفية والبستهن الاقيصة والقراطق والمناطق كانهن من الغلمان ، واقتدى بها وجيهات قومها فاتخذن الجوارى الغلاميات أو المطمومات والبسنهن الاقيصة والمناطق الذهب (٤)

نفوذ الجوارى

وطبيعى في ربات الحسن أن يكن نافذات الكلمة لأن الجمال قوة والحب سلاح، ولذلك كان أرباب الدهاء من الخلفاء والأمراء يتباعدون عن الجوارى ، إذا أهدى إلى أحدهم جارية لم يلتفت إليها ، ولا سيما مؤسسى الدول كعماوية والمنصور وعبد الرحمن الداخل . فاشتهر المنصور بكرهه للهو ، وكان عبد الرحمن إذا أهداه أحد جارية ردها (٥) وعكس ذلك خلفاء أواسط الدولة إبان الترف والقصص والرخاء ، فانهم كانوا يتمادون في حب الجوارى حتى يتسلطن على عقولهم ، كما فعلت حبابة بيزيد بن عبد الملك الأموى حتى كادت تذهب بعقله وشغلته عن مهام الخلافة . وكما فعلت ذات الخال بالرشيد ، فانها ملكت قياده حتى حلف يوما أنها لا تسأل شيئا في ذلك اليوم الا قضاء لها ، فسألته أن يولى حمويه الحرب والخراج بفارس سبع سنين ، ففعل وكتب له عهده به وشرط على ولى عهده بعده أن يتمها له ان لم تتم في حياته (٦) وكثيرا ما كان الخلفاء والأمراء يشتغلون بالجوارى عن رعاية الملك ولاسيما المغنيات ، ولذلك

-
- (١) الاغانى ١٥٤ ج ٨
 (٢) الجزء الثانى من هذا الكتاب
 (٣) ابن خلكان ١٩٠ ج ١
 (٤) المسعودى ٣٦٦ ج ٢
 (٥) نفح الطيب ٧٠٩ ج ٢
 (٦) الاغانى ٨٠ ج ١٥

كان رجال الحيلة يستخدمونهن للجاسوسية أو نيل رتبة أو منصب ، وكان المأمون يدس الوصائف هدية ليطلعنه على أخبار من شاء (١) ويزداد الجوارى نفوذاً وسطوة إذا صرن أمهات كما صارت الخيزران وغيرها من أمهات الخلفاء - راجع الجزءين الثانى والرابع من هذا الكتاب ، وسيأتى الكلام على المغنيات فى باب المغنين

طبقات العامة

فرغنا من طبقات الخاصة وأتباعهم ، ونحن متكلمون عن العامة وهم أكثر عدداً وأبعد عن الحصر ، لأنهم لفيف من أمم شتى ولاسيما فى بغداد فى إبان عمارتها ، وقد تقاطر إليها المرتزقون والمحترفون والمستجدون من أطراف المملكة الإسلامية ، بين صانع وبائع وفيهم العربى والنبطى والفارسى والخراسانى والتركى والسندى والرومى والكرجى والأرمنى والكردى والقبطى والبربرى والتوبى والزنجى والاندلسى وغيرهم . وفيهم أهل الحرف الراقية ، وتجار السلع والأقمشة والجواهر والرقائق وباعة الطعام والشراب ، فضلاً عن الأدباء والشعراء والحكماء والمغنين والندماء مما يطول شرحه ويعسر حصره . على أننا تسهيلاً للبحث نقسم العامة على الإجمال إلى طبقتين كبيرتين : الأولى طبقة المقرئين من الخاصة ، والثانية طبقة الباعة وأهل الحرف والرعاع وغيرهم

الطبقة الأولى

المقربون من الخاصة

نريد بهذه الطبقة نخبة العامة الذين تسمو بهم نفوسهم أو عقولهم إلى التقرب من الخاصة بما يعجبهم أو يطربهم ، فيستظلون بهم ويعيشون من عطاياهم أو رواتبهم أو يرتزقون من بيع سلعهم لهم ، وهم أربع فئات : أهل الفنون الجميلة والأدباء والتجار والصناع

١ - أهل الفنون الجميلة

المصورون

الفنون الجميلة - ويسمىها العرب « الآداب الرفيعة » - ثلاثة : التصوير ، والشعر ، والموسيقى . فالتصوير لم يكن له شأن كبير فى التمدن الإسلامى لورود القول بتحريمه ، وإنما كانوا يصورون ما يصورونه فى الدولة الأموية والعباسية يقلدون به ما بين أيديهم من تصوير الروم والفرس ، أو ماجاء به السلاجقة من صناعة المغول من أواسط تركستان . على أن التصوير ازهر

وارتقى في بلاد فارس بعد اجتماع كلمة الفرس تحت سيطرة المغول على أثر فتح هولاكو بغداد سنة ٦٥٦ هـ فان تلك الصناعة أخذت في الارتقاء من ذلك الحين ، لأن المغول المشار اليهم اتوا معهم بمهندسين من أهل الصين تولوا هندسة حصار بغداد ، ومعهم جماعة من أرباب الفنون الجميلة والرياضيات والصناعات الدقيقة ، فاستفاد الفرس منهم واتقنوا هذه الفنون وفي جملة ما التصوير ونشروه في سائر ممالك المسلمين ، وزينوا به كتبهم وجدران قصورهم ومنسوجاتهم في بلاد فارس ومصر وتركستان وغيرها (١) وفي دور الكتب الكبرى في مدائن العالم المتمدن اليوم أمثلة من هذه الصور ، ملونة تلوننا بديعا أكثرها تمثل حوادث بعض كتب التاريخ أو الأدب أو العلم . وبعضها تمثل رسوما خيالية كصورة المعراج ونحوها . ففي دار الكتب بالقاهرة صور ملونة هي عبارة عن أشكال زينوا بها كتابي الشاهنامة للفردوسي وعجائب المخلوقات للقزويني وغيرهما . أما في أبان التمسدن الاسلامي فلم يكن لاهل هذه الصناعة سوق عند الخاصة ، الا من اشتغل منهم بهندسة الأبنية ولا سيما في الاندلس

أما الشعر والموسيقى فقد راجا وتقرب أصحابهما من الخلفاء وسائر طبقات الخاصة واكتسبوا بهما الأموال الطائلة . وقد بينا في الجزء الثالث من هذا الكتاب ما هو الشعر العربي وما أصله ، وما كان شأنه في الجاهلية وما آل اليه بعد الاسلام ، من عصر الراشدين فالأمويين فالعباسيين وسائر دول الاسلام ، وتحدثنا عن جمع الشعر ورواته وطبقات الشعراء في الاسلام وأشعارهم ، والشعر وتأثيره في الدولة والشعر والخلفاء والأمراء وغير ذلك ، - وسيأتى الكلام عما كان الشعراء يصيبونه من الأموال - يقي علينا النظر في الموسيقى وأهلها وهم المغنون

٢ - المغنون

الغناء قبل الاسلام

الغناء طبعي في الأمم ، لانه لغة النفوس وترجمان العواطف ، وكل أمة غناؤها يناسب طبائعها وعاداتها ، فالعرب في الجاهلية كانوا أهل ماشية وأنعام وخيام ، فلم ينتبهوا الى شيء من الفنون الجميلة غير الشعر . وكانوا يلهجون به ويطربون بتلاوته بلا ترنيم ولا غناء ، وتلك أول خطوة نحو الموسيقى لأنها بنت الشعر أو اخته

ثم ظهر فيهم « الحداء » وهو غناء يتغناه الحداة في سوق ابلهم والفتيان في قضاء خلواتهم ، ثم عمدوا الى « الترنيمة » . وكان ترنيمتهم على نوعين :

« الغناء » وهو ترنيم الشعر ، و « التغبير » (بالغين والباء) وهو ترنيم القراءة لغير الشعر

ثم تنوع الغناء عندهم حتى صار على ثلاثة أوجه ، أو ثلاثة الحان أو أصوات وهى : النصب والسناد والهزج . « فالنصب » يريدون به غناء الركبان وغناء الفتيان ، وهو الذى يقال فى المراثى ، ويسمى « الغناء الجنبى » نسبة الى رجل من قبيلة كلب اسمه جناب بن عبد الله يزعمون أن أصل الحداء منه ، وهو يخرج من الطويل فى العروض . و « السناد » اللحن الثقيل ذو الترجيع الكثير النغمات والتبرات . وهو على ستة طرق ، منها الثقيل الأول وخفيفه والثقل الثانى وخفيفه . وأما « الهزج » فهو الخفيف الذى يرقص عليه ويمشى بالدف والمزمار فيطرب ويستخف الحلوم . وشاع الغناء قبل الاسلام فى امهات المدن من بلاد العرب وهى المدينة والطائف وخيبر (١)

أما آلات الموسيقى عندهم فأشهرها الدف ، وهو أشكال منها المستدير والمربع والكبير والصغير ، والمزمار على أبسط أنواعه . ولا يظهر أنهم كانوا يعرفون غير الدف والمزمار وما يتفرع عنهما من آلات النفخ والقرع . وأما آلات الاوتار كالعيدان والطناير والمعاذف ونحوها فهى من صناعة الفرس والروم ، لم يعرفها العرب الا بعد الاسلام (*)

(١) العقد الفريد ١٨٦ ج ٢

(*) الدراسات عن الموسيقى العربية كثيرة ، وكلها مع الاسف باللغات الاوروبية ، اذ لم يعكف على دراستها أحد منا دراسة علمية على أصولها ، ويجد القارئ بيانا بأهم المراجع فى كتاب هنرى جورج فارمر « الموسيقى العربية » الذى ترجمه الدكتور حسين نصار ونشره فى القاهرة سنة ١٩٥٦ . وأهم هذه المراجع

Coussin de Perceval, Notices sur les principaux musiciens arabes, dans J. A 1873.

Land, Recherches sur l'histoire de la gamme arabe (Actes de VIe Congrès Internationale des Orientalistes, 1883) Leyden 1884.

Ibidem, Essai de notation musicale chez les Arabes et les Persans; dans Etudes dédiées au docteur C. Leemans, Leyden 1885.

Tripodo, Lo stato degli studi sulla Musica degli arabi, Roma 1904.

Ribera, Historia de la musica arabe medieval y su influencia en la española. Madrid 1927.

Ibidem, Arabic musical manuscripts in the Bodleian Library, London 1925.

ومن الأصول العربية القديمة والأبحاث الحديثة ، بالإضافة الى ما كتبه ابن خلدون فى المقدمة وابن سينا فى الشفاء (جزء خاص عن الموسيقى أعد للطبع ويظهر فى القاهرة قريبا ضمن سلسلة مؤلفات ابن سينا) والفارابى (كتاب الموسيقى وقد نشر فى مجلد أعمال مؤتمر المستشرقين السادس ، ليدن ١٨٨٤) :

محمد بن على الأربلى : جواهر النظام ، نشر فى مجلة المشرق ، المجلد ١٤

شهاب الدين محمد بن اسماعيل : سفينة الملك ، القاهرة ١٨٩٢

احمد السفرجلانى : السفينة الادبية ، دمشق ١٨٩١

عثمان بن محمد الجندى : روض المسرات ، القاهرة ١٨٩٥

ميخائيل مشاققة : الرسالة الشهابية فى الصناعة الموسيقية ، بيروت ١٨٩٩

احمد امين الديك : نيل الارب فى موسيقى الافرنج والعرب ، القاهرة ١٩٠٢

وانظر مادى موسيقى وزرياب فى دائرة المعارف الإسلامية بقلم جورج هنرى فارمر

الفناء في الاسلام

فلما جاء الاسلام واستولى العرب على ممالك الدنيا وحازوا سلطان العجم والروم ، كانوا في عصر الراشدين لا يزالون على بداوتهم مع غضارة الدين وشدته ، مما يدعو الى ترك احوال الفراغ وما ليس نافعا في دين ولا معاش ، حتى تركوا ما كان عندهم من انعام الجاهلية ، ولم يكن الملدوذ عندهم الا ترجيع القراءة والترنم بالشعر . فلما جاءهم الترف في أيام بنى أمية ومن بعدهم وغلب عليهم الرفه بما حصل لهم من غنائم الأمم صاروا الى نضارة العيش ورقة الحاشية واستحلاء الفراغ . وكان المغنون من الروم والفرس قد دخلوا في سلطان العرب ، وحمل بعضهم الى الحجاز في جملة الأسرى او السبايا فأصبحوا من موالى العرب ، وقد حملوا معهم العيذان والطناير والمعازف والمزامير ، فغنوا بها فاعجبوا بالحائهم فاشتغل المغنون واكثرهم من الموالى في تلحين أشعار العرب على الألحان الفارسية او الرومية ، فنبت في المدينة في أيام بنى أمية طائفة من المغنين . والمشهور أن أول من أدخل غناء الفرس الى العربية سعيد بن مسحج ، وهو مكى أسود كان في مكة لما حاصرها الامويون ، وفيها ابن الزبير في أواخر القرن الأول للهجرة ، فاستقدم ابن الزبير بعض البنائين من الفرس لترميم الكعبة ، فسمعهم سعيد بن مسحج يغنون بالفارسية فالتقط النغم وغناه بالعربية ، فاعجب الناس كثيرا فسافر الى الشام وفارس فأتقن فن الغناء وعنه أخذ من جاء بعده من مغنئى المدينة وغيرها . وشاع الغناء في المملكة الاسلامية وراجت بضاعته باتساع أسباب الحضارة والرخاء ، وتكاثر المغنون لما شاهدوه من رغبة الخاصة في الغناء ، فنبت جماعة من مهرة الموسيقيين اتقنوا هذه الصناعة وآلاتها اتقاناً حسناً ، على ما بيناه في الجزء الثالث من هذا الكتاب ، وإنما يهملنا الآن النظر في تاريخ انتشار المغنين في الاسلام وما كان من منزلته ومنزلتهم

الفناء والدين

كان الغناء في صدر الاسلام مكروها ان لم نقل محرماً ، واختلف الأئمة في تحريمه وتحليله كله أو بعضه . ويقال بالاجمال ان أهل الحجاز أجازوه وأهل العراق كرهوه ، وحجة من أحله أن أصله الشعر الذى استحسنته النبى (ص) وحض عليه وندب أصحابه اليه واستنصر به على المشركين ، فقال لحسان شاعره : « شن الفارة على بنى عبد مناف ، فوالله لشعرك أشد عليهم من وقع السهام في غلس الظلام » وأكثر شعر حسان يغنى به . وحجة من حرمه أنه يسعر القلوب ويستفز العقول ويستخف الحليم ويبعث على اللهو ويحض على الطرب ، وهو باطل من أصله (١) وحل آخرون بعض الغناء وحرّموا

بعضه ، ولكن أهل التعقل والتقوى كانوا يكرهونه في كل حال ، ولذلك لم يظهر إلا بعد عصر الراشدين . وكان معاوية بن أبى سفيان يعيب على الراغبين في الغناء ، ولا سيما أهل الوجاهة والشرف ، وله مع عبد الله بن جعفر حكاية تدل على أنه كان يعيب عليه استماع الغناء (١) وأن سره اشتغال بهذا وسواه من أهل النبى باللهو والطرب عن مقاومته في طلب الخلافة - بل هو كان يبذل لهم الأموال في هذا السبيل

ولما تولى الخلافة أصحاب اللهو والقصص أخذ الغناء في الانتشار ، وأول من أباحه ونشط أهله يزيد بن معاوية ، ففي أيام هذا (سنة ٦٠ - ٦٤ هـ) ظهر الغناء في مكة واستعملت الملاحى لأنه كان صاحب لهو وطرب (٢) وتفشى الغناء الجديد في الحجاز ولا سيما المدينة . وما زال محصورا فيها تقريبا حتى أفضت الخلافة الى الوليد بن يزيد بن عبد الملك (سنة ١٢٥ - ١٢٦ هـ) وكان صاحب شراب ولهو مع تهتك وخلعة ، فبعث الى المدينة في استقدام المغنين اليه في دمشق (٣) فأخذ الغناء في الانتشار في بلاد الاسلام من ذلك الحين

مقاومة الخلفاء للغناء

على أن أهل التعقل من الخلفاء والأمراء كانوا لا ينفكون عن منعه جهده طاقتهم ، وكان العقلاء من غير الحكام يحرضون الولاة على منعه حتى في المدينة معدن الغناء في ذلك العصر (٤) وكثيرا ما كان أمير مكة يخرج المغنين من الحرم خوفا من افتتان الناس بغنائهم (٥) وصرفهم عن أمور دينهم، ولم يكن أهل الغيرة على العرض يصبرون على سماعه ، ومن أقوالهم : « المغنون رسل الغرام »

ذكروا أن سليمان بن عبد الملك كان يكره الغناء ، فسمع مغنيا في عسكره فطلبه فجاءوه به فقال : « أعد ما غنيت » فتغنى واحتفل فقال سليمان : « والله لكانها جرجرة الفحل في الشول ، وما أحسب أننى تسمع هذا إلا صبت اليه » ، ثم أمر به فخصى ! (٦)

وسليمان هو الذى أمر بخصى المخنثين في المدينة لمثل هذا السبب - قيل أنه كان في بادية له يسمر ليلة على ظهر سطح وقد تفرق عنه جلساؤه ، فدعا بوضوء فجاءت به جارية فبينما هى تصب عليه لحظ أن ذهنها مشغول عنه بغناء تسمعه فتجاهل . وفي الصباح ذكر الغناء ولين فيه حتى ظن القوم أنه يشتهي ، فأفاضوا فيه وذكروا من كان يسمعه ومن يغنيه حتى توصل

(١) العقد الفريد ١٨٢ ج ٣

(٢) المسعودى ٦٨ ج ٢

(٣) العقد الفريد ٢٦٩ ج ٢ والمسعودى ١٣٣ ج ٢

(٤) العقد الفريد ١٩٦ ج ٢

(٥) الاغانى ١٣٠ ج ٢

(٦) الكامل للمبرد ٣٧٧

الى الرجل الذى شغلت الجارية بغنائها فى الأمس . فلما تحقق ذلك أقبل على القوم وقال : « هدر الجمل فضبعت الناقة ، ونبت التيس فسكرت الشاة ، وهذل الحمام فزافت الحمامة ، وغنى الرجل فطربت المرأة ! » ثم أمر به فخصى . وسأل عن الغناء أين أصله فقيل : « فى المدينة بجماعة المخنثين وهم أئمتسه والحدائق فيه » فكتب الى عامله هناك : « أخص من قبلك من المخنثين المغنين » فخصاهم (١)

على أن المتهتكين من الخلفاء والأمراء لم ينكروا ما يجر اليه الغناء من أسباب اللهو ، قال الوليد بن يزيد الذى ذكرنا أنه أول من استقدم المغنين اليه : « أياكم والغناء ، فإنه ينقص الحياء ويزيد فى الشهوة ويهدم المروءة ويثور على الحرم ويفعل ما يفعل المسكر ، فان كنتم فاعلين فجنبوه النساء فان الغناء رقية الزنا ، وانى لأقول ذلك فيه على أنه أحب الى من كل لذة وأشهى الى من الماء البارد الى ذى الغلة ، ولكن الحق أحق أن يقال ! » (٢)

فكيف بالعقلاء وأهل الحزم ومؤسسى الدول أو معيديها مثل معاوية وهشام والمنصور وأبى مسلم ، أو أهل التقوى مثل عمر بن عبدالعزيز الأموى والمهتدى العباسى ؟ فقد تقدم ما عابه معاوية على عبد الله بن جعفر . أما هشام فسمع عن أشعب المضحك فى المدينة فأمر كاتبه أن يكتب باستقدمه ، فلما ختم الكتاب أطرق هشام طويلا ثم قال : « هشام يكتب الى بلد رسول الله ليحمل اليه مضحك ! » وتمثل :

إذا أنت طاوعت الهوى قادك الهوى الى بعض ما فيه عليك مقال

رأى وقف الكتاب (٣) . وأما المنصور فقد كان يعير آل الزبير بحبهم الغناء (٤) وسمع ذات يوم ضرب طنبور فى داره فكسره على صاحبه . أما عمر بن عبد العزيز فبلغه أن قاضيا من قضائه استخفه الطرب من الغناء فأمر بعزله (٥) . والمهتدى العباسى كان يتشبه بعمر المذكور ، فلما تولى الخلافة سنة ٢٥٥ هـ كانت الملاحى قد انتشرت فى الدولة العباسية فأمر بمنع الغناء (٦) وربما امتنعوا عنه الى أجل ريثما يصفو لهم الزمان ، كما فعل المأمون لما عاد من خراسان وقد أحمه تأييد خلافته ، فبقى عشرين شهرا لا يسمع غناء (٧) وكذلك الأمراء العقلاء مثل خالد القسرى ، فإنه أمر صاحب شرطته بمنع الغناء من العراق (٨)

-
- (١) الاغانى ٦١ ج ٤
 (٢) الاغانى ١٣٤ ج ٦
 (٣) المسعودى ١٣١ ج ٢
 (٤) الاغانى ١١٥ ج ٢
 (٥) المسعودى ١٢٢ ج ٢
 (٦) قوات الوفيات ٣٧١ ج ٢
 (٧) الاغانى ١٠٦ ج ٥
 (٨) الاغانى ١٢٣ ج ٢ و ٦٣ ج ١٩

اشتغال الخلفاء بالفناء

ولكن ذلك لم يكن ليمنع تيار الترف من مجراه الطبيعي ، على ما اقتضته الحضارة في ذلك العهد . فالمسلمون لما تحضروا واخذوا الى السكينة والراحة عمدوا الى أسباب الرخاء وفي جملةتها الفناء ، والمرجع في ذلك الى الخلفاء والأمراء ، لأن الناس على دين ملوكهم ولا سيما في الحكم المطلق ، فإذا أحب الخليفة الفناء أحبه رجال دولته . فراجت بضاعته وكثر المغنون والمغنيات حتى اشتغل الخلفاء وأهلهم به وتعلموا الضرب على آلاته . وأول من دونت صنعتته به عمر بن عبد العزيز في أيام أمارته على الحجاز ، ثم الوليد بن يزيد وله أصوات اشتهرت عندهم ، واشتغل جماعة من خلفاء بني العباس بصناعة الألحان والتلحين ، أشهرهم الواثق والمنتصر والمعتز والمعتمد والمتعبد . أما أبناء الخلفاء فأول من دونت صنعتته فيه إبراهيم بن المهدي وأبو عيسى بن الرشيد وعبد الله ابن موسى الهادي وعبد الله بن محمد الأمين وأبو عيسى بن المتوكل وعبد الله ابن المعتز وغيرهم . فقس على ذلك ما كان في زمن بني أمية ، ولا سيما في عصر الاضمحلال ، حتى كانوا يحملون المغنين وآلاتهم في أسفارهم ولو الى القتال ، فقد وجدوا في معسكرهم لما ظفر به العباسيون بنواحي أصبهان سنة ١٣١ هـ ما لا يحصى من البرابط والطناير والمزامير (١)

فالغناء المطرب من جملة ما اقتبسه المسلمون من البلاد التي فتحوها ، فاشتغلوا بنقل كتب الموسيقى من الفارسية والهندية (٢) وحملهم الترف على سماعه والولوع به ، فتقرب به اليهم جماعة من العامة صار لهم مقام رفيع بين الجلساء - وسنعود الى ذكرهم

٣ - العلماء والفقهاء والأدباء

هم طائفة من العامة تقربوا الى الخلفاء بما يلد لهم من سماع الاخبار والنوادر ، أو النظر في علوم تلك الايام الدينية أو اللسانية أو الأدبية أو التاريخية . ويدخل في ذلك الفقهاء والمحدثون والنحاة والأدباء من أصحاب الاخبار ، كالاصمعي وأبي عبيدة والكسائي والفراء وغيرهم . وكان للخلفاء رغبة في مجالستهم وسماع أبحاثهم ، فكانوا يقربونهم ويعظمون شأنهم ويجيزونهم ويفرضون لهم الأعطية والرواتب ، على ما سنبينه في باب ابهة الدولة . وقد تكلمنا عن الفقهاء ومنزلتهم في أماكن كثيرة من هذا الكتاب

واقترنى بالخلفاء وزرأؤهم وأمرأؤهم ، كالبرامكة وآل الفرات فانهم أغدقوا الأموال على هؤلاء فنشطوا العلم وأهله حتى صار العلم صناعة يرتزق بها

(١) ابن الاثير ١٩٠ ج ٥
(٢) الجزء الثالث

أصحابها من الناس . ويدخل فيما تقدم المترجمون من غير المسلمين ، وفيهم السريان والروم والفرس وغيرهم ممن نقل العلوم القديمة الى اللغة العربية في العصر العباسي ، فانهم فئة من أهل الدمة قربهم الخلفاء واکرموهم من أجل علمهم على ما فصلناه في الجزء الثالث من هذا الكتاب

٤ - التجار

نريد بالتجار باعة السلع الثمينة التي تقتضيها الحضارة ، كالمجوهرات والمصوغات والرياش الثمين والثياب الفاخرة والآنية والرقيق . وأكثر ارتزاقهم من الخليفة وأهله وأهل دولته وسائر الخاصة من جلسائه وأعوانه . وكانوا يقيمون في بغداد والبصرة وغيرهما من المدن الاسلامية ، وأكثرهم من جالية الفرس والروم وغيرهم من الأمم التي اشتهر أهلها بالعناية بهذه الطرف ، كانوا يحملون الى دار السلام أصناف التجارة للارتزاق مما يتدفق من خزائن الدولة في عصر الثروة

فكانوا يحملون الياقوت والماس من بلاد الهند ، واللؤلؤ من البحرين ، والعقيق والعاج من الحبشة ، والأدهان والزيوت العطرية من فيسابور ، ونسيج الكتان من شيراز . وطرار الوشي والاقمشة المنسوجة من الشعر التي تصنع منها ثياب مثقالية يلبسها الخليفة ورجال الدولة ، والكلل المرتفعة والستور المعلمة من القز ، هذه كلها من فسا . والبسط والنخناخ والمصليات والزلالي من جهرم . والستور والمقاعد من دشت . وأحسن أصناف البسط والتكك الرفيعة والوسائد والأنماط والمقاعد من أرمينية ، وكان لهم صبغ من القرمز يصغون به الصوف لا مثيل له . والعتابي والوشي وسائر ثياب الحرير من أصفهان . والثياب المنيرة من الري ، والأبريسم ومطارف القز (*) وطباق الخشب من طبرستان ونيسابور . والسمور الأسود وجلود الخز وجلود الثعالب السود من بلاد الروس ، والبز من بلخ . والكافد والنوشادر والأوبار والسمور والسنجاب والثعالب من وراء النهر وكذلك المسك ، ولكن أصله من بلاد التبت . والبسط والمصليات وثياب الصوف من بخارا . والديبقي من تنيس ودمياط . والستور والبسط المصرية من البهنسا . والطبالسة المقورة الرفيعة من كرمان . والحصر والقباطي والقرطيس من مصر . والمناديل الديلمية البيضاء المعلمة من قومنس - ربما بلغ ثمن المنديل منها ٢٠٠٠ درهم . والمقانع القزيات من جرجان والسوس . والبرود المنيرة والقصاع والأمشاط من الري . والأكسية والجوارب من قزوين . والخفاف والسمور من همدان . والزجاج والخزف

(*) تجد بيان ماعية كل صنف من أصناف النسيج هذه وكذلك أنواع الملابس في

Dozy. Dictionnaire détaillé des noms des vêtements chez les musulmans.

من البصرة . والحصر من عبادان . والديباج والأنماط من تستر ، والجلود المدبوغة من الحبشة بطريق اليمن . والمسك والكافور والعود من الصين

أما الرقيق فأبيضه كان يحمل مما وراء النهر ، وأصله من الصقالبة أو من الخزر الأتراك من بادية تركستان ، وأحسنهم يربى في سمرقند وخوارزم ثم يحمل الى بلاد الاسلام . ويحمل الرقيق الأبيض أيضا من الأندلس وفيه الجوارى والغلمان ، وأصلهم من سبى الافرنج وجليقية أو من الصقالبة كما تقدم . ومن الرقيق الأبيض صنف كان يرد من خراسان غال جدا ، ربما يبع الفلام منه بخمسة آلاف دينار . أما الرقيق الأسود فكل ما يحمل منه الى بلاد الاسلام من السودان بطريق مصر أو بلاد المغرب

وكان لهذه التجارات قوافل أو سفن تنقلها من الشرق والغرب والشمال والجنوب ، وتبيعها في أسواق بغداد وغيرها من المدن الاسلامية . وأكثر الناس اشتغالا بنقلها في البرطائفة من التجار اليهود الراذنية(*) كانوا يتقنون اللغات الرائجة في ذلك العصر ، وهي العربية والفارسية والرومية والفرنجية والاندلسية والصقلية ، ويسافرون بين الأقاليم العامرة يحملون التجارات من اقليم الى آخر (١) كما كان الفينيقيون في ابان دولتهم

أما التجارة البحرية فأشهر أصحابها السيرافيون (***) ، فقد كانوا يحملون الجواهر والعاج والأبنوس والفلفل والصندل والعود والعنبر والكافور وسائر الاطياب والعقاقير والتوابل من الهند والصين وشواطئ افريقيا وجزائر الهند واليمن وغيرها الى البصرة فبغداد (٢)

فكان التجار يفدون على دارالسلام بهذه التجارات فيبيعونها بالائتمان الفاحشة . ويدخل في هذه الطبقة من الناس الصيارفة وأكثرهم من اليهود ، وكانوا يقرضون رجال الدولة المال بالربا الفاحش . اشتهر منهم في بغداد صيارف كانت مكاسبهم موقوفة على الدولة ورجالها كآل فنخاس وآل عمران وغيرهم (***)

(*) الراذنية أو الرذنانية نسبة الى رذانس - بفتح الراء أو ضمها - وهو نهر الرون ، واسمه باللاتينية Rhodanus ، وكانت لليهود جاليات في المدن الواقعة على مصبه واشهرها ماسيليا Massilia وهي مرسيليا ، وكانوا يتخذون مجرى النهر وسيلة لنقل المتاجر التي يجمعونها من غالة ويتجرون بها في البحر الأبيض المتوسط . انظر عن ذلك كتاب هويد Heud عن تجارة الشرق (١) ابن خرداذبة ١٥٣

(**) السيرافيون نسبة الى سيرا ، وهي فرصة تجارية على الخليج العربي الذي يعرف بالخليج الفارسي . انظر عنها الفصل الخامس بالتجارة البحرية من كتاب آدم ميتز ، الحضارة الاسلامية في القرن الرابع ، ترجمة الدكتور محمد عبد الهادي أبو ريده (٢) الاصطخري والمسمودي

(***) انظر عن هذا الموضوع فصل « البنوك الخاصة » من كتاب « التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في البصرة » للدكتور صالح أحمد العلي ، بغداد ١٩٥٣ ص ٢٦٠ وما بعدها

تجار المسلمين

فلما نضج التمدن الاسلامي واشتغل المسلمون انفسهم بالتجارة لم يقصروا في شيء من شروطها ، واتقنوها علما وعملا حتى الفوا الكتب فيها وفي الاقتصاد السياسي . وبين يدينا نسخة من كتاب « الاشارة الى محاسن التجارة » للشيخ ابي الفضل جعفر بن علي الدمشقي من أهل القرن الخامس للهجرة ، فيه فوائد اقتصادية لم يسبقه احد اليها وابحاث في معنى النقود والسلع والمال الصامت والأعراض وتحقيق ائمان الأشياء ، مالا تقل قيمته عما بلغ اليه علماء الاقتصاد في هذا العصر - يدل ذلك على ما بلغ اليه المسلمون من الرقي في علم التجارة ، ناهيك بأهل الرحلة منهم الى أطراف المعمورة في ذلك العصر ، فقد طافوا العالم برا وبحرا من القرن الرابع للهجرة ، ودونوا رحلاتهم تسهيلا لأسباب التجارة ، واكتشفوا طرقا تجارية في البحر المحيط والبحر الهندي والأحمر وفي أواسط افريقيا وآسيا لم يسبقهم اليها أحد

أما الأسفار التجارية فقد كانوا فيها سلاطين البحار ، فمخرت سفنهم البحر الابيض على كل شواطئه ، والبحر الأحمر الى آخره ، والبحر المحيط الى سومطرا فزنجبار الى بلاد الكفرة ، وشرقا الى كلكتة وجزائر الهند والصين ، وجنوبا الى مدغشقر وسائر شواطئ افريقيا الشرقية ، واجتازوا بحر قزوين الى بلاد الخزر والروس . أما برا فاخترقوا بلاد الهند وتركستان والتبت حتى نزلوا بلاد الصين ، وأوغلوا في افريقيا الى خط الاستواء ، فغربوا الأبعاد بين تلك الاصقاع المتباعدة

فكان التجار المسلمون حوالي القرن الرابع للهجرة يجوبون الأقطار برا وبحرا ، ينقلون التجارة من بلد الى بلد ، بين شواطئ فارس وسواحل افريقيا والحيشة واليمن وسواحل الهند والصين وسائر المشرق . ويقطعون صحارى خراسان وتركستان وأرمينية وأفغانستان والهند والشام ومصر والسودان وافريقية والاندلس في نقل أصناف التجارة ، كأنهم هم وحدهم تجار الارض . ومركز تجارة الشرق البصرة بحرا وبغداد برا . واشتهر من تجار المسلمين ممن كانوا يخترقون البحار في القرن الرابع للهجرة السيرافيون الذين تقدم ذكرهم ، والعمانيون وكانت سفنهم التجارية تجوب بحار الصين والهند والزنج واليمن والفلزم ، وقد عرفهم المسعودي وذكرهم في تاريخه (١)

ثروة التجار

وقد استغرقنا في الكلام على التجارة - وجملة القول ان التجارة العليا كانت من أبواب الرزق الواسعة في ذلك العصر لأصحاب المواهب التجارية ولمن يخدمهم

(١) المسعودي : مروج الذهب ، ص ٥٤ ح ١

التوفيق ويتقربون من البلاط أو بعض أهله . فظهر في عهد ذلك التمدن بيوتات تجارية جمعت الأموال حتى تجاوزت ثروتها الملايين من الدنانير . وفيهم جماعة من عامة الناس يوصفون بالغفلة ، فخدمهم حظهم حتى ارتقوا الى طبقة الخاصة وجمعوا الاموال الطائلة ، كال الجصاص تجار الجواهر وقد اشتهروا في العصر العباسي مثل شهرة آل روتشيلد في القرن الماضي وروكفلر الأميركي في هذا القرن ، وأول من اثرى منهم الحسن بن عبد الله ، وقد قص هو نفسه توصله الى الثروة فقال :

« كان بدء يسارى انى كنت في دهليز أبى الجيش خمارويه بن احمد بن طولون بمصر ، وكنت وكيله في ابتياع الجواهر وغيره مما يحتاجون اليه ، وما كنت أفارق الدهليز لاختصاصي به ، فخرجت الى قهرمانة لهم في بعض الايام ومعها عقد جواهر فيه مائة حبة ، لم أر قبله ولا بعده أفخر ولا أحسن منه ، كل حبة منه تساوى مائة ألف دينار ، وقالت : يحتاج أن تخرط هذا حتى تصغر فتجعل في آذان اللعب وفي قلائدها . فكذت أطير وأخذتها وقلت : السمع والطاعة ، وخرجت في الحال مسرورا وجمعت التجار ، ولم ازل اشترى كل ما قدرت عليه الى أن جمعت مائة حبة أشكالا من النوع الذى طلبته وأرادته، وجئت عشيا وقلت: ان خرط هذا يحتاج الى انتظار وزمان، وقد خرطت اليوم ما قدرنا عليه وهو هذا ، ودفعت اليها المجتمع وقلت : الباقي يخرط في أيام ، فقتعت بذلك وأعجبها الحب ، فخرجت وما زلت أياما في طلب الباقي حتى اجتمع ، فحملته اليها . وقامت على المائة حبة بدون المائة ألف درهم ، وأخذت منهم جوهرا بمائتى ألف ألف دينار . ثم لزمت دهليزهم وأخذت لى غرفة كانت فيه فجعلتها مسكنى ، وكان يلحقنى من هذا أكثر مما يحصى ، حتى كثرت النعمة وانتهيت الى ما استفاض خبره » (١)

وكان لابن الجصاص بيت كبير في بغداد لبيع المجوهرات ، فلما كانت النكبات والمصادرات على عهد المقتدر بالله العباسي في أوائل القرن الرابع للهجرة ، كان ابن الجصاص في جملة الذين صودروا ، وسبب ذلك أن عبد الله بن المعتز لما بوع بالخلافة ثم أنحل أمره وتفرق رجاله وطلبه المقتدر اختفى عند ابن الجصاص المذكور ، فوشى به خادم فصادره المقتدر بالله على ١٦ . ٠٠٠ دينار ، وبقي له بعد مصادرته شيء كثير من الدور والقماش والأموال والضياع وغيرها . ويقال مع ذلك انه كان أحق ابله - فاعتبر مقدار ما كان يصل الى التجار أهل النباهة والدهاء

وقس على ذلك ثروة تجار الفرش والأثاث ، ولاسيما في البصرة ، فقد اشتهر فيها جماعة من أهل اليسار وأكثر غناهم من تجارة البحر ، فقد كانت سفن

بعضهم تعدد بالمئات وتحمل بها التجارة الى أنحاء العالم - ذكروا واحدا منهم اسمه الشريف عمر كان دخله ٢٥٠٠ درهم في السنة (١). وبلغت ثروة صاحب مراكب في البصرة ٢٠ دينار (٢). ومنهم رجل اسمه أحمد ابن عمار كان طحانا بالبصرة ، فأصعد الى بغداد في أيام المعتصم فانتسعت حاله حتى صار يخرج من الصدقة كل يوم مائة دينار . فاذا اعتبرت ثلث عشر ماله كان دخله الف دينار في اليوم ، واستوزره المعتصم لأمانيه ولكنه كان جاهلا (٣)

٥ - الصناع

أما الصناعة فقد أخذوا منها بنصيب كبير ، لأنهم كما برعوا بالتجارة في السلع برعوا أيضا في صناعاتها ، وارتقت الصناعة عندهم بتوالي الأجيال ، حتى فاقوا في بعضها البلاد الأخرى وامتازوا بصناعات خاصة بهم . فهم الذين نشروا السكر في العالم ، نقلوه من موطنه في الهند الى بلاد فارس وأنشأوا له المعامل واستخرجوا منه أصنافا لم يكن لها مثيل (٤) وهم أتقنوا صناعة الورق ونشروها في العالم وعندهم أخذها أهل أوربا بطريق الأندلس (٥) وقد امتازت بعض مدن الأندلس بصناعات كانت تفاخر بها صناعات المشرق ، فكانوا يصنعون في مرسية وشيا مذهبا في غاية الاتقان ، وفيها أيضا معمل للبسطة لم يكن له نظير وآخر للأسرة المرصعة . وكان في مالقة معمل للزجاج الغريب وفخار مزيج مذهب ونوع من الفسيفساء المفضضة على شكل خاص ، ولهم اختراع في صناعة الزجاج يؤثرونه لهم ، فذكروا أن أول من استنبط صناعة الزجاج من الحجارة عباس ابن فرناس حكيم الأندلس (٦) واخترعوا البارود للبنادق على ما بيناه في الجزء الأول من هذا الكتاب

ولهم في الميكانيكيات صناعات حسنة كالساعة التي اشتهرت في جامع دمشق وذكرها ابن جبير في رحلته في القرن السادس للهجرة - وهالك ماقاله في وصفها على مشاهدته بعينه :

« وعن يمين الخارج من باب جيرون جدار البلاط الذي أمامه غرفة لها هيئة طاق كبير مستدير فيه طيقان صفر (أى نحاس) قد فتحت أبوابا صفارا على عدد ساعات النهار ودبرت تدبيرا هندسيا . فعند انقضاء ساعة من النهار تسقط صنجتان من صفر من فمى بازين مصورين من صفر قائمين على طاستين

(١) ابن الأثير ٢٠ ج ٩

(٢) ابن حوقل ١٩٨

(٣) الفخرى ٢١٣

(٤) Encycl. Brit. article Sugar

(٥) الجزء الأول

(٦) نفح الطيب ٨٧٣ ج ٢

من صفر تحت كل واحد منهما ، أحدهما تحت أول باب من تلك الأبواب والثاني تحت آخرها . والطاستان مثقوبتان ، فعند وقوع البندقتين فيهما تعودان داخل الجدار الى الغرفة ، وتبصر البازيين يمدان أعناقهما بالبندقتين الى الطاستين ويقذفانهما بسرعة بتدبير عجيب تتخيله الأوهام سحرا . وعند وقوع البندقتين في الطاستين يسمع لهما دوى ، وينفلق الباب الذى هو لتلك الساعة المحين بلوح من الصفر . لا يزال كذلك عند كل انقضاء ساعة من النهار ، حتى تنفلق الأبواب كلها وتنقضى الساعات ثم تعود الى حالها الاول . ولها بالليل تدبير آخر ، وذلك أن فى القوس المنعطفة على الطيقان المذكورة اثنتى عشرة دائرة من النحاس مخرمة تعترض فى كل دائرة زجاجة من داخل الجدار فى الغرفة ، يدير ذلك كله منها خلف الطيقان المذكورة وخلف الزجاجة مصباح يدور به الماء على ترتيب مقدار الساعة ، فاذا انقضت عم الزجاجة ضوء المصباح وفاض على الدائرة أمامها شعاع فلاح للأبصار دائرة محمرة ، ثم انتقل ذلك الى الأخرى حتى ينقضى الليل وتحمر الدوائر كلها ، وقد وكل بها فى الغرفة متفقد لحالها درب بشأنها يعيدفتح الأبواب وصرف الصنج الى مواضعها» اه (١)

وقس على ذلك كثيرا من الآلات المائية وغير المائية المركبة من البكر والأكر والأنابيب والإمخال وغيرها للرفع والجر والنقل ، ولهم فيها مؤلفات طوى الزمان بعضها وأكثرها مأخوذ فى أصله عن اليونانية ، ككتاب « الجبل الروحانية ومخانيقا الماء » لفيلون البيزنطى ، وكتاب « رفع الأشياء الثقيلة » لهيرون الإسكندرى نقله الى العربية قسطا بن لوقا البعلبكي ، وغيرها مما نقله الأفرنج الى اللاتينية فى نهضتهم الأخيرة وفقدت ترجمته العربية كما فقد أصله اليونانى قبله. وفى هذه الكتب كثير من الرسوم الموضحة لحركة تلك الآلات (٢) واشتغل المسلمون فى هذه الفنون والفوا فيها الكتب من عند أنفسهم . وقد وقفنا على مؤلف خطى فى الآلات الروحانية أطلعنا عليه صديقنا الشيخ شسبلى النعمانى العالم الهندى الشهير ، وهو تأليف « رئيس الأعمال بديع الزمان أبو العز بن اسماعيل بن الرزاز الجزرى » فى أسباب الحيل والحركات الروحانية والآلات المتخذة للساعات المستوية والزمانية ونقل الأجسام بالأجسام من المقدمات الطبيعية - ألفه لأبى الفتح محمود بن محمد بن قزل أرسلان من آل ارتق فى أواخر القرن السادس للهجرة ، فيه رسوم ملونة تمثل الآلات الضاغطة والرافعة والناقلة والمتحركة حركات خفية . وبينها رسم يشبه ما وصفه ابن جبير عن ساعة دمشق - فبدل هذا وغيره على ما بلغ اليه المسلمون من اتقان فن الميكانيكيات مما يحتاج فى وصفه الى كتاب بأسره

(١) رحلة ابن جبير ٢٧١

(٢) المشرق عدد ٦ سنة ٧

الطبقة الثانية من العامة

نريد بهذه الطبقة سائر من بقى من الامة وهم السواد الاعظم ، وفيهم الزارع والصانع والعيار والشاطر واللص والمخنت والصلوك وغيرهم مما لا يحصى . ولسهولة الاحاطة بهم نقسمهم الى قسمين : اهل القرى وهم المزارعون ، واهل المدن وهم الصناع والباعة والرعاع

١ - المزارعون اهل القرى

فالمزارعون او الاكرة يتألف منهم معظم سكان المملكة وهم اصل ثروتها ، واكثرهم من اهل الدمة يقيمون في القرى الا من اسلم منهم فينزل في المدن . وكانوا يتكلمون لغات البلاد الاصلية : السريانية والآرامية واليونانية في العراق والشام ، والقبطية بمصر ، والفارسية في بلاد فارس ، والتركية في تركستان بما وراء النهر . واخذ العنصر العربى يتغلب على عناصرهم ، واللغة العربية تتغلب على السننهم ، والاسلام يتغلب على اديانهم ، حتى ساد الاسلام عليهم جميعا ، وعمت العربية البلاد الواقعة غربى دجلة وهى العراق والشام ومصر وافريقية والسودان ، وصارت تعد بلادا عربية واكثر أهلها مسلمون . وانقرضت اللغات التى كانت منتشرة فيها الا بقايا قليلة من السريانية في بعض القرى المتباعدة من الشام والعراق . اما شرقى دجلة بفارس وتركستان والهند فقد ساد الاسلام ايضا ، وانتشرت اللغة العربية بين اهل العلم ، ولكن السنة اهل البلاد ظلت حية يتفاهمون بها الى الآن

٢ - العامة سكان المدن

هم نفر ممن يؤمنون المدن من اهل المطامع وطلاب المكاسب ، بالتجارة أو الجندية أو الأدب أو الشعر ، وتقعد بهم نفوسهم عن اللحاق بأهل الهمم وأصحاب القرائح فيضطرون الى احتراف مايعيشون به مما لا يحتاج لهمة أو رأى . ولو أردنا الرجوع الى اصول عامة بغداد مثلا لرأيناهام اخلاطا من مولدى العرب والفرس والترك والديلم والروم والنبط والأرمن والجركس والاكرد والكرج والبربر وغيرهم ، ولكنهم يعدون عربا لتغلب اللغة العربية على السننهم

وعامة المدن طبقتان : الطبقة الاولى المرتزقون بالصناعة والتجارة ، وهم طائفتان : (١) الصناع أصحاب الصناعات اليدوية كالحدادين والحياكين والخياطين

والحلاقين والنجارين والصيادين والخبازين والطحانيين ومن جرى مجراهم (٢) الباعة الذين يبيعون البقل واللحم وغيرهما من اصناف المأكولات على أنواعها وبعض المنسوجات والسلع الصغيرة . وهم طوائف كثيرة كالزياتين والبقالين والجزارين وباعة الأقمشة والطحين والخضر ونحوها

والطبقة الثانية رعاى يرتزقون من النهب واللصوصية ، وهم اصناف كثيرة نشأت فى بلاد الاسلام على اثر الفتن والانشقاق بين اهل الدولة لا يستطيع اهل هذا الجيل تصور امثالهم لبعء ذلك عن مالوفهم - الا الذين ادركوا متشردى بيروت المعروفين بالزعران ، وهم طائفة من اهل البطالة كانوا يحترفون السرقة والتحرش بأبناء السبيل . والزعران مثال صغير لرعاى ذلك العصر ، فقد كان فى بغداد وغيرها من مدن الاسلام طوائف كثيرة تعرف بالعيارين والشططار والصعاليك والزواقيل ونحوهم ، كثيرا ما استفحل امر بعضهم حتى تعجز الحكومة عنهم وقد تستنجدهم فى بعض حروبها

والسبب فى ظهورهم اضطراب الدولة العباسية بعد عصرها الاول ، بمن دخل فيها من المفسدين منذ حجر على الخلفاء واستولى الاجناد على مصالح الدولة وجعلوا همهم جمع المال لانفسهم والتنازع على السلطة كما بيناه فى الاجزاء الماضية ، ولاسيما الجزء الرابع . ولا يخفى ماتجر اليه الفتن من وقوف الاعمال وغلاء الاسعار ، غير ماكان يرتكبه الحكام انفسهم من خزن الاقوات ، فتقل ارزاق العامة فيعمدون الى التعدى ويؤلفون عصابات لمناواة اصحاب الاموال من التجار وغيرهم فى المدن ، ولا سيما بغداد أم المدائن الاسلامية فى ذلك العهد . فكان الرعاى يتكاثرون ويزدادون تعديا ، والحكام فى شغل عنهم والخسارة معظمها على الاهالى . وتوالى ذلك اعواما حتى خربت مدينة السلام وأم حضارة الاسلام . ولا يمكن الامام بكل طوائف الرعاى فنذكر أشهرها :

العيارون

ظهر العيارون ببغداد فى أواخر القرن الثانى للهجرة ، وكان لهم فى الفتنة بين الامين والمأمون شأن كبير ، لأن الامين لما حوصر فى تلك المدينة وعجز جنده عن الدفاع استنجد العيارين ، وكانوا يقاتلون عراة فى اوساطهم المأزر وقد اتخذوا لرءوسهم دواخل من الخوص سموها الخود ودرقا من الخوص والبوارى قد قرنت وحشيت بالحصى والرمل . ونظموهم نظام الجند على كل عشرة عريف ، وعلى كل عشرة عرفاء نقيب ، وعلى كل عشرة نقباء قائد ، وعلى كل عشرة قواد أمير ، ولكل ذى مرتبة من المركوب على مقدار ماتحت يده . ومعهم اناس عراة قد جعل فى اعناقهم الجلجل والصدف الاحمر والأصفر ومقاود ولجما من مكانس ومذاب . وبلغ عددهم يومئذ خمسين ألف عيار (١) وساروا للحرب يضربون

الاعداء بالمقلاع والحصى ، وكانوا أهل مهارة فى ذلك فأبلوا بلاء حسنا، لكنهم لم يثبتوا أمام المجانيق والجنود المنظمة ، فعادت العائدة عليهم وقتل منهم خلق كثير ، وفيهم يقول الشاعر :

خرجت هذه الحروب رجالا لا لقطعــــــــــــــــان ولا لنزار
معشر فى جواشن الحصر يعدو ن الى الحرب كالليوث الضواري
ليس يدرون ما الفرار اذا الاب طال عاروا فى القنا للفرار
واحد منهم يشد على الفية ن عريان ماله من ازار
ويقول الفتى اذا طعن الطع نة خذها من الفتى العيار

وحدث نحو ذلك من العيارين فى حرب المستعين والمعز سنة ٢٥١ هـ اذ حصر المستعين بالله ببغداد نحو حصار الأمين فيها ، فاستعان بالعيارين وفرض لهم الأموال وجعل عليهم عريفا اسمه يبنونه وعمل لهم تراسا من البوارى المقيرة واعطاهم المخالى ليجعلوا فيها الاحجار . على أنهم كانوا كلما حدثت فتنة أهلية اغتنموا اشتغال الدولة بها وهموا بالمنازل والحوانيت واخذوا الاموال . وكثيرا ماكانت تحدث أمثال هذه الفتن فى بغداد من القرن الثالث للهجرة وما بعده (١)

وكانوا يزدادون قوة كلما ازدادت الدولة ضعفا ، وتكاثرت تعدياتهم على بغداد كلما تكاثرت الفتن فيها اما بين الحكام فى التنازع على السلطة أو الاموال، واما بين العامة تعصبا لبعض المذاهب ولاسيما بين السنة والشيعة أو الحنفية . فلم ينقض النصف الأول من القرن الخامس للهجرة حتى تسلط العيارون على بغداد ، وجبوا الاسواق واخذوا ماكان يأخذه رجال الدولة وانتظموا انتظام الشرطة أو الجند ، واشتهر من رؤسائهم فى ذلك العصر رجل اسمه الطقطقى وآخر اسمه الزيبقى (٢) بطل القصة المشهورة

وظهر العيارون فى سائر المدن الاسلامية وعظم شأنهم ، وكثيرا ما كان الوزراء وغيرهم من أرباب الحل والعقد يقاسمونهم ويسكتون عنهم (٣)

الشطار

هم طائفة أخرى من الرعاع كانوا يمتازون بملابس خاصة بهم ولهم مئزر يأتزرون به على صدورهم يعرف بأزره الشطار(٤) وكانوا أكثر انتشارا فى المملكة الاسلامية من العيارين وأطول بقاء منهم ، وظهروا فى الأندلس ولهم فيها نوادر

(١) ابن الأثير ٢٤٤ ج ٨ و ١٤٥ - ١٥٠ ج ٩

(٢) ابن الأثير ٢٤٦ ج ٩

(٣) ابن الأثير ٤١ ج ١١

(٤) الاغانى ٩١ ج ٦

وتنكيات وتركيبات وأخبار مضحكة تملأ الصحف الكبار لكثرتها وتضحك الثكلى (١) على أن اسمهم كان يختلف باختلاف البلاد ، فهم يعرفون في العراق بالشطار ، وفي خراسان يسمونهم سرا بداران ، وفي المغرب الصقورة ، وسماهم ابن بطوطة « الفتاك » وذكر تفشيهم في أيامه (القرن الثامن للهجرة) وأشار الى اجتماعهم على الفساد وقطع الطرق وتكاثرهم في نواحي سبزوار ، حتى هجموا على مدينة بيهق وملكوها وملكوا غيرها وجندوا الجنود وركبوا الخيل وولوا أحدهم سلطانا عليهم ، وانحاز اليه العبيد يقرون من مواليهم فكل من جاء من هؤلاء أعطاه ذلك السلطان مالا وفرسا ، وإذا ظهرت منه شجاعة أمره ، الى آخر ما ذكره (٢)

ولم يكن الشطار وغيرهم من أهل الشرور يعدون اللصوصية جريمة ، وإنما كانوا يعدونها صناعة ويحلونها باعتبار أن ما يستولون عليه من أموال التجار الاغنياء زكاة تلك الأموال التي أوصى باعطائها للفقراء (٣) وكان أولئك اللصوص اذا شاخ أحدهم ربما تاب فتستخدمه الحكومة في مساعدتها على كشف السرقات . وكان في خدمة الدولة العباسية جماعة من هؤلاء الشيوخ يقال لهم « التوابون » ، على أنهم كثيرا ما كانوا يقاسمون اللصوص ما يسرقونه ويكتمون أمرهم (٤)

طوائف أخرى من الرعاع

وهناك طوائف أخرى من رعاع العامة أو من في معنائهم ، تكاثروا في عصر الاضمحلال بالمملكة العباسية ، كالصعاليك والزوافيل والحرافيش وغيرهم ، كان طلاب السلطة يستعينون بهم في حروبهم بعضهم على بعض ويعدون بالآلاف فقد كان مع أبي دلف عشرون ألفا من الصعاليك (٥)

ويدخل في معنى هذه الطوائف ممن تجمهروا للارتزاق بالتعدي على أصحاب الأموال العبيد ، وكانوا كثيرين لا يخلو منهم منزل كما رأيت . فلما اختلت الأحوال وضعف أسيادهم ذهب الهيبة من قلوبهم حتى اذا سنحت لهم فرصة نهضوا مع الناهضين . وربما انتحلوا لنهوضهم دعوة دينية يقومون بها ، كما فعل صاحب الزنج في أواسط القرن الثالث للهجرة ، فإنه قام قرب البصرة باسم الشيعة العلوية ، وكان في ضواحيها جماعة من العبيد يكسحون السباح ، فدعاهم الى النهوض معه على أن يحررهم من الرق ويريحهم من التعب ، وكانوا قد شاهدوا رفاقهم الأرقاء البيض (المماليك الأتراك) يتمرّدون على الخلفاء

(١) نفح الطيب ٧٦٦ ج ٢

(٢) رحلة ابن بطوطة ٢٣٥ ج ١

(٣) الجزء الرابع

(٤) المسعودي ٣٣٥ ج ٢

(٥) ابن الأثير ٦٦ ج ٧

فاقتدوا بهم . فكل عبد سمع بهذه الدعوة تبعها ، حتى استفحل أمرهم وضربوا أسيادهم بالسياط (١) واجتمع منهم مئات الألوف ، وحاربوا الدولة العباسية بضع عشرة سنة قتلوا في أثنائها ٢٥٠٠ نفس من الرجال والنساء والأطفال مما تقشعر له الأبدان . وانتهت تلك الدعوة بقتل زعيمها وتفرق أصحابه (٢) .

واراد البجة بمصر أن يفعلوا مثل الزنج بالعراق فلم يفلحوا . وقد يعدد من هذا القبيل أيضا الحشاشون ، وهم طائفة من الفوضويين ظهوروا في القرن الخامس للهجرة ، وجعلوا دأبهم الفتك بأهل السلطة غدرا ، وكان لهم شأن كبير في تاريخ الاسلام (٣)

ومن طبقات العامة « المخنثون » ، وكانوا في الحجاز قبل الاسلام ، وهم جماعة من أهل الخلاعة انتشروا بالمدينة بعد الاسلام على اثر ظهور اللهو والقصف وكثرة الأموال . وكثيرا ماكانوا يفسدون النساء يتوسطون بينهن وبين الرجال . وكان أحسن المغنين منهم ، وقد تقدم خبر سليمان بن عبد الملك وما فعله بهم . وربما أشبهوا ماكان في القاهرة من « الخول » من عهد غير بعيد . ولما انتشر الغناء في المملكة الاسلامية انتشر المخنثون معه ، وتكاثروا في بغداد والشام ومصر والاندلس وسائر المغرب . والاندلسيون اذا قالوا المخنايث قد يريدون الممالك الصقلية

وفيما خلا ذلك فقد كان في المدن من طبقات العامة مالا يحصيه عد ، من

(١) ابن الاثير ٨٢ ج ٧ والطبرى

(٢) تعتبر ثورة الزنج اخطر ثورة اجتماعية عرفتها دول الاسلام في المشرق ، وقد غابت اسبابها الحقيقية ومغزاها التاريخي عن مؤرخينا واهمهم الطبرى - فهو اكثرهم تفصيلا عنها - فهو في نظرهم فتنة بشعة تولى أمرها افاق من أهل الاجرام يسمى على بن أحمد يدعى الانتساب الى على بن ابي طالب رضى الله عنه . وقد يكون الرجل دعيًا مشعوذا استغل الحركة استغلالا سيئا ولم يحسن توجيهها ، ولكن مبررات الثورة طبيعية ومعقولة ، فقد كان هناك آلاف من الزنوج يعيشون على شاطئ شط العرب مهمتهم كسح الطين الذى يحمله ماء النهر ويرسبه على الأرض الزراعية أيام الفيضان ، وكان هذا الطين يعرف بالسياخ ، وكان يغطى التربة الصالحة للزرع ، فكان الناس يستخدمونهم في كسح هذا السياخ ولا يعطونهم من الاجر غير زاد ضئيل لا يزيد على حفنة من دقيق وشيء من البلع لكل منهم في اليوم ، وكانوا يعملون جماعات ما بين ٥٠٠ الى ٥٠٠٠ زنجي . وكانوا يجعلون السياخ اكواما كالتلال الصغيرة حفروا لانفسهم فيها مساكن . وقد تحركوا قبل ثورتهم الكبرى مرارا ولكن احدا لم ينظر في أمرهم ، حتى جاء على بن أحمد هذا وحرضهم على الثورة وتولى أمرهم وعرف بصاحب الزنج ، واستعان بما ادهاه من نسب علوى على ادراك ماطلب من رئاسة . وقد بدأت الثورة سنة ٨٦٨/٢٥٥ واستمرت الى ٨٨٣/٢٧٠ وتفاقم أمرها حتى هددت بغداد ، وكان الخليفة اذ ذاك هو المعتد وقد غلب عليه وتولى أموره أخوه الموفق طلحة . وقد تمكن الموفق بعدئذ من القضاء على هذه الفتنة . ولم يكن الزنج وحدهم فيها ، بل انضمت اليهم جماعات من الزراع عرفت بالفرائية والقرمطية ونفر من النوبيين . ومن طوائف الشيعة من يرون في صاحب الزنج اماما من المهتم ، ولهم فيه وفي حركته توافيق

انظر : الطبرى ، طبعة اوروبا ج ٣ ص ١٧٤٢ - ١٧٨٧ و ص ١٨٣٥ - ٢١٠٣

نهج البلاغة بشرح ابن ابي الحديد ، طبعة القاهرة ، ج ٢ ص ٣١٠ - ٣٦٢

وانظر مادة زنج في دائرة المعارف الاسلامية بقلم لوى ماسينيون

(٣) الهلال ص ٨٣ سنة ١٠

اهل الاحتيال للمعاش بأساليب الخداع والشعوذة أو نحوهما ، ولكل صنف من هذه الأصناف اسم خاص . وربما زام عددها جميعا على عشرين نوعا ، كقولهم المخرطاني والكافاني والبانوان والقرسى والعواء والمشعبد والفلور والاسطيل والمزیدی (١) وغيرهم .

أخلاق العامة

فالعامّة في المدن أخلاط من غوغاء ولفيف من أمم شتى وصناعات شتى ، وهم جهال أتباع من سبق اليهم من غير تمييز بين الفاضل والمفضول ، وسئل الامام على عن العامة فقال : « همج رعاع أتباع كل ناعق » . وقال الفضل ابن يحيى : « الناس أربع طبقات : ملوك قدمهم الاستحقاق ، ووزراء فضلهم الفطنة والرأى ، وعلية أنهضهم اليسار ، وأوساط الحقهم بهم التأدب ، والناس بعدهم زبد جفاء وسيل غشاء ، لكع لكاع وربطة اتضاع ، هم أحدهم طعامه ونومه » . وقال معاوية للأحنف : صف لى الناس ، فقال : « رعوس رفعهم الحظ ، واكتاف عظمهم التدبير ، وأعجاز أشهرهم المال ، وأدباء الحقهم بهم التأدب ، والناس بعدهم أشباه البهائم : ان جامعا ساموا وان شبعوا ناموا » هذه هي آراء خاصة تلك الأيام في عامتهم

ومع ذلك فطلاب السلطة كانوا يراعون جانبهم ويقربونهم بما يرضيهم ولا سيما الدين وهو جامعهم الكبرى ، ولا غرو فانه أكبر أسباب سعادتهم ، ولهذا السبب رأيتهم شديدي التعلق بالخليفة اذا أظهر التقوى ، لما في منصبه من الصبغة الدينية ، وهو رئيسهم وامامهم ، فكانوا له عضدا قويا ، ولولاهم لذهبت الخلافة العباسية من بغداد قبل الزمن الذي ذهبت فيه ، لأنهم كانوا كثيرا ما ينهضون لنصرته على القواد والوزراء اذا أرادوا خلعه . وأكثرهم مع ذلك لا يعرفون من الدين غير اسمه ، ولو سئل أحدهم عن اعتقاده لما أحسن الجواب ، فضلا عن بساطتهم وسداجة أفكارهم وجهلهم سائر الأمور

ذكروا من دهاء معاوية في مداراة الناس واجتذاب قلوب العامة أن رجلا من أهل الكوفة دخل على بعير له الى دمشق في حال منصرفهم عن واقعة صفين ، فتعلق به رجل من أهل دمشق فقال : هذه ناقتى أخذت منى في صفين ! فارتفع أمرهما الى معاوية ، وأقام الدمشقى خمسين رجلا بينة يشهدون أنها ناقتة فقاضى معاوية على الكوفى وأمره بتسليم البعير اليه ، فقال الكوفى : « أصلحك الله ، انه جمل وليس بناقة . . » فقال معاوية : « هذا حكم قد أمضى » ودس الى الكوفى بعد تفرقهم فأحضره وسأله عن ثمن بعيره ودفع

(١) كتاب البخله ص ٣٧ . وقد فسر الجاحظ في ذلك الموضع معانى هذه الالفاظ

اليه ضعفيه وبره واحسن اليه وقال له : « ابلغ عليا انى اقبله بمائة الفمافيهم من يفرق بين الناقة والجمال »

وبلغ من امرهم فى طاعته انه صلى بهم عند مسيرهم الى صفين الجمعة فى يوم الأربعاء ، واعاروه رموسهم عند القتال وحملوه بها وركنوا الى قول عمرو ابن العاص ان عليا هو الذى قتل عمار بن ياسر حين اخرجته لنصرته . ثم ارتقى بهم الامر فى طاعته الى ان جعلوا لعن على سنة ينشأ عليها الصغير ويهلك عليها الكبير

وذكروا عن عامة بغداد فى ابان التمدن الاسلامى ان رجلا منهم رفع الى بعض الولاة وشاية برجل من علماء الكلام زعم انه يتزندق ، فسأله الوالى عن مذهب الرجل فقال : « انه مرجىء قدرى اباضى رافضى ، يبغض معاوية بن الخطاب الذى قاتل على بن العاص ! » فقال له الوالى : « ما ادرى على اى شىء احسدك ، على علمك بالمقالات أو على بصرك بالانساب .. »

وكان جماعة من علماء ذلك العصر يجتمعون فى بغداد للمناظرة فى ابنى بكر وعمر وعلى ومعاوية ، وكان بعض العامة يأتون فيستمعون فتصدى اكبرهم لحية ذات يوم لبعض الباحثين وقال له : « كم تظنبنون فى على ومعاوية وفلان وفلان ! »

فقال له الرجل : « فما تقول أنت فى على ؟ »

قال : « اليس هو ابا فاطمة ؟ »

قال : « ومن هى فاطمة ؟ »

قال : « امرأة النبى عليه السلام .. بنت عائشة أخت معاوية ! »

قال : « فما كانت قصة على ؟ »

قال : « قتل فى غزاة حنين مع النبى ، وقد كان عبد الله بن على حين خرج فى طلب مروان الى الشام . وكان من قصة مروان ومقتله ماقد ذكر . ونزل عبد الله بن على الشام ، ووجه الى ابنى العباس السفاح اشياخا من اهل الشام من ارباب النعم والرياسة ، فحلقوا لآبى العباس السفاح انهم ماعلموا لرسول الله قرابة ولا اهل بيت يرثونه غير بنى امية حتى وليتم الخلافة » (١) (**)

(١) السمودى ٥٢ ج ٢

(*) وهذه كلها من مبالغات السمودى فى « مروج الذهب » ، وربما كانت حكايات صنعها ناس للتندر بها ، وظاهر ان التخليط فيها معقد تعقيدا يدل على ان صانعه من اهل العلم . وقد كان رأى المفكرين فى العامة سيئا جدا فى العصور الوسطى فى الشرق والغرب

أولئك هم العامة في كل زمان ومكان ، وطلاب السلطة المطلقة لا يستغنون عنهم ، لأنهم معظم الرعية وبهم تجبى الأموال ومنهم تتألف الجنود ، فمن استطاع كسب ثقتهم واجتذاب قلوبهم ملكوه ، ولا يجتذب قلوب العامة مثل الدين ، فاذا اجتمعت السياسة والدين تمت وسائل السلطة المطلقة وتولى أمور الناس أكثرهم دهاء وأقدرهم على استرضاء العامة بالتقوى

الآداب الاجتماعية

آداب العرب في الجاهلية

نريد بالآداب الاجتماعية ما يدور بين الناس من المعاملات الأدبية والأمور الاعتبارية في حياتهم الاجتماعية ، وما يتبادلونه من الملائق العائلية على ما تقتضيه عاداتهم وأخلاقهم وطبائع اقليمهم . وأساس تلك الآداب في التمدن الاسلامي ما كان عند العرب قبل الاسلام من المناقب والعادات وحال المرأة عندهم ، فنقدم الكلام بتمهيد في هذا الشأن

مناقب العرب الجاهلية

تختلف مناقب الناس وآدابهم باختلاف ضروب معاشهم وأطوار تمدنهم وطبائع اقليمهم ، فلبدو مناقب غير مناقب الحضرة ، ولأهل القرى آداب تختلف عما لأهل المدن ، وأهل الاقاليم الحارة آدابهم تخالف آداب أهل الاقاليم الباردة ، جريا على ما يقتضيه ناموس الارتقاء من التناسب بين طباع القوم وطبائع اقليمهم ، لئلا يتولاهم الضعف ويدركهم الفناء

فأهل البادية يحتاجون الى الشجاعة مثلا اكثر مما يحتاج اليها المتمدنون ، لتفرد البدوى عن المجتمع وتوحشه في الخلاء وبعده عن الحماية وانتبازه عن الأسوار ، ويقوم بالدفاع عن نفسه بيده فهو دائما يحمل السلاح وينفرد في القفر واثقا بنفسه ، فصارت الشجاعة سجية له . بخلاف أهل المدن الذين ألقوا جنوبهم على مهاد الراحة وانغمسوا في الترف ، واكلوا أمرهم في المدافعة عن أعراضهم وأموالهم وأنفسهم الى واليهم والحماية التي تولت حراستهم ، واستناموا الى الأسوار التي تحوطهم فهم آمنون قد ألقوا السلاح، وتوالت على ذلك منهم الأجيال وتنزلوا منزلة النساء والولدان الذين هم عيال على سواهم ، فأصبح الجبن طبيعة فيهم . اعتبر ذلك بسائر ما يغلب في طباع أهل البدو كالعصبية والكرم والوفاء والأنفة والنجدة وغيرها مما تستلزمه البداوة ولا تستقيم الا به على ما سنبينه : (*)

١ - العصبية

هي أظهر طبائع البدو وأعمها ، وقد فصلنا أسبابها وشروطها وسائر أطوارها في الجزء الرابع

(*) مرجع المؤلف هنا مقدمة ابن خلدون في مقارناته المعروفة بين البدو والحضر

٢ - الشجاعة

البدو يعيشون غالبا بالغزو ، وهم دائما في قتال أو يتأهبون لقتال، فالشجاعة شرط من شروط بقائهم . وقد كانت غالبية فيهم ، يكرمون الشجاع ويتفاخرون بالشجعان ، واشتهر فيهم جماعة كبيرة من أهل البسالة في الجاهلية والاسلام، كعمرو بن معديكرب ، وربيعة بن المكدم ، ودريد بن الصمة ، وعروة بن الورد ، وعنترة العبيسي ، وملاعب الاسنة ، وعامر بن الطفيل ، وعلى بن أبي طالب ، وخالد بن الوليد ، والمقداد بن الأسود ، وسعد بن أبي وقاص ، وعبد الله بن الزبير وأخيه مصعب وغيرهم . واشتهرت نساؤهم بالشجاعة أيضا ، كما سيجيء في كلامنا عن المرأة

٣ - الكرم

وهو من مناقب أهل البادية ، اقتضته طبيعة اقليمهم لما قدمناه من مسير البدوي في أسفاره منفردا ، وقد يبتعد عن مضربه أياما في بادية لا طعام فيها ولا ماء ، فإذا لم يجد من يقره ويسقيه مات . فنشأ عن ذلك الضيافة وقرى الضيفان ، وأصبح الكرم من أفضل المناقب عندهم ، شأن سائر أجيال البدو غير العرب كالجرمان قبل تمدنهم . فكان البدو يتفاخرون بالضيافة ويتسابقون الى المغلاة فيها ، حتى أوقدوا نارا بجانب مضاربهم يهتدى بها المارة ليلا يسمونها نار القرى ، وبالفوا في احترام الكرماء ترغيبا للناس في هذه الفضيلة لافتقارهم اليها . فأصبح الاسخياء يبالغون في ذلك ويكثر من النيران ، فإذا اشتد البرد أو هبت الرياح فعجزوا عن إبقائها ، فرقوا الكلاب حوالى الحى وربطوها الى العمدة لتستوحش فتنبج ، فيهتدى الاضياف على نباحها . ولذلك كان من أسماء الكلب عندهم « داعى الضمير ، ومتمم النعم ، ومشيد الذكر » . وكانوا يتفاخرون بعظم جفانهم وارتفاعها ، ومن أكبر تلك الجفان جفنة عبد الله بن جدعان ، كان الرجل يستطيل في ظلها (١)

وأشهر الكرماء في الجاهلية حاتم الطائي ويضرب المثل بكرمه ، فيقال للمبالغة في مدح كريم : « انه اكرم من حاتم طى » . ومنهم كعب بن مامة الايادى ، وهرم بن سنان ، وخالد بن عبد الله وغيرهم . وكان جودهم قاصرا على الضرورى من حاجات الانسان ، كالطعام والشراب واللباس لبساطة احوالهم ، وربما جادوا بالابل أو الماشية . فلما ظهر الاسلام وكثرت اموالهم من الغنائم والعطايا بصاروا يجودون بالنقود والجواهر والضياع والرقيق وغيرها كما سترى

٤ - الوفاء

لما كان الغدر سهلا على البدوى ، لامكانه الفرار من القصاص والايغال في البادية ، حيث لا يستطيع خصمه الوصول اليه وليس ثمة وأزع يخيفه أو جند يقبضون عليه ، ولا هناك دين يزجره مما يفضى الى ضياع الحقوق وفساد الأحوال ، جعلوا يرغبون الناس في الوفاء ويعظمون أمره ويمتدحون أهله ، فرغب الناس فيه وأصبح بتوالى الأجيال خلقا لهم ، وصاروا يأنفون من أخلاف الوعد ويشهرون بمرتكبهم ويبالغون في الثناء على أهل الوفاء

٥ - الاستقلال

لا شيء أحب الى أهل البادية من الاستقلال ، ولا سيما الرحل فانهم طبعوا على الحرية وكرهوا التقيد بشيء ، حتى المكان فهم لا يتوطنون صقعا بل يجعلون منازلهم على ظهورهم ينتقلون بها الى حيث يطيب لهم المقام . وهم لا يحملون ضيما ولا يصبرون على ظلم . وتمكنت الحرية من طباعهم حتى ظهرت في اقوالهم وأفكارهم ، ونشأوا على الأنفة وعزة النفس وأباء الضيم . ألا ترى كيف ظهر ذلك منهم في صدر الاسلام ، اذ كانوا يخاطبون الخلفاء كما يخاطبون عامة الناس ، والخلفاء لا يرون بأسا بذلك لانه كان طبعا مألوفاً فيهم ؟

٦ - النجدة

هى من طبائع البدو ولازمة لزوم الضيافة ، وبينهما تناسب من حيث اغاثة الضعيف ، فاذا استنجدت البدوى على أمر انجذك ولو بذل نفسه في هذا السبيل . وتظهر نجدتهم على الخصوص في الجوار وحمل الدمار ، وقد فصلنا ذلك في الجزء الرابع

٧ - الأريحية

وقد وصفنا هذه المنقبة وصفا مختصرا في الجزء المذكور ، وهى من مناقب أهل النجدة والفروسية التى يعبر عنها الافرنج بقولهم Chevalerie ومرجعها الى الافتخار بحسن الاحدثة ، ولما كان العرب أهل خيال وذوى نفوس حساسة كان للأريحية عندهم شأن كبير ، فالرجل منهم تقيمه كلمة وتقعه ، وربما تجردوا للحرب نقمة على عبارة تطعن في شجاعتهم أو كرمهم أو وفائهم . وكانوا يتأثرون على الخصوص من أقوال النساء مدحا أو طعنا فيبدلون مافى وسعهم التماسا لثنائهن ، وكثيرا ماكان ذلك سببا في ابتعادهم عن الرذائل ، وربما تعرض بعضهم للقتل خوفا من استخفافهن ، وفي أخبار الجاهلية شواهد كثيرة على ذلك

٨ - الثار

وكما ينجذك البدوى اذا استنجدته فهو لا يصبر عن الاخذ بثأره اذا أسأت

اليه ، واذا قتل رجل من قبيلة رجلا من قبيلة أخرى نشأت العداوة بين القبيلتين ، فتقوم الموتورة منهما للأخذ بثأرها ولا تنفك حتى تقتل من الأخرى من هو كفاء لقتيلها أو يتصالحوا على الدية . ومن أشهر حوادث الثأر في الجاهلية الحرب التي أثارها المهلهل بن ربيعة للأخذ بثأر أخيه كليب ، فأصبح المهلهل مثالا في ذلك فيقولون : « فلان آخذ للثأر من المهلهل » لأنه حلف منذ طلب الثأر أنه لا ينزع درعه ولا يشرب الخمر ولا يدهن رأسه بالطيب ولا يقرب النساء الا بعد نيل مراده

٩ - الشيخوخة

كان للشيخوخة عند العرب مقام رفيع ، ولفظ الشيخ يدل عندهم على الشيخوخة والرئاسة معا . وكانوا اذا تساوت المناقب فيمن يرشحونه للامارة فضلو أكبرهم سنا ، كما فعلت قريش في حرب الفجار الثانية (١) ولما جاء الاسلام وأحدث ما أحدثه من المناقب الدينية ، كانت هذه المناقب في جملة ما فضلوه على السن ، فاذا تساوت كلها في المترشح للامارة فضلو أكبرهم سنا ، عملا بالحديث النبوي بشأن الامامة : « يؤم القوم اقرؤهم لكتاب الله تعالى ، فان كانوا في القراءة سواء فأعلمهم بالسنة » فان كانوا في السنة سواء فأقدمهم هجرة ، فان كانوا في الهجرة سواء فأقدمهم سنا « (٢)

المرأة في الجاهلية

اختلفت الآراء في حال المرأة العربية في العصر الجاهلي ، ولا مشاحة انها كانت على الاجمال عظيمة الشأن عفيفة النفس ، وعفتها من ثمار حب الاستقلال والأنفة ، لأن المرأة التي تشب على استقلال الفكر وأباء الضيم تترفع عن ارتكاب ما يهون على المرأة الناشئة في مهاد الدل المغلولة بأغلال الحجاب . ويقال نحو ذلك في غير رجالهم على العرض ، فانه من مستلزمات العفة والأنفة والاستقلال ، لأن الرجل الانوف اذا تعود العفة من امراته يعظم على طباعه احتمال ما يمس عرضها من قول أو فعل . وتزداد غيرته عليها اذا كانت وحيدة لم يحب سواها ، كما كان حال العرب في الجاهلية لقلة الجوارى يومئذ ومشقة الحصول على النساء ، مع حاجة البدوى الى امراته في تدبير شؤونه واعانته في أسفاره وأعماله

الواد

وبلغ من غيرة بعضهم في الجاهلية أن يقتلوا بناتهم أو يشدوهن ، لئلا يرتكبن

(١) الجزء الاول

(٢) مشكاة المصابيح ١٠٠

ما يجر عليهم العار . ولم يكن الواد عاما في قبائل العرب ، ولا كان قديما عندهم ، وإنما حدث قبيل الاسلام . وكان منحصرًا في بعض بنى تميم بن مر ، ظهر فيهم لسبب طرا عليهم - ذكروا أنهم كانوا يؤدون الاتاة (الجزية) الى النعمان ملك الحيرة ، فمنعوها سنة من السنين فجرد عليهم النعمان كتابه وساق انعامهم وسبى ذراريهم ، فعظم ذلك على التميميين فوفدوا عليه يطلبون أهلهم وأموالهم فأبى ، فقالوا : « أعطنا النساء » فقال : « اننا نخبرهن في الذهاب أو البقاء » وأعلن « ان كل امرأة اختارت أباه ردت اليه . وان اختارت صاحبها تركت عليه » فكلهن اختارت أباهن الا ابنة قيس بن عاصم كانت قد أحبت صمرد بن المشمرج فاختارت البقاء عنده ، فعضب قيس ونذر لا تولد له ابنة الا قتلها (١) وربما اقتدى به بعض أهله أو أهل قبيلته . وكان بعض الغيورين من العرب لا يزوج بناته غيرة عليهن ، وأشهرهم ذو الاصبع العدواني فكانت له أربع بنات ممنعهن الزواج وهن يردن في حديث طويل ذكره المبرد (٢) ولم يطل زمن الواد عند العرب ، لأنه مخالف لأحكام العقل ومباين لعواطف الوالدين . فما لبث أن ظهر صعصعة بن ناجية وأخذ على نفسه فداء البنات الموءودات (٣) حتى بطل الواد (*)

(١) الكامل للمبرد ٢٧٨

(٢) الكامل ٣١٦

(٣) ألف باء ٢٠ ج ٢

(*) لم تكن الفيرة على النساء هي الدافع الوحيد لواد البنات ، بل قد يدفع اليه الفقر والرغبة في التخلص من تكاليف تربية البنات ، وهذا ظاهر من قوله تعالى : « ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإياكم » (الاسراء ٣١) وقد يكون سببه دينيا ، أى تقتديهم قربانا للآلهة ، وذلك ظاهر من قوله تعالى في سورة الانعام آيات (١٣٧ - ١٤٠) : « وكذلك زين لكثير من المشركين قتل أولادهم شركائهم ، ليردوهم وليبلسوا عليهم دينهم » ولو شاء الله ما فعلوه ، فذرهم وما يفترون ... قد خسر الذين قتلوا أولادهم سفهاً بغير علم ، وحرموا ما رزقهم الله افتراء على الله ، قد ضلوا وما كانوا مهتدين » ومن المعروف أن التقرب بالابناء الى الآلهة كان معروفا عند الجاهليين

وظاهر أن مايوريه المؤلف عن الاغانى (ج ١٢ ص ١٤٤) من أن أصل الواد قصة بنت قيس ابن عاصم مجرد قصة من صنع القصاص ، لان الواد كان منتشرا في قبائل أخرى غير تميم ، فيروى الميداني عن الهيثم بن تميم انه « كان في قبائل العرب قاطبة يستعمله واحد ويتركه عشرة ، فجاء الاسلام وقد قل الا في بنى تميم » . ويذكر القرطبي في تفسيره أن الواد كان في مضر وخزاعة . وظاهر من الآيات القرآنية انه كان معروفا في الحجاز ، وكانت البنت تودع بمجرد ميلادها أو في سن السادسة ، والأغلب أن وأدهن في السن الأخيرة كان لسبب ديني . ومن الطريف أن الآباء كانوا لا يقومون بعملية الواد ، بل يتكون ذلك للنساء ويرغونهن على فعله ، فيخرج الرجل بعد أن يهدد زوجته بأشد الوعيد اذا هو عاد ولم يجد البنت قد وورت الثراب ، قال محمد بن حبيب النسابة في كتابه « المحبر » : (ص ٣٩٨) : « فتخذ في الأرض خذا وترسل الى نساها فيجتمعن عندها ، ثم يتداولنها ، حتى اذا ابصرن به راجعا دسها في حفرتها ثم سوت عليها الثراب . وكان الرجل يشترط على امرأته أن تستحي جارية وتؤد أخرى » . وكان المعتلاء ينفرون من الواد ، وقد تصدى الكثيرون لغدائهن ، حتى لقد روى محمد بن حبيب أن جد الفرزدق الشاعر اشترى أربعمائة جارية وأربع جوار (أى بنات) وفداهن

شهرات الجاهلية

وكان للمرأة في الجاهلية شأن وإرادة ، وكانت صاحبة انفة ورأى وحزم ، فنبغ غير واحدة منهم في السياسة والحرب والأدب والشعر والتجارة والصناعة ولا سيما في أوائل الاسلام على اثر ما حصل من النهضة في النفوس والعقول ، فاشتهرت جماعة منهم بمناقب رفيعة تضرب بها الامثال ، واكثرهن في المدينة مقر الخلافة الاسلامية في ذلك العهد

فاللواتى اشتهرن في الجاهلية بالشجاعة وشدة البطش أو كبر النفس ،منهن سلمى بنت عمر احدى نساء بنى عدى بن النجار ، فانها كانت امرأة شريفة لا تتزوج الرجال الا وأمرها بيدها ، اذا رأت من الرجل شيئا تركته . على أن الغالب في نساء الجاهلية أن يخيرن قبيل الزواج ، فلا يزوج الرجل ابنته الا بعد أن يشاورها (١) واشتهرت التميميات من نساء قريش بحظوتهن عند رجالهن وكبريائهن وقسوتهن عليهم (٢) ناهيك بمن اشتهرت منهن بالبسالة في أثناء الغزوات . ففي معركة أحد وقع لواء قريش في ساحة القتال ، فلم يزل صريعا حتى أخذته امرأة منهم اسمها عمرة بنت علقمة الحارثية فرفعته لهم فلاذوا بها (٣) . وفعلت هند بنت عتبة امرأة أبى سفيان فى تلك المعركة ما لم تفعله الرجال ، فجمعت اليها نسوة اخذن فى أيديهن الدفوف يضربن خلف الرجال وهى تنشد فى تحريضهم على الثبات . ولما انتهت الواقعة خرجت مع النسوة تنظر جثث القتلى حتى وجدت بينها جثة حمزة عم النبى ، فبقرت بطنه وأخرجت كبده فلاكتها من غيظها فلم تستطع أن تسيغها فلفظتها ، ثم علت صخرة وأنشدت أشعارا تفخر بالفوز على المسلمين (٤)

ونساء الجاهلية كن يصحبن الرجال الى ساحة القتال فيداوين الجرحى ويحملن قرب الماء ، وممن اشتهرن بالشجاعة أم عمارة بنت كعب الانصارية ، وأم حكيم بنت الحارث ، والخنساء الشاعرة أخت صخر وغيرهن (٥)

ونبغ بالرأى والحزم غير واحدة ، أشهرهن أم المؤمنين خديجة بنت خويلد ، وكانت عاقلة حازمة لبية ذات شرف ومال ، تنتقى من اشتهر من الرجال بالامانة والحزم فتستأجرهم بمالها وتضاربهم إياه بشيء تجعله لهم . ولما سمعت بشهرة النبى قبل الدعوة بالامانة وكرم الاخلاق ، بعثت اليه أن يخرج فى مالها تاجرا الى الشام وتعطيه أفضل ماكانت تعطى غيره من الرجال،

(١) الاغانى ١٤٩ ج ٩ و ٢٠٨ ج ١٨

(٢) الاغانى ٢٠٣ ج ١٨

(٣) الاغانى ١٧ ج ١٤

(٤) الاغانى ٢٠ ج ١٤

(٥) الف باء ٢١٠ ج ٢

فلما أفلح في تجارته مرضت عليه أن يتزوج بها فأجابها . وهي أول من أسلم ،
وقد نشطته للقيام بالدموة ، فكان لا يسمع شيئاً مما يكرهه من رد عليه أو
تكذيب له فيحزنه ويخبرها به إلا ثبتته وخففت عنه وهونت عليه ، وما زالت
على ذلك حتى ماتت

آداب العرب في صدر الإسلام

الآداب الاجتماعية في العصر الإسلامي العربي

ينقضي هذا العصر بانقضاء دولة الأمويين في الشام سنة ١٣٢ هـ ، وقد علمت مما ذكرناه من سياسة هذا العصر في الجزء الرابع أنها كانت عربية النزعة وقوادها عرب وعمالها عرب والسيادة فيها للعنصر العربي . وكذلك الآداب الاجتماعية ، فقد كانت لا تزال عربية بدوية ، أو هو دور الانتقال من البداوة الى الحضارة ، حاول العرب فيه البقاء على ما ألفوه في جاهليتهم من المناقب التي تقدم ذكرها ، كالوفاء والجرار والكرم والنجدة والشجاعة والعفة . وكانت الحضارة وما تقتضيه من الترف والرخاء تغالب تلك المناقب ، حتى غلبت على معظمها في أواسط العصر العباسي

ويقسم العصر الإسلامي العربي الى : أيام الراشدين ، وأيام الأمويين . فنذكر الآداب الاجتماعية في كل منهما على حدة

١ - الآداب الاجتماعية في عصر الراشدين

قلما أصاب المناقب البدوية تغيير في عصر الراشدين ، الا ما اقتضاه الدين من جمع كلمة العرب تحت لوائه ، فضعفت بذلك العصبية بين القبائل والبطون ، واجتمع العرب من قحطان وعدنان في ظل الاسلام ، وأصاب الكرم في ذلك العصر تغيير اقتضاه عدل الراشدين ولاسيما عمر بن الخطاب ، فانه كان من الصرامة وحب العدل حتى يطالب العامل بالدرهم والدانيق ، وإذا علم انه كسب مالا من غير راتبه شاطره اياه ، وكذلك كان على بتدقيقه في محاسبة عماله وسائر رجاله . فكانوا لا يبذلون المال الا لمن استحقه من أهل العطاء ، فلم يكن لأصحاب الاستجداء عيش في أيامهم . وكان الصحابة يومئذ يقلدون الخلفاء في هذا التدقيق ، وهو مخالف للسخاء والبذل ، حتى اتهموهم بالبخل وما هو ببخل ، ولكنهم كانوا يرون اعطاء كل ذي حق حقه

اما ما بقي من مناقب العرب فظلت على نحو ماكانت عليه ، وبعضها زاد تمكنا في نفوسهم ، كالوفاء والنجدة والعفة والأنفة ، لان الاسلام زادها رونقا وقوة بالعدل والتقوى ، فكان الخليفة أو اميره اذا وعد وفي ، واذا عاهد أنجز ، لا يثنيه عن ذلك طمع أو خوف . اعتبر ماكان من وفائهم لأهل الدمة ، اذ عاهدوهم على أن يحموهم ما ادوا الجزية . فكانوا اذا شغلهم عن حمايتهم شاغل

ردوا الجزية الى اصحابها واعتذروا (١) ولو لم يردوها ما طالبهم بها أحد ، وإنما كانوا يفعلون ذلك من عند أنفسهم . والشجاعة كانت سائدة في ذلك العصر ، لما كانوا فيه من الحاجة اليها في الفتح والجهاد . وقس على ذلك سائر المناقب ، ولا سيما الاستقلال والحرية فانهما زادا قوة في صدر الاسلام ، لما توخاه الراشدون من التسوية بين المسلمين على اختلاف طبقاتهم ، حتى أصبحوا يخاطبون الخليفة أو الأمير بجسارة وأنفة كما يخاطبون بعض أقرانهم ، وإذا راوا فيه اعوجاجا هددوه أو عنفوه وأصلحوه ، فإذا لم يطمعهم قتلوه كما فعلوا بالخليفة عثمان . وكثيرا ما كان المسلمون يحصبون أميرهم وهو يخطب فيهم ، إذا أنكروا شيئا من أقواله أو أعماله

المرأة في عصر الراشدين

أما المرأة فاتجهت قواها في صدر الاسلام الى سداد الرأي ومزاولة الأدب والشعر مع بقاء العفة والانفة ، فاشتهر منهن غير واحدة جرت بذكرهن الامثال منهن عائشة أم المؤمنين ، فقد كان لها عقل راجح وفيها دهاء وقوة ، حتى رأست حزبا كبيرا من الصحابة وروت أحاديث كثيرة هامة

وعائشة بنت طلحة بن عبيد الله الصحابي الشهير ، كانت مفرطة الجمال تقيم في المدينة ولها عقل ورأى وعلم واسع بأخبار العرب وأيامها وفي مطالع الكواكب وأحوالها . وكانت مع جمالها لا تستر وجهها عن الرجال لعظم قدرها وكبر نفسها . وكثيرا ما كانت تجلس في قصرها فيتناضل بين يديها الرماة ويتفاخرون بما ينالونه من اعجابها . وكانت اذا حجت يجيئها النساء الشواعر وغيرهن ويدخل الشعراء فتجيزهم الجوائز الكبيرة ، وكان لها موكب لم يسمع بمثله في عصرها مؤلف من عدة مواكب ، وأحد لماشطتها وآخر لخازنتها وآخر لكل من كبار أتباعها . أما موكبها الخاص فهو كوكبة فيها ٣٠٠ راحلة عليها القباب والهواذج (٢)

وسكينة بنت الحسين بن علي ، وكانت معاصرة لعائشة بنت طلحة في المدينة وتسميان عقيلتي قریش (٣) وكانت عفيفة برزة تجالس الاجلة من قرينس ويجتمع اليها الشعراء ، وتأذن للناس اذنا عاما حتى تغص الدار بهم فتأمر لهم بالأطعمة ، ثم تطرح على الشعراء الأسئلة في الشعر والأدب وتنتقد أقوالهم وتجيزهم ، وخبرها في ذلك مشهور (٤)

وأسماء بنت أبي بكر ، المعروفة بذات النطاقين وهي أم عبد الله بن الزبير ،

(١) الجزء الاول

(٢) الاغانى ٦٠ ج ١٠

(٣) المقد الفريد ٢٥٤ ج ٢

(٤) الاغانى ١٧٣ ج ١٤

وفي مراجعة قولها لابنها هذا لما يئس من الفوز وهو محصور بمكة وجاء يستفتيها وتحريضها اياه على استقبال الموت بشرف دليل كاف على كبر نفسها وحزمها (١)

ونبع بالشعر في ذلك العصر عدة نساء ، كليلي الاخيلية والخنساء المتقدم ذكرها والفارعة المرية . واشتهر في البادية غير واحدة ممن كان يجتمع الرجال عندها للمناشدة او المذاكرة على غير ريبة ، فاذا توسمت في احدهم انحرافا منعتة واحتجبت عنه . كما اتفق لابی دهبيل الجمحي مع عمرة الجمحية ، وكانت امرأة جزلة يجتمع اليها الرجال لانشاد الشعر ، وكان أبو دهبيل من اشراف بنى جمح وكان لايفارق مجلسها ، وكانت تحبه وتتقدم اليه في كتمان حبها ، فجاء نسوة كن يتحدثن اليها فذكرن لها شيئا عن أبي دهبيل وأنه يقول انها عاشقة له ، فرفعت مجلسها وتركت مجالسة الرجال ظاهرة وضربت حجابا بينها وبينهم (٢)

ولما نضج التمدن الاسلامي اشتهر عدة نساء بالسياسة والصلاح والدهاء وغير ذلك مما ذكرناه في الأجزاء الماضية

٢ - الاداب الاجتماعية في عصر الامويين

اصاب المناقب العربية في الدولة الاموية تغيير يختلف عما اصابها في عصر الراشدين باختلاف احوال الدولتين . فالأمويون لما جعلوا همهم الرجوع الى ماكان لهم من السيادة في الجاهلية اغفلوا كل ما يخافون حيلولته بينهم وبين ذلك الرمي ، واستبقوا مايتوسمون منه نفعا لغرضهم - فالكرم رأوا فيه وسيلة لجمع الأحزاب فنشطوه وتسابقوا اليه ، فزادوا الأعطية وفرضوا الجوائز واقاموا بيوت الضيافة ، واكثروا من السخاء على رؤساء الاحزاب والشعراء ومن يخافون سطوتهم ولا يقوون على قتلهم على مايناه في باب السخاء

والشجاعة لم يكن لهم بد منها فقربوا اصحابها . والعصبية كانت ملجأهم الأكبر في مناوأة أعدائهم من شيعة على وغيرهم ، فبعد أن ضعفت في عصر الراشدين وقامت جامعة الدين مكانها أعادها الأمويون الى نحو ما كانت عليه قبل الاسلام

أما الوفاء فكان عثرة في طريق اغراضهم ، لما كانوا يعلمونه من حق مناظرهم في الخلافة وقوتهم فلجأوا الى القدر والفتك . وكان معاوية زعيمهم ومؤسس دولتهم يفعل ذلك سرا ويموه غدره بالحلم والكرم والدهاء وحسن الأسلوب . فتدرج الخلفاء بعده من بنى مروان الى القدر جهارا ، وأول من فعل ذلك عبد

(١) ابن الاثير ١٩١ ج ٤

(٢) الاغانى ١٦٥ ج ٦

الملك بن مروان (١) وجرى عمالهم على هذه الخطة وأفرطوا فيها ، فاشتهر بها منهم زياد بن أبيه وابنه عبيد الله بن زياد والحجاج بن يوسف وغيرهم

تقييد الأفكار في أيام بنى أمية

أما الاستقلال وحرية القول فجاهد الأمويون في مقاومتها وقيدوا اللسان بارادتهم تقييدا شديدا ، فكان ذلك عظيما على الذين عاصروا الراشدين وتعودوا الحق والحرية ، فعاقبهم الأمويون جزاء حريتهم واستقلال أفكارهم بالعذاب الشديد . ومن لم يستطيعوا مقاومته جهارا قتلوه سرا - بدأوا بذلك من أيام عثمان قبل قبضهم على مقاليد الدولة في الشام ، وقد جرائهم عليه ضعف هذا الخليفة ورغبته في إرضاء أهله ونصرتهم ، ولولا ذلك ما استطاع معاوية اضطرهاد أبي ذر الغفاري ونفيه ، لأنه جاهر باستبداد أهل الدولة بأموال المسلمين (٢)

فلما أفضت الخلافة الى معاوية لم ير بدا من الضغط على أفكار أهل الاستقلال والحرية ، واستعمل الشدة في ذلك فقتل حجر بن عدي وعمرو بن الحلق وأصحابهما ، لأنهم قالوا بحرية ضمير أن عليا لا يجوز لعنه على المنابر (٣) فأصبح الناس يخافون على أرواحهم وأخذوا يتعودون السكوت عن الحق ، ثم لجأوا الى التمويه والرياء حتى في المشهور الثابت ، كما فعل ذلك الرجل لما نصب معاوية ابنه يزيد لولاية العهد فأطرى عمل معاوية حتى قال : « انك لو لم تول هذا أمور المسلمين لأضعته » . ولكن الحرية كانت لا تزال حية في نفوس أهل الرئاسة ممن لم يكن يهمهم التزلف الى أهل الدولة ، وربما كانت الدولة أحوج الى نصرتهم ، كالأحنف بن قيس التميمي فإنه كان يقول الحق ولا يبالى ، وكان ممن شهد الاحتفال بتولية يزيد وسمع ما قاله ذلك المنافق فاكتفى بالسكوت عن المدح . وأدرك معاوية فكره فاستفهمه عن سبب سكوته فلم يبال أن قال : « أخاف الله اذا كذبت وأخافكم اذا صدقت .. » (٤)

واقتردى بمعاوية من عاصره من الامراء أو جاء بعده من الخلفاء ، فنشأ جيل من العرب يهون عليهم السكوت عن الحق ، وكثر أهل الزلفى والرياء وذهبت حرية القول بتوالى الأعوام

النجدة والأريحية في أيام بنى أمية

أما النجدة والأريحية فظلتا في العصر الاسلامي العربى متأصلتين في العرب، وإن اضطر الأمويون الى الاغضاء عنهما في بعض الاحيان . أما على العموم

(١) الجزء الرابع

(٢) الجزء الثاني

(٣) ابن الأثير ٢٣٧ ج ٣

(٤) ابن خلكان ٢٣٠ ج ١

فقد كانتا مرعيتين حتى عند أشد بنى أمية استبدادا وظلما ، وفي أخبارهم كثير من أمثلة ذلك ، منها أنه جرى إلى معاوية في يوم صفين بأسير من أهل العراق فقال معاوية : « الحمد لله الذي أمكنني منك »

فقال الرجل : « لا تقل ذلك يا معاوية »

قال : « وأي نعمة أعظم من أن يمكنني الله من رجل قتل جماعة من أصحابي في ساعة واحدة ؟ اضرِبْ عنقه يا غلام »

فقال الأسير : « اللهم اشهد أن معاوية لم يقتلني فيك وأنت لا ترضى بقتلي ، وإنما يقتلني في الغلبة على حطام الدنيا ، فإن فعل فافعل به ما هو أهله وإن لم يفعل فافعل به ما أنت أهله »

فقال له : « ويحك ! لقد سببت فأبلغت ودعوت فأحسننت ... خليا عنه »

وكان معن بن زائدة قد أمر بقتل جماعة من الأسرى ، فقام أصغر القوم فقال له : « يا معن ، اتقتل الأسرى عطاشا ؟ » فأمر لهم بالماء ، فلما سقوا قال : « يا معن ، اتقتل ضيفانك ؟ » فأمر معن باطلاقهم . .

وأتى الحجاج بأسرى من الخوارج فأمر بضرب أعناقهم ، فقام فيهم شاب فقال : « والله يا حجاج لئن كنا أسانا في الذنب فما أحسننت بالعفو » فقال الحجاج : « أف لهذه الجيف ! أما كان فيهم من يقول مثل هذا ؟ » وأمسك عن القتل . وقس على ذلك (١)

وكثيرا ما كانوا يعرضون أنفسهم للقتل لرغبة في حسن الأحداث ، ولا سيما عند النساء كما فعل عيسى بن مصعب بن الزبير وهو مع أبيه في مقاتلة محمد ابن مروان بالعراق سنة ٧١ هـ اذ تحقق مصعب أنه مقتول فأوعز إلى ابنه عيسى أن يطلب النجاة فقال : « والله لا تتحدث نساء قريش أني خدلتك ورغبت في نفسي عنك » فقال : « فاذهب أنت ومن معك إلى عمك في مكة فأخبره بما صنع أهل العراق ودعني فاني مقتول » قال : « لا أخبر عنك قريشا أبدا ، ولكن يا أبتى الحق بالبصرة فانهم على الطاعة أو الحق بأمر المؤمنين » فقال مصعب : « لا تتحدث قريش أني قررت » وحاربوا حتى قتلوا (٢)

وظلت الأريحية مرعية في أوائل الدولة العباسية ، فان الرشيد رفع القتل عن ربيعة بقصيدة رفعها إليه أحدهم استنهض بها أريحيته في العفو عنهم (٣) ولما عزم المأمون على قتل إبراهيم بن المهدي - وكان مصمما على قتله - شاور

(١) العقد الفريد ١٤٠ ج ١ وابن خلكان ١١٠ ج ٢

(٢) الأغاني ١٦٣ ج ١٧ وابن الأثير ١٥٩ ج ٤

(٣) الأغاني ٢٣ ج ١٢

فيه أحمد بن أبي خالد الوزير فقال : « يا أمير المؤمنين ، ان قتلتك فلك نظراء
وان عفوت عنه فما لك نظير » (١) فعفا عنه

فلما ضعف العنصر العربى فى الدولة العباسية بعد تسلط الأجناد الاثراك ،
وتحولت الاغراض فى اهل الدولة الى كسب الاموال بأية وسيلة كانت ، ذهبت
الاريجية والنجدة ، على أن ذهابهما بدأ من أيام أبى مسلم الخراسانى . . فكم
استنجدوه واستحثوه ولم يفعل الا ما يوصله الى غرضه
والشيخوخة ظلت مرعية ومحترمة الى عصر العباسيين وما بعده ، ولا تزال
حتى الآن

المرأة فى عصر الامويين

بدأت المرأة بتبديل طباعها من أيام الأمويين ، لأن العفة والغيرة أصابهما
فى ذلك العصر صدمة قوية بتكاثر الجوارى والغلمان ، وانغماس بعض الخلفاء
فى الترف والقصف وانتشار الغناء والمسكر ، فتجرا الشعراء على التشبيب
والتغزل وتكاثر المختونون فى المدن ، وتوسطوا بين الرجال والنساء بالباطل ،
فأخذ الفساد يفشو بين الناس وضعفت غيرة الرجال وقلت عفة الناس .
فقد رأيت أن المرأة كانت فى الجاهلية وأوائل الاسلام تجالس الرجال وتخاطبهم
وتذاكرهم والعرب لا يرون ذلك منكرا (٢) ولا تخامرهم فيه ريبة ، واذا توسم
رجل من رجل نظرة الى امرأته أو أخته بريبة طلبه للمبارزة أو المجالدة أو
المصارعة (٣) (الدويلو Duello) فيتصارعان حتى يصرع أحدهما صاحبه
وربما انتشب القتال بين القبائل غيرة على نظرة كما حدث يوم الفجار الثانى (٤)
— حتى الشعراء ، فقد كانوا لا ينظمون النسيب أو الغزل الا قليلا . ويقال
ان امرأ القيس أول من شرب بالنساء (٥) ومهما يكن من ضعف هذا القول فهو
يدل على بعد العرب الجاهلية عن الغزل لفرط غيرتهم ، على أنهم قلما شربوا
بعد ذلك الا بحبيب أو خطيبة . وكانت مغازلة النساء نادرة فيهم ، فاذا اتفق
لأحدهم شئ من ذلك اشتهر أمره وذاع خبره ، كما اشتهر العشاق والمجانين
فى صدر الاسلام . وربما تعشق بعضهم رغبة فى شحذ قرائحهم الشعرية .
على أن تشبيهم فى كل حال لم يكن عن ريبة أو فاحشة (٦)

وكانوا يتفاخرون بالعفة وامساك هوى النفس ، وقد يجتمع الحبيبان بعد

(١) ابن خلكان ٩ ج ١

(٢) الاغانى ١٨٣ ج ١ و ١٨٤ ج ٧

(٣) الاغانى ٢٦ ج ١٩ و ٥٤ ج ٦

(٤) الاغانى ٧٤ ج ١٩

(٥) الاغانى ٦٧ ج ٢

(٦) المسمودى ١٢٢ ج ٢

طول البعد واحتدام الشوق فيجلسان ويتعاتبان ويتحادثان ثم ينصرفان .
وأشهر الناس في ذلك بنو عذرة ، وأكثر عشاق العرب منهم (❖)

التشبيب

فكان العرب الجاهلية قلما يشيبون بغير خطيبتهم ، فاذا شبيب أحدهم
بفتاة قبل أن يخطبها منعه منها (١) وكان الخلفاء الراشدون حريصين على
آداب القوم ، فجعلوا التشبيب ذنباً يستوجب القصاص ، وكان عمر بن الخطاب
لا يسمع بشاعر شبيب بامرأة إلا جلده (٢) ونظراً لقلّة من يجسر على وصف
النساء في شعره كان الشاعر اذا شبيب بامرأة اشتهرت فتتزوج ، ولذلك
كان بعض الآباء يطلب من الشاعر أن يشبيب ببناته ليتزوجن

فالعرب على فطرتهم وطبيعة اقليمهم وطرق معاشهم أهل عفة ، والنساء
يجتمعن بالرجال في المجالس والاندبة على غير ريبة . حتى في الكعبة ،
فكانوا يطوفون معا لا يرون بذلك بأساً لأن العفة كانت غالبية على طباعهم ،
فلما جاءهم الترف وأخذوا بأطراف الحضارة وعمدوا الى التسرى والاستكثار
من الجوارى تغيرت تلك الطباع . فلما كانت امارّة خالد القسري على مكة في خلافة
سليمان بن عبد الملك الأموي بلغه قول بعض الشعراء :

يا حبذا الموسم من موقف وحبذا الكعبة من مسجد
وحبذا اللاتي يزاحمننا عند استلام الحجر الأسود

فأمر بالتفريق بين الرجال والنساء في الطواف (٣)

(❖) بنو عذرة قبيل صغير من قضاة ، ونسبهم عذرة بن سعد هذيم بن زيد بن ليث بن
أسلم بن الحاف بن قضاة . وقضاة نفسها مختلف فيما اذا كانت من قحطان أو عدنان .
وكانت منازل بنو عذرة في الحجاز قرب منازل نهد وجهينة وبلى ، وتجاورهم من الشمال غطفان ،
ومركزهم وادي القرى وتبوك ، وامتدوا الى ايلة على شاطئ البحر الاحمر . وهناك قبائل
أخرى تحمل اسم بنو عذرة ، ولكن هذه اشتهرها ، وهي المعنية هنا . وقد بدأ رسول الله
يكتب الى بنو عذرة دائماً اياهم الى الاسلام من العام الثاني للهجرة ، ولكن الغالب أن الاسلام
لم ينتشر فيهم الا بعد فتح مكة ، وعلى اى الاحوال فقد اشتركوا في موقعة مؤتة وقاتلوا الروم
مع المسلمين

وقد اشتهر امر بنو عذرة بالحب النبيل والفرل البريء ، وقد نسب اليهم هذا الحب فقيـل
حب عذري ، وقد ذاع صيتهم بذلك لا في الادب العربي فحسب ، بل في الادب العالي ، وللشاعر
الاماني هابن قصيدة مشهورة عن بنو عذرة مطلعها : « أنا من اليمن ، واسمى أحمد ، وأنا من قوم
اذا احبوا ماتوا » ، وربما كان المراد بهذا عروة بن حزام الذي يلقب بقتيل الحب . وخير من
يمثل هذا الحب من العذريين جميل بثينة . وتجد مجموعات من شعر العذريين في كتاب الزهرة
لداود الاسفنهاني (طبعة نيكل ، بيروت) ، ومصارع الاسواق للانطاكى ، وطوق الحمامة لابن حزم .
القيم ، ودويان الصحابة لابن ابي حجلة ، وتزيين الاسواق للانطاكى ، وطوق الحمامة لابن حزم .
وانظر مادة بنو عذرة بقلم ليفي دلافيدا ، ومادة عذري بقلم لوى ماسينيون في دائرة المعارف
الاسلامية

(١) الاغانى ١٨١ ج ٢٠

(٢) الاغانى ٩٨ ج ٤

(٣) المسعودى ١١٦ ج ٢

وفي أيام بنى أمية تجرأ الشعراء على التشبيب بالنساء ، لا سيما في المدينة بعد انتشار الغناء فيها واقبال أهلها على القصف واللهو . ومما زاد انكارهم للتشبيب أن الشاعر إذا نظم أبياتا تغنى بها المغنون في مجالس الشراب . وأول من تجرأ على التشبيب من الشعراء القرشيون ، وأسبقهم إلى ذلك ابن أبي عتيق حفيد أبي بكر الصديق ، وكان من أهل الطهارة والعفاف وإنما كان يتشبيب عن غير ريبة ، واقتدى به عمر بن أبي ربيعة وهو قرشي أيضا ، وكان كثير النسيب والغزل ومن سمع كلامه ظنه من أجرأ الناس على فاحشة ، وهو لم يحل أزاره على حرام (١) واقتدى به العرجي وهو من قریش أيضا (٢) ونبغ شعراء آخرون من غير قریش وأخذوا يشببون بالنساء رويدا رويدا

ولم يكن الخلفاء في أول الأمر راضين عن ذلك لتغلب البداوة على أخلاقهم ، فأخذوا يقاومون تيار الترف بكل قواهم ، ولكنهم كانوا يدارون الشعراء رغبة في اكتساب الأحزاب على أيديهم ، فلا يمنعونهم من التشبيب إلا إذا مس عرضهم ، ومع ذلك فالدعاة منهم كانوا يتلطفون في دفعهم . ومن لطيف ما يحكى من هذا القبيل أن عبد الرحمن بن حسان بن ثابت شبيب بابتنة معاوية وهو خليفة في أبان مجده ، وبلغ ذلك ابنه يزيد فغضب ودخل على أبيه وقال : « يا أمير المؤمنين اقتل عبد الرحمن بن حسان »

قال : « ولم ؟ »

قال : « شبيب بأختي »

قال : « وما قال ؟ »

قال : « قال :

طال ليلى وبنت كالحزون ومللت الشواء في جيرون » (٣)

قال : معاوية : « يابني ، وما علينا من طول ليله وحزنه ؟ أبعد الله ! »

قال : « صدق يابني ! »

فلذلك اغتربت بالشام حتى ظن أهلي مرجمات الظنون

قال : « يابني ، وما علينا من أهله ؟ »

قال : « انه يقول :

هي زهراء مثل لؤلؤة الغوا ص ميزت من جوهر مكنون »

(١) كتاب الحيوان للجاحظ ٢٨ ج ١

(٢) الاغانى ١٥٤ ج ١

(٣) الاغانى ١٤٩ ج ١٣

قال : « صدق يا بني »

قال : « انه يقول :

واذا ما نسبتهما لم تجدهما في سناء من المكارم دون »

قال : « صدق يا بني ، هي هكذا ! »

قال : « انه يقول :

ثم خاصرتها الى القبة الحضراء ثم تمشى في مرمر مستنون »

قال : « ولا كل هذا يا بني ! »

وما زال يزيد يذكر له ما قاله فيها من التشبيب وهو يدافعه ويظهر أنه لا يرى فيه ما يستحق العقاب عليه ، ثم كلمه بعض خاصته بشأنه وأكبروا جسارته وقالوا : « لو جعلته نكالا » فقال : « لا ، ولكن أدأويه بغير ذلك » *
واتفق أن عبد الرحمن المذكور وفد على معاوية وكان يدخل في أخريات الناس ، فاستقبله أحسن استقبال وأجلسه على سريريه معه وأقبل عليه بوجهه وحديثه ثم قال : « ان ابنتي الاخرى عاتبة عليك » * قال : « في أي شيء ؟ » قال : « في مدحك أختها وتركك اياها » * قال : « فلها العتبي وكرامة ، أنا ذاكرها وممدها » * فلما فعل وبلغ ذلك الناس قالوا : « قد كنا نرى أن تشبيب ابن حسان بابنة معاوية لشيء ، فاذا هو على رأى معاوية وأمره » * وعلم من كان يعرف أنه ليس له بنت أخرى ، وأنه انما خدعه ليشبب بها ولا أصل لها ، فعلم الناس أنه كذب على الاولى لما ذكر الثانية * وشبب أبو دهبيل الجمحي أيضا بابنة معاوية فعامله باللين وقطع لسانه بالعطاء (١)

فقس على ذلك سائل خلفاء بني أمية وأمرائهم ، مما يدل على غلبة طبائع البدو في الأمويين ، مع أخذهم بأطراف المدنية واختلاطهم بالأمم الاخرى وقربهم من أسباب القصف * وكان تلك الأسباب أخذت بعقول الشعراء فلم يكونوا يقعدون عن التشبيب مع تعرضهم للخطر ، وكلما كان يجسر على ذلك غير القرشيين ، وأكثرهم جسارة عمر بن أبي ربيعة المتقدم ذكره ، فانه كان يصطحب ابن سريج المغني فيركبان على نجيين ويلقيان الحاج فيعرضان للنساء وينشدان الأشعار لا يباليون أن تكون فيهن بنت الخليفة أو امرأته

والظاهر أنهم لم يكونوا يفعلون ذلك إلا لما يرون من ارتياح النساء اليه ، لأن المرأة تفتخر بأن يثنى الشعراء على جمالها وان لم يرض أهلها . فقد كان لعبد الملك بن مروان بنت أرادت الحج فخاف أن يشبب بها ابن أبي ربيعة ، فاستكتب الحاج اليه ان هو فعل ذلك أصابه بكل مكروه ، فلما قضت حجها

خرجت فمر بها رجل فقالت له : « من أنت ؟ » فقال : « من أهل مكة »
 قالت : « عليك وعلى أهل بلدك لعنة الله ! » قال : « ولم ذاك ؟ » قالت :
 « حججت فدخلت مكة ومعى من الجوارى ما لم تر إلا عيين مثلهن فلم يستطع
 الفاسق ابن أبى ربيعة أن يزودنا من شعره أبياتا نلهو بها فى الطريق من
 سفرنا » قال : « انى لا أراه الا قد فعل » قالت : « فأتنا بشيء ان كان قاله ،
 ولك بكل بيت عشرة دنانير » فمضى اليه فأخبره فقال : « لقد فعلت ولكن
 أحب أن تكتم على » وأنشده قصيدة قالها فيها (١)

وممن اشتهر بتعرضه للنساء والتشبيب بهن فى ذلك العصر الأحرص ،
 كان يشيب بنساء ذوات أخطار من أهل المدينة فشكوه الى سليمان بن عبد الملك
 فأمر بالقبض عليه وجلده ثم نفاه (٢) . ووضاح اليمن ، كان يشيب بأمر البنين
 امرأة الوليد بن عبد الملك ، وهم الوليد بقتله فمنعه ابنه عبد العزيز وقال :
 « ان قتلته فضحتنى وحققت قوله وتوهم الناس أن بينه وبين أمى ربيعة »
 فأمسك عنه على غيظ وحنق ، حتى بلغه أنه تعدى أم البنين الى أخته فاطمة
 بنت عبد الملك ، وكانت زوجة عمر بن عبد العزيز وقال فيها :

بنت الخليفة والخليفة جدّها أخت الخليفة والخليفة بعلمها
 فرحت قوابلها بها وتباشرت وكذاك كانوا فى المسرة أهلهما

فاحتنق واشتد غيظه وقال : « أما لهذا الكلب مزدجر عن ذكر نسائنا
 وأخواتنا ولا له عنا مذهب ؟ » ثم دعا به فأحضر وأمر ببئر فحفرت ودفنه فيها
 حيا (٣)

فكانت أيام بنى أمية من حيث العفة والغيرة عصر انتقال من البداوة الى
 الحضارة ، فلما انقضى عصر الأمويين ذهب ما بقى من سذاجة البداوة فى طبائع
 العرب ، واستسلم الناس للترف والرخاء وضعفت الغيرة وأبيع التشبيب
 وشاع على ألسنة الشعراء ، حتى صاروا يصدرون به قصائد المدح والفخر .
 وكان الخلفاء الأولون من بنى العباس لا يزالون على مقربة من البداوة فأنكروا
 ذلك ونهوا عنه . ومن أشدهم غيرة المهدي بن المنصور فان بشارا أنشده
 مديحا فيه تشبيب فنهاه عن التشبيب البتة (٤) فظل التشبيب مستقبحا
 حتى أباحه الرشيد والحق فى نظمه (٥) قال ذلك طبعا الى ضعف الغيرة

(١) الاغانى ١٢٨ ج ٢

(٢) الاغانى ٤٨ ج ٤

(٣) الاغانى ٤٠ ج ٦

(٤) الاغانى ٤١ و ٥٨ ج ٢

(٥) الاغانى ١٦٠ ج ٣

الآداب الاجتماعية

فى العصر العباسى

قد رأيت ما أصاب المناقب العربية الفطرية من التغير بعد الاسلام ، بما طرأ عليها من عوامل الحضارة والانغماس فى الرخاء والقصف والاختلاط بأهل المدن ، فغلبيت عليهم الضعة وركنوا الى بسطة العيش والتنعيم بمطالب الحياة المادية، وزادهم العلم والفلسفة والطب تباعدا عن البداوة وخشونتها وسذاجتها، وقضت سياسة العباسيين بمراعاة الفرس وغيرهم ممن نصروهم فى قيام دولتهم وتشتيت شمل العرب ، فذهبت العصبية العربية واستلزمت رغبتهم فى بقاء دولتهم العدول الى الفتك والغدر على ما فصلناه فى الجزء الرابع ، فذهبت مناقب العرب ولم يبق من الوفاء والشجاعة والاستقلال والاثفة والعصبية والنجدة الا آثار ضعيفة

المرأة فى العصر العباسى

وآل تكاثر الجوارى وشيوع التسرى الى ذهاب الغيرة من قلوب الرجال ، حتى صاروا يتهادون الجوارى الروميات والتركيات والفارسيات وهن أجمل صورة وأشرق وجهها من نساء العرب . فبعد أن كان الرجل لا يعرف غير امرأته والمرأة لا تفكر فى غير زوجها وهى واثقة بأمانته ، اذا هو قد تشتتت عواطفه بين عدة نساء فقلت غيخته عليها . ولما رأته مشغولا عنها قلت ثقتها به الا من عصمها عقلها وشرفها . فلم ينضج التمدن فى العصر العباسى حتى تنوسيت المرأة العربية فى المدن ، وذهبت حريتها وغيرتها وصارت هى نفسها تهدى زوجها الجارية وتحبب اليه القرب منها ، لا يهمها ذلك ولا تغار منه (١) وبعد أن كان العرب فى الجاهلية وصدر الاسلام اذا علموا بحب رجل فتاة منعه من زواجها صاروا يساعدونه فى الحصول عليها (٢)

فأفضى ذلك الى انحطاط المرأة وذهاب عزة نفسها واستقلال فكرها ، فاحتقرها الرجل وأساء الظن بها وصار يعدها عدوة له ويوصى بعدم الاركان اليها ، فيعاشرها على غل وسوء رأى ، يقفل عليها الابواب والنوافذ ، ويسد فى وجهها الطرق والمسالك ، ويمنعها من الخروج أو الكلام ، وهو صاحب

(١) الفرج بعد الشدة ١٨٣ ج ٢

(٢) تزيين الاسواق ١٢٢

الذنب فى انحطاطها • فأصبح الطعن فى طباع المرأة وسوء سريرتها شائعا على ألسنة الناس ، حتى ألفوا فيه الروايات والاقاصيص ونظموا الشعر ، وتفننوا فى وضع الجمل الحكيمى والعبارات البليغة فى تحذير الناس من المرأة وعدم الوثوق بها • وهذه هى قصة ألف ليلة وليلة تمثل حال المرأة فى العصر الاسلامى الوسطى ، بعد شيوع التسرى وانغماس المسلمين فى الترف • وأما الأشعار فإليك ما قاله أبو العلاء المعرى :

إذا بلغ الوليد لديك عشرا فلا يدخل على الحرم الوليد
وان خالفتنى وأضعت نصحى فأنت، وان رزقت حجى ، بايد
ألا ان النساء جبال غى بهن يضيع الشرف التليد^(١)

وأصبح الكاتب اذا أراد تعزية صديق على فقدنت له قال ما قاله أبوبكر الخوارزمى ، أذ كتب الى رئيس بهراه يعزيه فى بنته وهو قوله :

« ولولا ما ذكرته من سترها ووقفت عليه من غرائب أمرها ، لكنت الى التهنتة أقرب من التعزية • فان ستر العورات من الحسنات ، ودفن البنات من المكرمات ، ونحن فى زمان اذا قدم أحدنا فيه الحرمة فقد استكمل النعمة ، واذا زف كريمة الى القبر ، فقد بلغ أمنيته من الصهر ، قال الشاعر :

ولم أر نعمة شملت كريما كنعمة عورة سترت بقبر
وقال آخر :

تهوى حياتى وأهوى موتها شفقاً والموت أكرم نزال على الحرم
وقال آخر :

وددت بنيتى وودت أنى وضعت بنيتى فى لحد قبر
وقال آخر :

ومن غاية المجد والمكرمات بقاء البنين وموت البنات
وقال آخر :

سميتها اذ ولدت تموت والقبر صهر ضامن وبيت^(٢)

هذا مثال من آراء أدباء المسلمين وشعرائهم فى المرأة بين القرنين الرابع والخامس للهجرة

فلم يبق من المناقب العربية فى العصر العباسى الا السخاء ، لأنه كان لازماً لقوام الدولة وسلامتها وتأييدها ، بل هو كان من أهم قواعد الارتزاق فى ذلك العصر

(١) ألف باء ٧٧ ج ٢

(٢) رسائل الخوارزمى ٢٠

الارتزاق بالسخاء

ان الارتزاق فى التمدن الحديث مبنى على قواعد اقتصادية عمرانية تحفظ توازن القوى ونتائجها ، فينال الانسان من رزقه على مقدار كده وجده مع اعتبار درجة عقله وذكاؤه ، سواء كان ذلك بالتجارة أو الزراعة أو الصناعة أو غيرها . وقد وضعوا لكل من أبواب الرزق قواعد فى تقدير الارباح لاتتعداها الا فى أحوال خاصة ترتفع فيها الأسعار فجأة كما حدث بمصر لهذا العهد (حوالى ١٩١٠) . وعلى أى حال فالصانع تقدر أجرته بمقدار عمله ، والتاجر يقدر ربحه بنسبة رأس ماله

أما فى التمدن الاسلامى فقد كان الارتزاق يقرب من ذلك فى طبقة العامة من المزارعين والباعة وأهل الصناعات . وأما فى الخاصة وأتباعهم فكان على أسلوب آخر لا مثيل له بين المتمدنين فى هذا العصر ، ومداره « السخاء » المتسلسل من الخلفاء فالوزراء فمن بعدهم ممن يعيشون حول البلاط ويرتزقون من رجال الدولة . ومصدر هذه الارتزاق بيت المال ، وهو فى قبضة الخليفة أو من يقوم مقامه من الوزراء أو القواد أو الامراء على حسب أطوار النفوذ . والأموال تأتى بيت المال من جباية الخراج والجزية . وقد رأيت فى الجزء الثانى من هذا الكتاب أن متوسط جباية الدولة فى العصر العباسى الأول بلغ نحو ٣٦٠ مليون درهم فى العام ، لا ينفق منها على مصالح الدولة أكثر من ٥٠ مليونا ، فالباقي ٣٠٠.٠٠٠.٠٠٠ درهم تبقى فى بيت المال تحت تصرف الخليفة ، وأكثرها من جباية الخراج . وكان الخراج فى العصر المذكور ثقيلا ، لأنهم كانوا يقاسمون الناس غلاتهم بالنصف أو الثلث ، وذلك فى نظر أهل هذا الزمان ظلم ، ولكن أهل ذلك العصر لم يشعروا بثقله بل كانوا يعدونه رفقا ، لأن العباسيين نقلوا للخراج من المساحة الى المقاسمة ، فبعد أن كان الحكام قبلهم يقتضون خراج الأرض زرعت أم لم تزرع ، حصروا الخراج فى الأرض المزروعة وجعلوه شطرا من غلتها (١)

سنة العرب فى الارتزاق

والأموال التى تبقى فى خزانة الدولة يعطى بعضها رواتب لموظفيها ، ويفرق سائرهما فيمن بقى من الخاصة بين جوائز ورواتب ، فتتسع أحوالهم بالجاء أكثر منها بالمال ، فيضطرون الى الانفاق لحفظ مقامهم . فينفقون على من يتعلق بهم ، فينتقل المال على هذه الصورة من الخليفة ووزرائه وعماله الى حواشيهم وأتباعهم ، ومن هؤلاء الى الباعة وأهل الأسواق فيعود الى

السامة كأنه لم يؤخذ منهم • وهى سنة فى الارتزاق تظهر لأول وهلة أنها من خصائص التمدن الإسلامى ، ولكنها كانت على نحو ذلك فى التمدن القديم • فأهل أثينا وهم خاصة اليونانيين كانوا لا يعملون عملا ولا يحترفون حرفة فى سبيل الرزق ، وإنما كانت أرزاقهم من خزانة الدولة يتناولونها رواتب فى أوقات معينة ، أو هبات فى أوقات غير معينة ، على مقتضيات الأحوال أو على ما يلحقهم من الغنائم ونحوها • ولم يكن لهم شغل غير سماع الخطب السياسية أو العلمية والتمشى فى حدائق المدينة وحضور الاحتفالات الرسمية ونحوها (١) ولكن ذلك كان محصورا فى أثينا أو غيرها من العواصم الكبرى • أما المسلمون فتوسعوا فيه حتى شمل كل مدينة وكل طبقة ، لتمتلك السخاء فى نفس العربى ، ولأن هذه السنة كانت شائعة عند العرب من أيام الجاهلية • فأمر القبيلة كان يغزو بقبيلته ، فما وقع له من مال وماشية فرقه فى كبار رجاله ، وهؤلاء يفرقونه فى أهلهم وأتباعهم ، ولذلك ذكروا من سنن العرب فى الارتزاق أنهم « نهابون وهابون » (٢) وكان العرب يكرهون اختزان الأموال ويعدون قبيحا (٣)

والسبب فى بقاء هذه السنة مع ذهاب غيرها من المناقب أنها لازمة لبقاء الدول فى تلك العصور ، وخصوصا فى الإسلام منذ طمع بنو أمية فى الخلافة واستخدموا الأموال فى ابتياع الأحزاب واسترضاء كبار الرجال ، فعودوا الناس العطاء • فلما قام العباسيون لم يستطيعوا الرجوع عنه ، بل تجاوزوه من بعض الوجوه ، فصار السخاء ضروريا لقيام الدولة والا فسد عليها حمايتها وتمرد أهلها

وكان الصحابة فى عصر الراشدين لا يرون اختزان المال ، جريا على سنة العرب أو عملا بحديث رواه قيس بن عاصم بهذا المعنى وهو قول النبى (صلعم) : « نعم المال الأربعة ، والأكثر الستون ، وويل لأصحاب المئين » (٤) ولذلك كان الخلفاء الراشدون لا يبقون فى بيت المال شيئا • على أن المسلمين فى أيامهم كانوا مشغولين بما بين أيديهم من الغنائم ، وكانوا لا يزالون فى دهشة النبوة والاخلاص فى الجهاد والخراج فى أيامهم معتدل فلم يكن يفيض منه شيء كثير ، فلما طمع الأمويون فى الملك اتخذوا كل وسيلة لجمع المال والاستكثار منه ، وزادوا أعطيات الجند ووهبوا وأجازوا ، وضاعفوا رواتب أبناء الصحابة وغيرهم من القرشيين أصحاب النفوذ ، فكان هؤلاء يتوسعون فى الانفاق ببناء القصور

(١) Library of Univ. Fst, 11,750.

(٢) ابن خلكان ١١٧ ج ٢

(٣) الاغانى ١٥٦ ج ١٢

(٤) الاغانى ١٥٢ ج ١٢

واقتناء الخدم والجواري ، ويهبون الشعراء والندماء والحاشية والاتباع فيذهب ذلك المال كما أتى

كذلك كان يفعل عبد الله بن عباس وعبد الله بن جعفر وسعيد بن العاص (١) فيقد أحدهم على معاوية أو يزيد فيؤدى له عطاءه ، وربما أهداه هدية سنوية ، فيعود الى بلده ويفرق المال جميعه في أهله وأعوانه (٢) وكان الخلفاء يعرفون ذلك ويعدون عطاءهم لهؤلاء عطاء لأهل المدينة (٣) وليس ذلك خاصا بفئة منهم بل كان شاملا الأكثرين ، حتى النساء من بنات الصحابة كسكينة بنت الحسين وعائشة بنت طلحة وغيرهما ، فكانت عائشة هذه تفد على الخليفة وربما كانت في ضيق ، فتشكو اليه فراغ يدها فيأمر لها بمائة ألف درهم مثلا ، فلما تعود الى الحجاز يأتيها الشاعر أو الفارس فتعطيه الألف بعد الألف حتى تستنفد ما جاءت به (٤) - حتى الشعراء كانوا يبذلون بعض جوائزهم فيمن حولهم ، ولذلك كانوا مع كثرة ما يصل الى أيديهم من المال لا يزالون مدينين ويموت أكثرهم فقراء (٥)

ولما أفضى الأمر الى العباسيين ساروا على هذه السنة في الاعطيات والجوائز ، وزادوا مقاديرها لتوفر الثروة في أيامهم . وكان أصحابهم يفرقونها في الناس ، فموسى الكاظم كان يقيم في المدينة ويفد على بغداد فيرده المهدي متقلا بالأموال ، فلما يصل الى المدينة يجعلها صررا يفرقها في أهلها (٦) وكانوا يفعلون ذلك مع العمال والكتاب والشعراء والمغنين ، وهؤلاء يتفقون المال بالسخاء على تفاوت في درجاته وسائر أحواله . وربما أنفقوا بعضه في حاشية الخليفة أو غلمانة (٧) ليسهلوا لهم الدخول عليه

استرضاء العامة بالطعام

فكان الخلفاء أو الامراء يعدون السخاء على العامة والخاصة فرضا يؤيدون به سلطتهم . أما العامة فكانوا يسترضونهم بأبسط أساليب السخاء وهو الضيافة ، فكانوا ينصبون لهم الموائد يدعونهم الى الطعام ، فيجتمع على مائدة الأمير ألوف من العامة يأكلون معا صباحا ومساء . ذلك كان دأبهم من عصر الراشدين ، جروا به على سنة العرب ثم احتاجوا اليه بعد الاسلام في استرضاء القبائل المختلفة ، فبالغوا فيه حتى نصبوا الموائد على الطرق ، وأول من فعل

(١) العقد الفريد ٨٥ ج ١

(٢) المسعودي ١١١ ج ٢

(٣) العقد الفريد ١١٠ ج ١

(٤) الأغاني ٦١ ج ١٠

(٥) الأغاني ١٧٠ ج ٥ و ١٥٦ ج ١٧

(٦) ابن خلكان ١٣١ ج ٢

(٧) الأغاني ٨٤ ج ٥ و ٤٦ ج ٣ و ١١ ج ١٢

ذلك عبيد الله بن عباس (١) واشتهر في صدر الاسلام غير واحد من الاجواد ممن كانوا يقبضون الاعطية الكبيرة من خلفاء بنى أمية فينفقونها في البذل والسخاء ، وقد تقدم ذكر بعضهم

وجرى الدهاة من عمال الأمويين على هذه السنة، فنصبوا الموائد على الطرق، فكان الحجاج يضع في كل يوم من أيام رمضان ألف خوان ، وفي سائر الايام خمسمائة خوان ، على كل خوان عشرة أنفس وعشرة ألوان وسمكة مشوية طرية وأرزة بسكر . وكان يدور هو بنفسه على الموائد يتفقدوها ، يحملونه اليها في محفة وينتقلون به من خوان الى خوان ، فاذا رأى أرزة ليس عليها سكر أمر الخباز أن يجيء بسكرها ، فاذا أبطأ حتى أكلت الأرزة بلا سكر أمر به فضرب ٢٠٠ سوط . وكذلك كان يفعل عمال الحجاج في سائر المدن ، فكان بعضهم ينصب الموائد مرتين في اليوم للغداء والعشاء (٢) وكان يوسف ابن عمر عامل هشام بن عبد الملك ينصب خمسمائة خوان (٣) وكان يزيد بن هبيرة يضع ألف خوان يطعم الناس (٤) وقس على ذلك سائر العمال وغيرهم كابن طولون بمصر ، فقد كانت له موائد يحضرها الخاص والعام (٥) وربما فرقوا الطعام بلا موائد كما كان يفعل لؤلؤ الحاجب في أيام الفاطميين بمصر ، فانه كان يفرق ١٢٠٠ رغيف مع قدر الطعام كل يوم ، واذا دخل رمضان أضعف ذلك ويقف هو بنفسه ليفرقه (٦) هذا غير ما كانوا ييذلونه في استرضاء العامة من الأموال على سبيل الصدقة ، فكان لكل من الخلفاء والأمراء والوزراء مال ينفقه صدقة كل يوم ، على ما قدمناه في الجزء الثاني من الكتاب، وربما فعل بعضهم ذلك لمجرد الرغبة في الأجر أو عملا بمقتضى الأريحية

واطعام العامة على هذه الصورة لم يكن خاصا بالمسلمين ، وانما هو أيضا من سنن العصر الغابرة . فقد كان العامة في رومية يعيشون من أطعمة يفرقها فيهم أهل الدولة من الدقيق واللحم ، وكان بعض ملوك الفرس ينصب ٥٠٠ مائدة يجعل على كل واحدة نصف شاة وجام حلوى أو عسل وعشرة أرغفة وآنية شراب أو لبن وسمكة مصنوعة (٧) والمسلمون جروا على هذا الترتيب افتداء بالفرس ، مثل اقتنائهم بهم في كثير من آدابهم الاجتماعية

وأما الخاصة أو من جرى مجراهم من المقربين غير الموظفين فكان الخلفاء يهبونهم

-
- (١) المقد الفريد ٨٣ ج ١
 - (٢) المقد الفريد ٦ ج ٢ وابن خلكان ٨٢ ج ١
 - (٣) المقد الفريد ٦ ج ٣
 - (٤) ابن خلكان ٢٧١ ج ٢
 - (٥) ابن خلكان ٥٥ ج ١
 - (٦) القريزي ٨٥ ج ١
 - (٧) ترتيب الدول ١٢٠

الهباء أو يعينون لهم الرواتب لتقييد ارادتهم (١) كما تقدم ، ولذلك كان أهل الأنفة يكرهون صلات الخلفاء ويعدون عن جوائزهم رغبة في الاستقلال ، وأكثر ما يقع ذلك لأهل البادية الذين لم تذلم الحضارة ، ولا سيما بعد نكبة البرامكة ، فقد طال حديث الناس يومئذ بأمرهم وغلب على اعتقادهم أن من يثري من هبات الخلفاء تكون حياته في خطر - ذكروا بدويا عيرته امرأته بفقره لبعده عن جوائز الخلفاء الى أن قالت : « هذا فلان قد أخذ الأموال فحلى نساءه وبنى داره واشترى ضبعا ، وأنت ههنا كما ترى .. » وكانت امرأته باهلية فأنشأ يقول :

تلوم على ترك الغنى باهلية	ذوى الفقر عنها كل طرف وتالد
رأت حولها النسوان يرفلن في الثرا	مقلدة أعناقها بالقلائد
أسرك أنى نلت ما نال جعفر	من العيش أو مانال يحيى بن خالد؟
وأن أمير المؤمنين أغصنى	بغصهما بالمشرفات النوارد ؟
رأيت رفيعات الأمور مشوبة	بمستودعات فى بطون الأساود
دعبنى تجيء منيتى مطمئنة	ولم أتجشم هول تلك الموارد (٢)

الهباء والدين

على أن الفقهاء وأهل التقوى كانوا فى صدر الاسلام وأوائل دولة بنى أمية يعدون صلات الخلفاء رشوة ويترددون فى قبولها ، فما لبثوا أن ذاقوا حلاوتها حتى صاروا يتفاخرون بنيلها . قال ذو الرمة :

وما كان مالى من تراث ورثته	ولا دية كانت ولا كسب مأنم
ولكن عطاء الله من كل رحلة	الى كل محجوب السراقد خضم (٣)

ثم صاروا يتزلفون الى أصحاب الأموال ويستجدونهم رغبة فى الارتزاق . فبعضهم ينال رزقه صلة أو جائزة ، وآخرون يقبضونه راتباً معيناً ، وهؤلاء على الغالب من أهل البأساء وأيتامهم وأراملهم (٤) أو زعماء القبائل ورؤساء الأحزاب على ما يوافق مصلحة الخليفة والأمير أو يتوسم فيه الأجر والثواب . فكان بعضهم يفرض الفروض لأولاد الأنصار والمهاجرين، وغيره يعطى العلويين أو الطالبيين ، وغيره يعطى قريشاً أو اليمن ، وقس عليه . فكان ابن عيسى وزير المقتدر يعطى الطالبيين والعباسيين وأبناء الأنصار (٥) وكان ابن الفرات

(١) الاغانى ١٥٤ ج ١٧

(٢) الاغانى ٩ ج ١٢

(٣) المقدم الفريد ٨٧ ج ١

(٤) ابن الاثير ١٥٤ ج ٦

(٥) تاريخ الوزراء ٣٢٣

يعطى الفقهاء والعلماء والفقراء وأهل البيوتات ، أكثرهم مائة دينار في الشهر وأقلهم خمسة دراهم وما بين ذلك (١) وكان لكافور الاخشيدي بمصر مال خاص يجرى منه الارزاق على من يأتيه ناقما على الخليفة ببغداد أو غيره (٢)

ولهذه الأسباب كان الخلفاء يستحلون أجازة الشعراء وغيرهم من بيت المال ، لأنهم يعدون ذلك في سبيل مصلحة الدولة وان لم يصرحوا به دفاعا عن أنفسهم ، بل كانوا اذا سمعوا الانتقاد عليهم من أهل النفوذ الديني سكتوا واسترضوهم ودافعوا عن أنفسهم ، كما فعل الرشيد والمهدي بسفيان الثوري (٣)

ارتزاق الكبير من الصغير

ذلك ما يقال في ارتزاق الصغير من الكبير في التمدن الاسلامي، أما ارتزاق الكبير من الصغير فقد كان بعضه بالسخاء أيضا ولكن على سبيل الهدية ، فيعدون عطية الأمير الى الصغير جائزة أو صلة ، ويسمون ما يقدمه الأصاغر الى الأمير والوزير هدية . وكانت الهدايا شائعة على الخصوص في العصر العباسي ، فاذا تولى الأمير على بلد فأول ما يدخلها يبعث أهلها اليه بالهدايا من الاموال والجواري والدواب والثياب (٤) وهو يبعث الى الوزير الذي ولاه أو الخليفة بالاموال بسبيل الهدية أيضا ، واذا طال مقامه أصبحت تلك الهدايا فرضا واجبا يبعث بها كل سنة ، فاذا أمسكها سنة عدوا امساكه تمردا (٥) فالسخاء كان سنة عامة في عهد ذلك التمدن ، لا يستثنى عنه عصر أو طائفة وان تفاوتت مقاديره واختلفت صورته وأشكاله باختلاف العصور . فكانت العطايا في أول عهد الأمويين الابل والحيل والماشية ، فيأمر الخليفة أو الأمير لمن يستجديه بلقحة وفحلها وراعيها ، أو جارية وفرس ، غير ما فرضوه من الاعطيات فانها كانت تعطى عينا أو ورقا . ثم صارت في أواسط الدولة نخوت الثياب من الوشي ونحوه والوصائف فضلا عن النقود ، وصارت في بني العباس البدر من الدنانير وعقود الجواهر ونخوت الديبقي والقصور والضيايع وغيرها

المجاملة في المعاملة

المجاملة من الطباع الراسخة في نفوس العرب . وذهب بعض الباحثين الى أنها فطرية في أصل أرومتهم ، وما هي كذلك وانما تولدت فيهم بتوالي

(١) ابن خلكان ٣٧٢ ج ١

(٢) الفرج بعد الشدة ١٤٢١ ج ٢

(٣) سراج الملوك ٥٦ وراجع الجزء الثاني من هذا الكتاب

(٤) ابن الاثير ٥١ ج ٦

(٥) ابن الاثير ١٢١ ج ٧

الاجيال وتقلب الأحوال • لأن العرب كانوا مفطورين على استقلال الفكر وحرية الرأي كما رأيت ، وظلوا على ذلك الى انقضاء عصر الراشدين ، ثم أخذت أفكارهم في الانحباس وعقولهم في التقيد من عصر الأمويين ، لما اقتضاه طمع بنى أمية في الملك من الشدة والحيلة ، فاضطر الناس للمداجة والتمويه • وكان الخلفاء من الجهة الأخرى يداجون الناس ويجاملونهم ، رغبة في نصرتهم أو قطع ألسنتهم ويعدون ذلك « حلما »

وأشهر الحلما وأقدمهم معاوية بن أبي سفيان ، فقد ذكرنا في الجزء الرابع أنه كان يسمع طعن أهل البيت وغيرهم من رؤساء الأحزاب فيه وفي دولته ويفضى ، وربما أحسن الى الطاعنين أو تظاهر بالاستخفاف ، كما فعل بشعبة ابن غريص • وكان في الكعبة ومعاوية هناك ، فبعث يدعو فأتاه رسوله فقال : « أجب أمير المؤمنين »

قال : « أو ليس قد مات أمير المؤمنين ؟ » (يعنى عليا) فقال له : « أجب معاوية » • فأتاه ولم يسلم عليه بالخلافة ، فقال له معاوية : « ما فعلت أرضك التى بتيما ؟ » قال : « يكسى منها العارى ويرد فضلها على الجار » قال : « أتبيعها ؟ » قال : « نعم » قال : « بكم ؟ » قال : « بستين ألف دينار ، ولولا خلة أصابت الحى لم أبعها » قال : « لقد أغليت » قال : « أما لو كانت لبعض أصحابك لأخذتها بستمئة ألف دينار ثم لم تبال » قال : « أجل • واذا بخلت بأرضك فأنشدنى شعر أبيك يرثى نفسه »

فأنشده تلك الأبيات فأعجب بها معاوية وقال : « أنا كنت بهذا الشعر أولى من أبيك » قال : « كذبت ولؤمت ! » قال : « أما كذبت فنعم ، وأما لؤمت فلم ؟ » قال : « لأنك كنت ميت الحق فى الجاهلية وميته فى الاسلام • أما فى الجاهلية فقاتلت النبى صلى الله عليه وسلم والوحى حتى جعل الله كيدك المردود ، وأما فى الاسلام فمُنعت ولدرسول الله الخلافة ، وما أنت وهى أنت طليق ابن طليق ؟ » فقال معاوية : « قد خرف الشيخ فأقيموه » فأخذ بيده فأقيم

وكان معاوية اذا أعجزه اصطناع الأحزاب بالعطاء أو بالحلم أو بالسيف جهارا عمدا الى قتلهم غيلة ، وكان أنصاره يعرفون ذلك فيه وأنه يصانهم ليغلب بهم ، فكانوا يصانعون طمعا فى مال أو منصب ، فكانت المصانعة والمداجة أساس سياسة معاوية • وقد قواهما واستثمرهما بدعائيه وحزمه ففاز ، وتحدث المسلمون بحلمه وسعة صدره وجعلوه قدوتهم ، والناس على دين ملوكهم • فكثر الميل الى المصانعة فى ذلك العصر ، وهى على الغالب بين الدولة ورجالها — على أن الأريحية كانت تحول دون تمكنها

فلما قام الفرس لمناهضة الأمويين ونصرة العباسيين أغضى أبو مسلم عن الولفاء والأريحية وقتل على التهمة ، فأصبح الناس يخافون على حياتهم وإن لم يقتربوا ذنباً ، فزادت حاجتهم الى المصانعة . ولما فاز أبو مسلم بحزبه وسلم مقاليد الدولة الى العباسيين ، كانت فوضى بينهم وبين العلويين . فلما تقلدها المنصور وطمع في استخلاصها للعباسيين ، فتك بأبى مسلم ثم قتل من قتله من العلويين ، وهم لا يستغنون عن الفرس لنظام حكومتهم وحماية دولتهم ، فاستخدموهم على غل ولجأوا في الاحتراس منهم واتقاء أذاهم الى الجاسوسية ، فبثوا الارصاد على وزرائهم وعمالهم ، يستطلعون أخبارهم ويبعثون بها اليهم سرا . والأرصاد نوعان : الأول أصحاب البريد في الأطراف والعمال يعلمون أنهم رقباء على أعمالهم ، والثاني العيون الخفية يتخذونهم من الجوارى والغلمان مما يقدمه الخليفة هدية الى وزيره أو عامله ، فيوليهم الوزير بعض شؤون منزله فيدخلون في جملة الندماء أو المغنين أو القيان أو أصحاب الشراب ، ويكونون رقباء عليه ينقلون أخباره سرا الى الخليفة . وكان الوزراء يفعلون نحو ذلك بالخلفاء

فشبوع الجاسوسية على هذه الصورة مع المضاغنة والتحاسد بعث على المصانعة والمجاملة ، وازداد ذلك على الخصوص بعد ذهاب الأريحية وزوال الأنفة وعزة النفس من العرب ، على أثر تضعضع العنصر العربى وتغلب العناصر الأعجمية مع تنافس أصحاب المطامع من هؤلاء فى أواسط الدولة العباسية بابتزاز الأموال . واعتبر ما عقب ذلك من الاستبداد والظلم بعد أن فسدت الأحكام فى الدول الإسلامية واستبد السلاطين والأمراء غير العرب بمن أقام فى ممالكهم من أهل اللسان العربى ، ويسمونهم عربا وهم أخلاط من مولدى الأمم الأخرى . فلجأ هؤلاء بطبيعة العمران الى المجاملة والمصانعة على نحو ما هو حالهم اليوم - الا الذين أوتوا السيادة وتوفرت لهم السطوة ونفذ الكلمة أجيالا متوالية

العائلة فى التمدن الإسلامى

كانت العائلة فى أواسط التمدن الإسلامى نحو ما هى عليه اليوم، وقوامها المرأة وقد تقدم الكلام عليها ، فلا تطيل القول فى ذلك الآن وإنما نقول كلمة فى بعض خصائص العائلة الإسلامية ، كالحجاب وتعدد الزوجات والطلاق

١ - الحجاب

إذا كان المراد بالحجاب ستر العورة كالخمار ونحوه فهو ليس من محدثات الإسلام ، بل هو قديم كان شائعاً قبل النصرانية ولم تغير النصرانية شيئاً

منه ، وظل معروفا في أوروبا الى العصور الوسطى وما بعدها ، ولا تزال آثاره باقية في أوروبا الى الآن

واذا أريد به حبس المرأة في بيتها ومنعها من مخالطة الناس فهو من ثمار التمدن الاسلامي ، لأنه لم يكن شائعا قبله . على أنه لم يبلغ الحد الذي بلغ اليه من الشدة والدقة ، الا بعد نضج المدنية وتمكن الحضارة من نفوس المسلمين واركانهم الى الترف والرخاء . وقد رأيت في كلامنا عن المرأة البدوية أنها كانت مساوية للرجل حتى نبغ من مضارب البادية نساء اشتهرن بالشجاعة والاقدام والحزم والرأى والتجارة والأدب والشعر وغيرها . فلما انتشر الاسلام وكثرت الجوارى وشاع التسرى في المسلمين اختلفت الظنون بين الرجل والمرأة ، فقلت غيرته عليها وأساء كل منهما الظن في صاحبه ، والرجل صاحب العصبة ورب العائلة فضيق على المرأة الدروب وأقام عليها الأرصاد والعيون من أوائل الدولة الاموية ، اذ اتخذوا الحصيان من العبيد ثم استقدموا الصقالبة البيض

فالحجاب الضيق على نحو ما شاع بين العائلات الاسلامية في الشرق سببه سوء ظن الرجل واستبداده بأهل بيته واستثثاره بالملذات لنفسه ، وليس هو من مقتضيات الاسلام كما يتبادر الى الأذهان . ولو راجعت ما جاء في القرآن الكريم من هذا القبيل لرأيت تفسيره أقرب الى ما يراد من رفع الحجاب (﴿﴾ . ولكن الناس تعودوا أن يفسروا الآيات القرآنية بما يوافق عاداتهم أو أغراضهم أو أميالهم . اعتبر ذلك في كل دين تمدن أهله وعمدوا الى تفسير كتبه ، فكتب النصارى مثالا ليس فيها نص صريح يمنع عامتهم من التزوج بامراتين فأكثر ، ولكن الكنيسة رأت أن الاقتصار على امرأة أقرب الى سعادة العائلة ونظام الاجتماع ، فاستخرج رؤساء الدين ذلك من بعض القرائن بالتفسير والتأويل . والمسلمون لما استكثروا من الجوارى وساءت الظنون بينهم وبين نسائهم أرادوا الحجر عليهن ، ولم يعمدوا تفسيراً يساعدهم على ما أرادوا فحبسوهن وضيقوا عليهن . واعتقدت المرأة بتوالى الأجيال أنه يحل للرجل ما لا يحل لها ، فصبرت عليه وخافته ولكنها لم تحبه . فخافها وحبسها وجعل بينه وبينها حاجزا ، وغادرها تجالس الخدم والعبيد ، وأصبح لا يؤاكلها ولا يجالسها ولا يحدثها الا نادرا ، وأعلن ارتيابه في أمانتها وأصبح يفتخر بأنها لا تخرج من منزلها الا الى القبر

على أن ظلم المرأة على هذه الصورة واحتقارها مخالف لتعاليم القرآن ، لأنه

(﴿﴾ كتب المؤلف هذا الجزء في عصر كان الحجاب فيه مضروبا على المرأة ، وكان زعماء النهضة الفكرية والاجتماعية يدمون الى السفور ويطالبون بحرية المرأة كما نرى في دعوة قاسم أمين . وكان جرجي زيدان من قادة الفكر في العالم العربي اذ ذاك ، وهو يبسط في هذا الفصل رأيه في تحرير المرأة ويؤيد دعوة قاسم أمين وأنصاره من التقدميين

يأمر بالمودة والرحمة بين الزوجين ، وهذا نص الآية « ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة » وقوله « ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف » وقوله « وعاشروهن بالمعروف » ، ولكن الرجل أبى إلا الاستبداد والاستئثار ولا سيما بعد انقضاء عصر العلم ، إذ اقتصر الفقهاء على النظر في الأبحاث الدينية الجديدة ، وخيم الجهل على العقول كما أصاب النصرانية في الأجيال المظلمة ، فأخذوا يفسرون الآيات والأحاديث على ما يوافق ميولهم وأهواءهم . وكانت الأحكام قد فسدت واستبد الحكماء في الناس فعادت عاقبة ذلك على المرأة المسكينة

لأن الرجل في طور الظلم يتحمل بطش الحاكم وعسفه ويكظم ما في نفسه ، حتى إذا جاء منزله عامل أهله مثل معاملة الحاكم له انتقاما لنفسه . . تلك سنة من سنن العمران على اختلاف أطوار التمدن . فالبلاد التي يتولاها حاكم ظالم يقتدى به أرباب العائلات بظلم نسائهم وأولادهم ، وأما في الحكم العادل فالمرأة تنال حقوقها والرجل يعدل في حكومته . فالبيت دولة صغيرة تمثل دولة الأمة

وما زالت المرأة المسلمة في نحو ما تقدم الى أوائل هذه النهضة والمسلمون سكوت ، حتى تصدى بعض أرباب الأقلام من المسلمين في أواسط القرن الماضي ونددوا بالحجاب وعواقبه وحرصوا اخوانهم على تركه . وأقدم من فعل ذلك على ما نعلم المرحوم الشيخ أحمد فارس الشدياق فكتب الفصول الإضافية في « الجوائب » بالاستئذان ثم كتب غيره فصولا لا تشفى غليلا . حتى ظهر كتاب تحرير المرأة في آخر القرن المذكور لصاحبه قاسم بك أمين فوفى الموضوع حقه ولم يترك مجالا لسائل

٢ - تعدد الزوجات

ومن آفات العائلة الإسلامية تعدد الزوجات ، وهي أن يتخذ الرجل زوجتين الى أربع ، والشرع الاسلامي يجيز له ذلك بشرط اذا روعى حق مراعاته لم يتخذ الرجل الا زوجة واحدة . لأن الآية التي تجيز تعدد الزوجات تشترط أن يعدل الرجل بينهما فإذا خاف ألا يعدل فيقتصر على واحدة ، وهذا نص الآية « فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع فان خفتم ألا تعدلوا فواحدة » وفي محل آخر « ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم فلا تميلوا كل ميل فتذروها كالمعلقة » فإذا جمعت بين الايتين رأيت فجواهما اقرب الى النهي عن تعدد الزوجات منه الى الأمر به . ولذلك رأيت الغالب في العقلاء وأهل المروءة أن يكتفوا بزوجة واحدة . وكان ذلك سهلا في عصر التسري ، إذ قد يأتي النسل من بعض الجوارى فلا يجسد الرجل ضرورة الى

الزواج ثانية أو ثالثة اكتفاء بجواريه ومن يأتينه بما يشتهي من النسل .
على أن تعدد الزوجات ظل متبعاً حتى في أهل الفضيلة والعقل الى اليوم ولكن
على قلة . واذا أحصى المتزوجون بأكثر من امرأة لا نظنهم يزيدون على خمسة
في المائة أو عشرة من مجموع المتزوجين ، وهم في الغالب من العامة وإذا كانوا
من الخاصة فإنما فعلوا ذلك لأسباب قهرية

ومن أجاز تعدد الزوجات ذهب الى تفسير « العدل » بالعدل في النفقة لا في
المحبة ، على أن كثيرين من أهل الوجاهة والشرف في العصور الإسلامية
الوسطى كانوا يجمعون بين التسرى وتعدد الأزواج ، والغالب أن تكون السيادة
للمرأة الأولى وإن اختلف ذلك باختلاف الأحوال - ولكن المرأة العاقلة التقية
كانت تعد اهداء زوجها ما يرضاه من الجوارى الحسان فضيلة ، كما فعلت أم
جعفر بالرشيد لتشغله عن الجارية دنانير

وقد تساعد المرأة التقية زوجها على الزواج بامرأة أخرى تتوقع من مسعاها
في ذلك ثواباً - روى الشيخ الجبرتي المؤرخ المصري عن إحدى أزواج أبيه قال
إنها كانت من الصالحات المصونات وكانت بارة بزوجها ومطبعة له ، ومن
جملة برها له أنها كانت تشتري له من السراري الحسان من مالها وتنظمن
بالحلى والملايس وتقدمهن اليه وتعتقد حصول الأجر والثواب لها بذلك ، وكان
ينزوج عليها كثيراً من الحرائر فلا يسوؤها فعله ولا يحصل عندها ما يحصل
عند النساء من الغيرة (١)

٣ - الطلاق

ويقال عن الطلاق ما يقال عن تعدد الزوجات ، فالعقلاء يذهبون الى كره
الطلاق بناء على بعض الآيات الواردة في هذا الشأن كقوله تعالى « وان خفتم
شقاق بينهما فابعثوا حكماً من أهله وحكماً من أهلها إن يريدوا اصلاحاً يوفق
الله بينهما » وقوله « فان كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً
كثيراً » وفي الحديث « أبغض الحلال عند الله الطلاق » ، ومع ذلك كان بعض
كبار الصحابة يكثرون منه أكثر ما مدهشاً ، كما فعل الحسن بن علي بن أبي
طالب فإنه تزوج ٢٥٠ امرأة وقيل ٣٠٠ ، وكان أبوه يضجر من ذلك ويكرهه
حياء من أهليهن ، وكان يقول في خطبه : « ان حسناً مطلقاً فلا تزوجه » .
ويليه المغيرة بن شعبه فقد تزوج نحو هذا العدد (٢) على أن الطلاق ما زال
مكروهاً كما رأيت من كلام الامام علي . وأهل الانفة والفضل لا يطلقون الا لعلّة

(١) الجبرتي ١٨٢ ج ٣

(٢) الف باء ٢٤٨ و ٢٤٩ ج ٢

كبيرة أو عذر شرعى • ولو أحصيت حوادث الطلاق لرأيت أكثرها فى طبقات العامة

ومما ساعد على تكاثر حوادث الطلاق المبالغة فى الحجاب ، فيتنزوج الشاب الفتاة وهو لم ير وجهها فإذا لم توافقه هان عليه طلاقها ، لأنه لم يرض الزواج على هذا الشرط الا لعلمه بسهولة التخلص من زوجته اذا لم تعجبه • وهذا التضيق ليس من الدين فى شيء ، لورود عدة أحاديث تجيز للرجل أن يرى خطيبته قبل الزواج ، وأحاديث تأمر برؤيتها صريحا (١) فلو عملوا بذلك لقلت البواعث على الطلاق • على أن للطلاق فى بعض الاحوال فوائد اجتماعية حرمت منها الطوائف التى لا طلاق عندها

المعيشة العائلية

١ - الطعام

كان طعام العرب قبل الاسلام قاصرا على الالبان وما يستخرج منها كالسمن والزبد والجبن ، ومن التمر والحبوب واللحوم يأكلونها على أبسط ما يكون من أحوالها كما يفعل أهل البادية اليوم ، وأكثر ألبانهم ولحومهم من الابل ، وقد يصنعون منها أطعمة تتركب على نسب معينة كالشريد فانه يصنع من اللحم واللبن والخبز . ومنها ما يصنع من اللبن والدقيق فقط كالرغيدة والرهيدة والعصيدة ، أو يصنع من السمن والدقيق كالبكالة أو من الدقيق والعسل والسمن كالوضيعة ، ولهم من أمثال هذه الأطعمة نحو أربعين لونا

ذلك هو طعام أهل اليسار منهم وأصحاب الضيافة، وأما الفقراء فقلما يأكلون لحم الابل أو الضأن ، وانما كانوا يقتاتون بلحم الضب أو بالجراد ، واذا جاعوا أكلوا العلهز وهو وبر الابل يمهونه بالحجارة فى الدم فيطحنونه ، وكان حال القرشيين قريبا من ذلك (١) وربما أكلوا القرامنة ونحاتة القرون والأظلاف والمناسب من برادتها ، أو القررة وهى الدقيق المختلط بالشعر . وكانوا اذا عطشوا ولم يجدوا ماء ، شربوا الفظ وهو عصارة الفرت أو المجدوح وهو مصل دم الابل (٢)

فلما جاء الاسلام وافتتحوا العراق وفارس ومصر دهشوا لما شاهدوه من حضارة الروم والفرس ، ووقعوا على ألوان من الأطعمة لم يعرفوها ، فأشكل عليهم أمرها وظفر بعضهم بجراب فيه كافور فأحضره الى أصحابه فظنوه ملحا، فطبخوا طعاما ووضعوه فيه فلم يجدوا له طعما ولم يعلموا ماهو ، فرآه رجل عرف مافيه فاشتراه منهم بقميص خلق يساوى درهمين (٣) ورأى بعضهم الخبز الرقاق فظنه رقاعا يكتب عليها (٤) وشاهدوا الأرز فظنوه طعاما مسموما (٥) ثم مالبتوا أن أقاموا بين أولئك الاقوام حتى تعرفوا ماكلهم ولاسيما الفرس ، فأخذوها عنهم كما أخذوا أكثر مبادئ الحضارة وكثيرا من العادات والآداب ، وليس فى الشرع الاسلامى ما يمنع تمتعهم بالطيبات من الأطعمة الا ما جاء النص بتحريمه

(١) ابن خلدون ١٧٠ ج ١

(٢) كتاب البخلاء ١٨٣

(٣) النخري ٧٤

(٤) ابن خلدون ١٤٤ ج ١

(٥) الهمداني ١٨٨

فأخذوا بأطراف الحضارة من أيام بنى أمية ، وأول من قلد الأعاجم بأسباب الترف معاوية ، فتنعم بمأكله ومشربه (١) واقتدى به خلفاؤه وسائر الناس ، ولا سيما بعد أن كثرت الأموال بين أيديهم فأكلوا السكباج ، وهو نوع من المرق كانوا يصنعونه من مرق اللحم والنخل ، ويضعون فيه اللحوم المطبوخة كالدراج ونحوه ، وكانوا يسمونه سيد المرق . والفالوذج وهو نوع من الحلوى ، وكذلك اللوزينج يحشى باللوز والسكر ، والجوزاب والخشاف والجلاب وغيرها ، وتفننوا في معالجة اللحوم باللبان والخضار والتوابل على أساليب شتى

٢ - اللباس

لباس العرب الجاهلية

ولباس العرب كان بسيطا مثل طعامهم وسائر طرق معاشهم ، ولا يزال حتى الآن في عرب البادية نحو ماكان عليه قبل الاسلام ، وهو عبارة عن القميص والحلة والازار والشملة والعباءة والعمامة ، ولم يكن العرب في جاهليتهم يعرفون السراويل ولا الاقمية (٢) وانما هي فارسية ، وكذلك النعال والحفاف ، ولكن بعض الخاصة كان يلبسها . وكانوا يعلقون سيوفهم على عواتقهم ، وثيابهم على الاجمال قصيرة الى أسفل الركب (٣)

وأفضل مثال للباس العرب لباس النبي (صلعم) فقد ذكروا أن أحب اللباس اليه البرود (٤) والبياض والخبرة ، وهي ضرب من البرود فيه حمرة ، وكان كمه قصيرا الى الرسغ ، يلبس أحيانا حلة حمراء وازارا ورداء ، والازار قصير الى أسفل الركبة ، ولبس الخف والنعل (٤) وقد نهى عن الثوب الطويل الذي يجزر على الارض من الخلاء ، ومن أقواله : « فضل الازار في النار » (٥) ولم يكن العرب يعرفون من الأنسجة غير القطن والصوف

على أن الذين كانوا يفدون على الشام والعراق من اغنيائهم لتجارة أو زيارة كانوا يقلدون أهلها بملابسهم الفاخرة ، فمن فعل ذلك اشتهر ذكره بين القبائل ولاسيما في أوائل الاسلام . ومن الماثور عندهم أن أول من لبس الخز الادكن من العرب عبد الله بن عامر ، وأول من لبس الدرايع السود (٦)

(١) الديمري ٥٥ ج ١

(٢) البيان والتبيين ٥٣ ج ٢

(٣) سراج الملوك

(٤) البرود جمع بردة ، وهي شملة من الصوف الغليظ يلتف بها الانسان ويلتحفها في الليل ، ولونها بني أو رمادي . والبياض كساء ابيض خفيف من الكتان أو القطن . والخبرة ، بفتح الحاء وكسر الباء ، بردة حمراء

(٤) تهذيب الاسماء ٦٠

(٥) الكامل للمبرد ٢٦

(٦) الدرايع جمع دراعة ، بضم الدال وتشديد الراء ، وهي قميص طويل أو جلباب من القطن أو التيل مفتوحة الصدر الى الوسط ، وفي فتحها أزرار . وكانت تلبس بيضاء أو على اللون اشهرها البنفسجي . وقد صارت مع الزمن ملبس الوزراء حتى أصبحت وكأنها زي خاص بهم

المختار بن أبي عبيد ، وأول من لبس الطيلسان في المدينة جبير بن مطعم (١) وقس عليه سائر ما اتخذوه من لباس الأعاجم بعد الاسلام . والعادة أن يبدأ الأمراء بذلك ثم يقلدهم سائر الناس . وأول من أقدم على تقليد الأعاجم بأسباب البدخ معاوية وعماله . فزياد بن أبيه أمير العراق أول من قلد الفرس بلبس القباء الديباج (٢) وهو أول من لبس الخفاف الساذجة بالبصرة

ولما أترف بنو أمية لبسوا الحرير على أنواعه ، وتفننوا بأنواع الأنسجة ، وأحبوا الوشي وأكثروا من لبسه ، فقلدهم الناس في ذلك فراجت المنسوجات الموشاة في أيامهم ، واتخذوا كثيرا من البسة الروم ، ولكنهم لرغبتهم في المحافظة على البداوة ظلوا يلبسون العمائم ويعلقون السيوف على العواتق ، وكان الأحنف يقول : « لاتزال العرب عربا ما لبست العمائم وتقلدت السيوف » (٣)

اللباس في عصر الحضارة

فلما أفضت الخلافة الى العباسيين ، واستسلموا للفرس وأخذوا نظامهم وآدابهم ، قلدوهم باللبسة وجعلوا ذلك بأمر رسمي من أوائل دولتهم . فأمر المنصور رجاله سنة ١٥٣ هـ أن يلبسوا القلائس الفارسية الطويلة تدعم بعيدان من داخلها ، بدل العمائم ، أو يعموا فوقها بعمامة صغيرة . وأن يعلقوا السيوف في أوساطهم ، وأن يكون اللباس الأسود عاما فيهم ، وهو شعار العباسيين كما كان البياض شعار الأمويين . فلا بد للداخل على الخليفة العباسي من لبس جبة سوداء يسمونها « السواد » تغطي سائر الثياب . والبسهم المنصور دراريع كتب على ظهورها « فسيكفيكم الله وهو السميع العليم » (٤) وبعث الى عماله في سائر الاقطار أن يأمرؤا رجالهم بمثل ذلك (٥)

فأقبل العرب من ذلك الحين على تقليد الفرس في الملابس ، ولا سيما أهل الدولة ورجال الحكومة ، فلبسوا الاقبيية والسراويلات والطيلاسة والخفاف والجوارب وغيرها ، مع بقاء البسة العرب عند عامتهم . ثم اختصت كل طائفة أو طبقة بلبس خاص يميزها عن سواها . فالفقهاء والعلماء كانوا يلبسون عمامة سوداء بشكل خاص ومبطنة وطيلسان أسود (٦) وأول من غير لباس العلماء على هذه الصورة أبو يوسف قاضي الرشيد (٧) وأما لبس القضاة فهو القلائس الطوال والطيلاسة الرقاق ، ويختلف ذلك باختلاف الدول والأعصر مما لا محل لاستيفائه

(١) المعارف لابن قتيبة ١٨٧

(٢) الأغاني ١٠٤ ج ١٤

(٣) الكامل للمبرد ١٠٠

(٤) الأغاني ١٢١ ج ٩ وابن الاثير ٢٨٩ ج ٥ والمقد الفريد ٧٤ ج ١

(٥) ابن تغري بردي ٤٢٧ والمقريزي ٣٠٧ ج ١

(٦) الأغاني ١٠٩ ج ٥ و ٦٩ ج ٦ وطبقات الأطباء ٤ ج ٢

(٧) ابن خلكان ٣٠٣ ج ٢

أما عامة الناس فتختلف أشكال البستهم باختلاف صناعاتهم وأحوالهم وطبقاتهم ، وباختلاف الأصقاع والأطوار مما لا يمكن حصره ، وإنما يقال بالاجمال أن لباس الرجال العمامة والدراعة والسراويل والقميص والقباء والجبة والجوارب والنعال ، على نحو لباس المصريين والسوريين في أوائل القرن الماضي وهو ما يلبسه جماعة المشايخ الآن (*)

ثياب المنادمة والتطيب والخضاب

على أن رجال الدولة ومن جرى مجراهم من الخاصة كانت لهم البسة لمجالس الانس والشراب يسمونها «ثياب المنادمة» ، وهى أثواب مصبغة بالألوان الزاهية: الاحمر أو الاصفر أو الاخضر ، يصقلونها حتى تلمع وتشرق ، ويتضمنون بالخلوق ويتطيّبون ، ولهم البسة يتخففون بها في منازلهم وأخرى يلبسونها في الأسفار وغير ذلك

أما التّطيب فقد كان من دلائل الفنى والنبيل عندهم ، ومن أمثالهم : « ثلاثة يحكم لهم بالنبل حتى يدرى من هم : رجل رأيت ركباً ، أو سمعته يعرب كلامه ، أو شممت منه طيباً » (***)

والخضاب كان مستحسنًا عندهم ، وأصله هندي أخذته الفرس عن الهنود (١) ومنه انتقل الى بلاد العرب قبل الاسلام ، ويقال ان أول من خضب بالسواد من أهل مكة عبد المطلب (٢) وقالوا بل المغيرة بن شعبه . ولما ظهر الاسلام وانتشر العرب في الأرض تعلموا فنون الخضاب ، فصاروا يخضبون بالحناء للحمرة وبالزعفران للصفرة فضلاً عن الخضاب الاسود ، وكانوا يبيضون شعورهم بالكبريت (٣) وأول من خضب لحيته بالزعفران جرير الشاعر (٤) وكان حسان ابن ثابت يخضب لحيته على أسلوب خاص ، فيلون شاريه وعنفقته بالحناء دون سائر لحيته ، فيبدو لأول وهلة كأنه أسد والغ في الدم (٥) وقس على ذلك تغنهم في الخضاب للرجال والنساء ، ولا يزال ذلك شائعاً في الشرق الى الآن ،

(*) في كل ما يتصل بملابس المسلمين انظر قاموس دوزي من الملابس العربية وقد أشرنا اليه سابقاً. وانظر أيضاً فهارس النجوم الزاهرة لابی المحاسن. بن تفرى بردى ، والسلوك لمعرفة دول الملوك لتقى الدين أحمد بن على القريرى ، وكذلك الخطط من تأليفه ، الجزء الذى نشره جاستون فيبيت في القاهرة ، والجزءين اللذين نشرهما الدكتور جمال الدين الشيال من مفرج الكروب لجمال الدين بن واصل ، وانظر بصفة خاصة فهرس كتاب الموشى لحمد بن اسحاق ابن يحيى الوشاء ، وجامع المفردات Glossarium الذى وضعه دى غويه لتاريخ الطبرى (***) انظر كتاب الموشى الذى أشرنا اليه في التعليق السابق ، فصول : ذكر زى الطرفاء في الطعام (ص ١٦٧ من طبعة القاهرة ١٩٥٣) وذكر زيبم في الشراب (ص ١٧١)

(١) السعوى ١١٥ ج ١

(٢) لطائف المعارف ٨

(٣) ألف بلاء ٣٤٤ ج ٢

(٤) المعارف لابن قتيبة ٩٩

(٥) الاغانى ٣ ج ٤

والاكثرون يخضبون بالسواد وبعضهم بالحناء ويندر الحضاب بالزعفران ،
ولا نعرف أحدا يبيض شعره بالكبريت

٣ - الماوى

مسكن العرب

كان العرب قبل الاسلام أهل خيام وأنعام ، يحملون منازلهم على ظهورهم ،
الا من أقام منهم في مكة أو المدينة أو الطائف أو غيرها من مدن الجاهلية ، ولما
نهضوا للفتح كانت البداوة من جملة أسباب تغلبهم . فلما فتحوا الأمصار
تحاشوا سكنى المدن ، ونصبوا مضاربهم في ضواحيها أو بنوا بيوتاً من القصب (١) معسكراً لهم ، لا يفصل بينها وبين مقر الخلافة (المدينة) ماء ، كأنهم محتلون
الى أجل . وكانوا اذا فسد ما بنوه من القصب أو احترق ، استأذنوا الخليفة
عمر في بنائها بالحجارة ، مثل المدن التى فتحوها بمصر والشام والعراق ،
ولكنه لم يكن يرى تحضرهم خوفاً عليهم من الترف والرخاء ، ولهذا السبب
أيضاً منعهم من الزرع . ثم أذن لهم بالبناء ، ولكنه اشترط الاقتصاد فيه ،
فلما استشاروه في بناء الكوفة بالحجارة قال لهم : « افعلوا ، ولا يزيدن أحد
على ثلاثة أبيات ، ولا تطاولوا في البنيان ، والزموا السنة تلتزمكم الدولة » (١)

على أن ناموس العمران غلب على ما أراده عمر من بقاء المسلمين يقيمون في
المعسكرات ، فما لبثوا أن تحضروا وتحولت تلك المعسكرات الى مدن عامرة ،
ونزلوا المدن القديمة التى فتحوها ، وبنوا المنازل والقصور يقلدون بها ابنية
الدول السالفة

أساليب البناء في الاسلام

وكانت أساليب البناء يومئذ تختلف باختلاف الأمم ، ولكل منها نمط تولد
عندها بتوالى الأجيال ، أما رأساً أو اقتباساً . وأهمها النمط البيزنطى في الشام
ومصر ، والفارسى في فارس وخراسان ، والقوطى في الأندلس ومايلها . فلما
تحضر العرب وعمدوا الى تشييد المباني استخدموا في بنائها مهندسين من الروم
والفرس ، فكانوا يخططونها على ما عرفوه من الأساليب التى ذكرناها . ثم أخذ
العرب تلك الصناعة وأدخلوا فيها تغييراً يوافق الذوق الشرقى ويلئم الاسلام .
فتولد نمط اسلامى خاص يعرف بالنمط العربى أو الشرقى يختلف باختلاف
الأصقاع واختلاف العصور والدول ، وترجع تنوعاته الى ثلاثة أعصر كبرى :

(*) المراد بالقصب هنا أعواد النباتات مثل الدرة والقمح والقصب الذى ينمو على شواطئ
الانهار ، فكانوا يقيمون هيكل البيت بالخشب ثم يغطونه بالقصب من كل نواحيه . وكانت
بيوت القصب معرضة للحريق ، وقد احترقت الكوفة والبصرة أكثر من مرة عندما بنيت
بالقصب لأول أمرها

أولاً - العصر العربي الرومى : هو أقدم عصر البناء فى الاسلام ، وأساسه النمط البيزنطى ، وتنوع فى أثناء التمدن الاسلامى وتفرع الى خمسة أشكال :
 (١) النمط السورى ومثاله الجامع الأقصى فى القدس والجامع الأموى فى الشام ،
 (٢) النمط المصرى ومثاله جامع عمرو بالفسطاط ، (٣) النمط الإفريقى ومنه جامع القيروان (٤) النمط الصقلى فى صقلية بإيطاليا ومن أمثله قلاع سرقوسة (**) وغيرها (٥) النمط الأندلسى ومنه جامع قرطبة وبعض الآثار العربية فى طليطلة مما بنى قبل انقضاء القرن العاشر للميلاد

ثانياً - العصر العربى البحت : وهو يشمل الأشكال التى تكيفت بين يدي العرب حتى بعدت عن الأصول التى نقلت عنها وهى قسمان : (١) النمط المصرى ومنه الأبنية التى أقيمت فى مصر بين القرن العاشر والخامس عشر وفى جملتها الجوامع التى بناها السلاطين المماليك كجامع الظاهر وجامع السلطان حسن ، (٢) النمط الأندلسى وهو مابنى فى الأندلس بعد القرن العاشر ومن أمثله أبنية اشبيلية وغرناطة ولا تزال آثارها باقية الى الآن

ثالثاً - العصر المختلط : ويدخل فيه : (١) النمط الأسباني العربى ويراد به ما بناه المسيحيون بعد استيلائهم على الأندلس وخروج المسلمين منها ، (٢) النمط الاسرائيلى العربى ومن أمثله الآثار الباقية لليهود فى طليطلة من انقاض الكنائس ، (٣) النمط الفارسى العربى كالجوامع التى بناها الفرس بعد الاسلام ولاسيما فى أصبهان ، (٤) النمط الهندى العربى وهو خليط من النمطين الهندى والعربى كبرج كتاب وهىكل بندرابند وباب علاء الدين ، (٥) النمط المغولى العربى كالأبنية التى أقيمت فى الهند أثناء سلطة المغول وأشهرها تاج محل وقصر الشاه وكثير من المساجد ونحوها (١)

فمساكن الناس فى عهد التمدن الاسلامى كانت تختلف شكلاً باختلاف البلاد والعصور ، وتتفاوت سعة وقدراً بتفاوت طبقات الناس : من الأكواخ الخفية الى القصور الفخيمة ، وسنأتى بأمثلة من القصور وسائر الأبنية الاسلامية عند الكلام على الحضارة (***)

(*) فى الأصل زيرا وكوبا ، وهو خطأ مطبعى ، لان المراد سرقوسة من مدن صقلية ، وهى تكتب بالفرنسية Syracuse

(١) La Civilisation des Arabes, 597

(**) تقدمت دراسات العمارة والفنون الاسلامية تقدماً عظيماً خلال نصف القرن المنقضى ، ونورد فيما يلى بياناً بأهم المراجع التى يستطيع الدارس أن يرجع اليها :

George Marçais : Manuel d'art musulman (l'architecture : Tunisie, Algérie, Maroc, Espagne, Sicile) Vol. du IXe au XIIe siècle. Paris, 1926. Vol. II, du XIIIe au XIXe siècle. Paris, 1927.

وفى كل من هذين المجلدين ثبت بالمراجع عن العمارة فى تونس والجزائر ومراكش والأندلس وصقلية

وانظر أيضاً الفصلين الخامسين بالعمارة الاسلامية والفنون الاسلامية الصغيرة من كتاب

تراث الاسلام ، الترجمة العربية ظهرت في القاهرة سنة ١٩٢٨
وكذلك فصل الفن الاسلامي في

T. Cuyler Young. Near East: Culture and Society. New York, 1953.
الترجمة العربية ظهرت في القاهرة بقلم الدكتور عبد الرحمن أيوب . مجموعة الالف كتاب
القاهرة ١٩٥٧

وفي الترجمة الاسبانية التي قام بها اميليو غرسيه غومس للجزء الثالث من كتاب « تاريخ
اسبانيا الاسلامية » لليفي بروفنسال ، قسم خاص جديد عن العمارة الاندلسية يشغل نصفه
تقريباً بقلم ليوبولدو توريس بالباس Leopoldo Torres Balbas وهذا القسم يقع في
المجلد الخامس من كتاب Historia de Espana الذي يشرف عليه R. Menendez Pidal
ومن اهم المراجع عن الفن الاسلامي بصفة عامة والفنون الزخرفية بصورة خاصة : م. م.
ديماند : الفنون الاسلامية ، ترجمة الاستاذ احمد محمد عيسى ، القاهرة ١٩٥٣
وكذلك : زكي محمد حسن : فنون الاسلام ، القاهرة ١٩٥١

وقد استعمل المؤلف في هذه الفقرة مصطلحات لا يستعملها دارسو الآثار الآن ، واليسك
مصطلحاته وما يقابلها الآن : العصر العربي الرومي = العصر العربي البيزنطي ، نمط = طراز،
النمط الاثريقي = الطراز المغربي ، النمط الاسباني العربي = الطراز الاندلسي المغربي
أما ما ذكره المؤلف باسم النمط الاسرائيلي المغربي فيدخل تحت طراز من طراز العمارة
الاندلسية يسمى الطراز المدجني
انظر من طرز الفن الاندلسي :

حسين مؤنس : تطور العمارة الاسلامية في الاندلس . حوايل كلية الاداب بجامعة عين
شمس ، المجلد الاول سنة ١٩٥١ م ١٨٥ - ٢٥٨

حضارة الدولة الإسلامية

حضارة الدولة الإسلامية

نريد بالحضارة ما تبلغ اليه الدولة من الثروة وبسطة العيش والتوسع في أسباب الترف والرغد في أرقى درجات عمرانها . والدولة الإسلامية أدركت تلك الدرجات أولا في العصر العباسي ببغداد من أواسط القرن الثاني للهجرة (الثامن الميلادي) الى أواسط الرابع (العاشر الميلادي) ، وفي العصر الأموي بالاندلس في القرن الرابع ، وفي العصر الفاطمي بمصر من أواسط الرابع الى أواسط السادس الهجري (الثاني عشر الميلادي)

وأسباب الحضارة فيما نحن فيه تقسم الى قسمين كبيرين : الأول العمارة أى إنشاء المدن وبناء المصانع والقصور ، والثاني الثروة وبها يتم ما يقتضيه الترف من الانغماس في النعيم والرخاء وبسطة العيش . فنتكلم أولا عن المدن ، فالمباني ، ثم نبين ما بلغت اليه الامة من الثروة وأسباب الترف والرفاهية

عمارة المدن والقصور

ان المدن التي سكنها المسلمون وحواسنها التمدن الاسلامي تعد بالمئات ، وهي منتشرة في آسيا وافريقيا وأوربا ، ومنها ما كان عامرا قبل الاسلام ، ومنها ما بناه المسلمون لأنفسهم . وقد نشرنا في الجزء الثاني من هذا الكتاب فصلا في المدن الإسلامية ، وما بلغت اليه من الحضارة والثروة في عهد التمدن الاسلامي واقتصرنا على أعظم تلك المدن : البصرة ، والكوفة ، والفسطاط ، وبغداد . واجلنا الكلام فيما بقى الى هذا الجزء فنقول :

القطر المصري

مساحة الأرض الزراعية فيه

القطر المصري اليوم (حوالي سنة ١٩١٠) في نهضة مالية تضاعفت فيها الثروة الى حد استغربه الناس وخافوا رد الفعل (١) لأنهم رأوا غلاء في الأسعار، مفاجئا لم يعهدوا مثله ، وزادت مساحة الأرض الزراعية ستة أضعافها في قرن واحد . فبعد أن كانت مساحتها في أيام المماليك نحو مليون فدان وبعض المليون صارت ثمانية ملايين فدان (٢) . وبعد أن كان الفدان يباع ببضعة عشر جنيها

(١) فصلنا ذلك بمقالات في « النهضة المالية المصرية » في السنتين ١٣ و ١٤ من الهلال (٢) المعروف ان المساحة المنزرعة الآن تبلغ نحو ٦٥٠٠.٠٠٠ فدان

بيع بمائة جنيه ، أو مائة وخمسين جنيها أو أكثر . فكيف لو علموا أن مساحة الأرض الزراعية في أبان التمدن الاسلامي زادت على ٢٥٠٠٠٠٠٠ فدان ؟ وقد ذكرنا ذلك في الجزء الاول من هذا الكتاب نقلا عن ثقات مؤرخي العرب ، فاستغربه بعض الفضلاء وعدوه من قبيل الخرافة أو الأكذوبة على عاداتهم في الاستخفاف بأقوال مؤرخي المسلمين . ولا نرى باعنا على هذا الاستخفاف ، والمسلمون أو العرب من أكثر الأمم تحقيقا في حوادث التاريخ ، لما تعودوه من التحقيق في المسائل الدينية بالاسناد ونحوه (*)

على أننا لا نلومهم إذا استغربوا تلك الرواية ، لأن الناس يقيسون الأشياء بما علموه من أشباهها ، فثروة القطر المصري إذا قيست بما ألفناه من أحوال عمرانه في القرنين الماضيين لا نرى ما يسهل علينا تصديق قول العرب بمساحته الزراعية الى ثلاثة أضعاف ما بلغت اليه اليوم . ولكن لو قيل لأهل هذا الجيل أن مساحة الأرض الزراعية بمصر ستبلغ بعد عشر سنين عشرة ملايين أو ١٢ مليون فدان لهان عليهم التصديق ، لانهم شاهدوا تزايد هذه المساحة من مليون

(*) ناقشنا في تعليقنا على الجزء الثاني من هذا الكتاب رأينا في تقدير العرب لمساحة المزرع من أرض مصر أيام الفتح الاسلامي ، ونضيف الى ما ذكرناه هناك أن الأحوال المناخية في مصر اذذاك كانت تختلف عما هي عليه الآن ، فقبل ثلاثة عشر قرنا كان المطر في مصر وكل المناطق الواقعة على خط عرضها أكثر جدا مما هي عليه اليوم ، فكان معظم شبه الجزيرة العربية وشبه جزيرة سينا وصحارى مصر الحالية مناطق سهوب وأعشاب تنضج في الشتاء والربيع والخريف وترعاها الماشية ، وكانت عيون الماء أكثر مما هي عليه اليوم ، فكانت صحراء مصر الشرقية والغربية كثيرة الواحات تزرع منها مساحات واسعة ، ولهذا فقد كان معظم الصحارى القاحلة الآن أرضا صالحة للسكنى تعيش فيها جماعات كثيرة من البدو والرعاة ، وعند ميون الماء قامت منشآت أهمها الاديرة ، وقد كانت الصحراوان الشرقية والغربية غنيتين بها ، وقد جفت هذه النواحي وانعدمت الحياة فيها شيئا فشيئا حتى صارت الى ما هي عليه اليوم . ولهذا فقد قدر الناس أن أرض مصر كلها مزرعة وحسبها على هذا الاساس فقالوا أن الأرض المزروعة ٢٥ مليون فدان ، بل للمقريزي رواية تقول أنها ٣٠ مليون فدان ، أما الأرض المزروعة زراعة منتظمة ويجبى عليها الخراج الكامل فكانت أقل من ذلك بكثير . ولا نستطيع الاعتماد على تقديرات الخراج في تقدير مساحة الأرض المزروعة ، لان هذه التقديرات تشمل ضريبة الأرض وضريبة الرعوس ، وكان العرب أول الامر يجبون مال مصر جملة واحدة دون تقدير خراج أو جزية ، ثم جاء الفقهاء بعد ذلك وحاولوا التوفيق بين المبالغ المجموعة وما تقتضى به الشريعة ، فجعلوا شيئا من المال المجموع جزية وبعضه خراجا . وعندما انتشر الاسلام في مصر وتلاشت الجزية أصبح المال المجموع كله يمثل الخراج والعشور التي كانت تجبى على بعض صنوف الأرض ثم الضرائب الاضافية الاخرى ، وقد ثبتت جباية مصر ابتداء من أيام معاوية بن أبي سفيان عند ٤ مليون دينار ، ثم هبطت في العصر العباسي الى ٣٢٠٠٠٠ دينار تقريبا ، فاذا قلنا أن الضرائب الاضافية والزكاة وجزية من بقى على دينه تقدر في مجموعها بنصف مليون دينار ، كان الباقي ٢٧٠٠٠٠ دينار ، ومن المعروف أن ضريبة الفدان كانت دينارا ، فمعنى ذلك أن مساحة المزرع في العصر العباسي كانت ٢٧٠٠٠٠٠ فدان ، فاذا فرضنا أن مقدار الجباية هبط أيام العباسيين بسبب الاضطراب والفوضى عما كان عليه أيام الخلفاء الراشدين والامويين أمكننا أن نقول أن مساحة أرض مصر المزروعة زمن الفتح الاسلامي كانت حوالي ٣٥٠٠٠٠٠ فدان ، وربما كان هذا هو الذى أراد المقريزي قوله ، ثم وقع الغلط من النقل والتصحيح

وقد ناقشنا ذلك مناقشة وافية في الفصل الذى كتبناه عن تاريخ مصر من الفتح الاسلامي الى نهاية العصر الاخشيدي في كتاب تاريخ مصر الذى تنشره حاليا وزارة الارشاد القومى والثقافة

فدان الى ثمانية ملايين . أما لو قيل ذلك لاهل أواسط القرن الماضي لعدوه مستحيلا ، لأن مساحة أرض مصر التى تقبل الزراعة لم تكن تقدر يومئذ بأكثر من ٧.٠٠٠.٠٠٠ فدان ، وهالك تقدير الدكتور كلوت بك لسنة ١٨٤٠ (١) باعتبار الفدان :

أرض مزروعة	غير مزروعة	الجملة
٢٢٤٩.٠٠٠	١٥٥١.٠٠٠	٣٨٠٠.٠٠٠
٨٥٦٨٢٦	٧٦٣١٧٤	١٦٢.٠٠٠
٧٥٠.٤٠٠	٨٤٣٦.٠٠	١٥٩٤.٠٠٠
٣٨٥٦٢٢٦	٣١٥٧٧٧٤	٧.١٤.٠٠٠

فتكون مساحة الأرض التى يمكن زرعها بمصر ٧.١٤.٠٠٠ فدان . فمن كان هذا اعتقاده فى أطيان مصر لا يصدق اذا قيل له أن مساحة هذه الأطيان ستزيد على عشرة ملايين فدان ، أو ١٢ مليونا بعد بضع عشرة سنة

عدد السكان

ويقال نحو ذلك فى عدد السكان ، فلو قيل فى أواسط القرن الماضي ان القطر المصرى سيبلغ عدد سكانه الى عشرة ملايين أو ١٢ مليونا لعدوا قولنا من الخرافات ، أو كما قال الدكتور كلوت بك : « من عادات الشرقيين فى المبالغة » ، لأن عددهم فى أيامه لم يكن يزيد على ٣.٠٠٠.٠٠٠ نفس ، فكيف يصدق زيادته الى أربعة أضعافه ؟ لأنقول ذلك تحكما أو افتراضا ، ولكننا ننقل للقارىء قول الدكتور كلوت بك مؤرخ ذلك العصر فى هذا الشأن — فقد بحث فى كتابه عن سكان القطر المصرى سنة ١٨٤٠ فبلغ عددهم ثلاثة ملايين نفس ، فصدر بحثه بمقدمة عن احصائهم فى الزمن القديم قال فيها مامعناه : « يؤخذ من احصاء مؤرخى اليونان أن سكان هذا القطر بلغ عددهم فى زمن سيزوستريس والبطالسة نحو سبعة ملايين نفس الى ثمانية ، وأما مؤرخو العرب فزعموا أن عددهم فى زمن عمرو بن العاص بلغ عشرين مليونا ، وهو قول يدل على عادة الشرقيين فى المبالغة فى كتاباتهم . . . لأننا لو قسنا مصر بما نعلمه فى سواها من نسبة عدد الناس الى مساحة مايتوطنونه من الارض لوصلنا الى نتيجة تنفى كل شك . فمصر مساحتها سدس مساحة فرنسا ، ومهما قلنا فى خصب وادى النيل وما يمكن الوصول اليه من امتداد الزراعة وزيادة العمارة ، ولو سلمنا بإمكان استثمار البقاع الرملية — فمع كل هذه الوسائل لايرجى زيادة عدد السكان على ثلث الاحصاء الذى ذكره العرب » (أى نحو ٦.٣٣٣.٠٠٠ نفس) — هذا هو رأيه ، وأنت ترى أن سكان مصر زاد عددهم اليوم على عشرة ملايين ،

ولن تمضى بضع سنين حتى يناهز ١٥ مليوناً ، أو ضعفى ماظنه الدكتور كلوت بك غاية مايمكن الوصول إليه

وقياسا على ماتقدم لانرى مانعا من بلوغ سكان القطر المصرى الى ٢٠.٠٠٠.٠٠٠ نفس . فلا غرابة اذا بلغوا هذا العدد فى ابان التمدن الاسلامى — وانما انكر ابناء هذا الجيل ذلك استخفافا برواية العرب ، مع انها مبنية على احصاءات رسمية واقعية فى أزمنة معينة لأجل تعديل الجزية أو الخراج ، وليست من قبيل الخدس أو الرجم بالغيب . الاحصاء الأول وقع فى زمن الفتح على أيام عمر . ذكر المقرئى انهم احصوا الرجال الذين تؤخذ عليهم الجزية فبلغ عددهم ٨.٠٠٠.٠٠٠ نفس ، فاذا اعتبرناهم ثلث الامة كان مجموعها ٢٤.٠٠٠.٠٠٠ نفس . والاحصاء الثانى فى ولاية الوليد بن رفاعه سنة ١١٠هـ ، ذكروا انه خرج ليحصى اهلها وينظر فى تعديل الخراج ، فاقام فى ذلك ستة أشهر بالصعيد حتى بلغ أسوان ، ومعه جماعة من الكتاب والاعوان يكفونه ذلك بجدة وتشجير ، وثلاثة أشهر فى الوجه البحرى ، فأحصوا من القرى عشرة آلاف قرية ، فى أصغر قرية منها ٥٠٠ جمعة من الرجال الذين تفرض عليهم الجزية ، فتكون جملة ذلك على الأقل ٥.٠٠٠.٠٠٠ رجل ، وعلى متوسط مايلحق ذلك من النساء والأطفال والشيوخ يكون المجموع نحو ٢٠.٠٠٠.٠٠٠ نفس

مساحة الأرض الزراعية

ويقال نحو ذلك فى الأرض الزراعية ، فانهم استخرجوا مساحتها بالاحصاءات الرسمية لأجل تعديل الخراج . منها احصاء لعبيد الله بن الحبحاب سنة ١٠٧هـ فبلغت مساحة الأرض الزراعية مما يركبه النيل ٣٠.٠٠٠.٠٠٠ فدان ، أى نحو أربعة أضعاف مابلغت اليه مساحتها اليوم ، مع اجتهاد حكومتنا فى تعميم وسائل الري ببناء الجسور والخزانات وما لدينا من آلات الحرث والزرع . فاذا سبق الى اذهاننا الاستخفاف برواية العرب حكمنا لأول وهلة وبلا تردد انها مكذوبة ، اما اذا نظرنا فيها نظر الناقد المحقق فلا نعدم الوصول الى الحقيقة

فالمقرئى وغيره من رواة هذا الاحصاء لم يقولوه عرضا ولا تركوا فى قولهم التباسا . وذكروا فى أمكنة أخرى أن الأرض الزراعية نقصت فى أيام ابن المدبر ، أى بعد قرن ونصف قرن ، الى ٢٤.٠٠٠.٠٠٠ فدان ، ولم يكتفوا بذكر المساحة ولكنهم ذكروا عدد العمال الذين كانوا يشتغلون بالحرث والزرع ، واشتروا عددا معلوما منهم فاذا نقصت غلة الأرض (١)

ولا يتجلى لنا وجه الصواب الا بعد معرفة ألبقاع التى كانت عامرة فى ذلك

العصر . فلو كانت حدود مصر الزراعية يومئذ مثل حدودها الآن ، أى يحدها من الشرق والغرب الجبلان والصحراء الشرقية والغربية ، لحكمنا باستحالة زعمهم . لأن مساحة مصر الجغرافية اليوم ، وفيها الواحات والبادية الواقعة بين النيل والبحر الأحمر والعريش ، نحو ٤٠٠.٠٠٠ ميل مربع ، معظمها صحراء قاحلة . أما الأرض الزراعية فمساحتها ١٧٨٢٦ ميلا مربعا ، يخرج منها ٨٥٠ ميلا مسطحات النيل والترع والمستنقعات والبحيرات ونحوها ، فالباقي ١٢٩٧٦ ميلا مربعا ، أى نحو ٨٠٠.٠٠٠ فدان ، وهى الأرض المزروعة الآن فلا سبيل الى المزيد

ولكن يؤخذ مما نقله العرب عن أحوال مصر فى أبان تمدنهم ، ومما جاء من أخبارها القديمة ، أن حدودها الزراعية كانت أوسع من ذلك كثيرا - ذكروا أنها كانت تمتد من الغرب وراء صحراء الاسكندرية الى برقة (١) وتتصل من الشرق بحدود السويس الى العريش ، ومعظم المسافة هناك اليوم رمال قاحلة ولكنها كانت تزرع قديما الزعفران والعصفر وقصب السكر وكان مأوها غزيرا . ولا تزال آثار العمارة باقية فى تلك البقاع ، فان تحت الرمال تربة سوداء زراعية يعرفها من اختبر الارض بالمسبار (٢)

وكان الصعيد عامرا ويمتد من جهته الشرقية الى البحر الأحمر وأراضى البجة (١) وكانت اطيان الفيوم ممتدة الى ما وراء العمارة المعروفة مسافة بعيدة . فاذا اعتبرنا مذكروه من هذا القبيل ، وأن النيل كان أكثر فروعا وأغزر ماء وأوسع فيضانا مما هو عليه اليوم ، هان علينا قبول أقوالهم وان كنا لا تزال نستغربها لبعدها عن مألوفنا . ولعلنا متى رأينا الشركات تعمل على احياء الصحارى المحيطة بوادى النيل شرقا وغربا ، بنزع ما يغطيها من الرمال واروائها بالترع المتصلة اليها من النيل أو الآبار الارتوازية ، نرى أقوالهم معقولة . ولا نظن ذلك بعيدا ، ورجال الأعمال يدرسون أمثال هذه المشروعات

مدينة القاهرة

وأشهر مدن القطر المصرى فى الاسلام الفسطاط والقاهرة ، وقد ذكرنا عمارة الفسطاط فى الجزء الثانى . وأما القاهرة فقد بناها القائد جوهر فى واسط القرن الرابع للهجرة معقلا لمولاه المعز لدين الله الفاطمى وجنده . فظلت فى أثناء دولة الفاطميين لم تتسع عمارتها وانما كانت العمارة للفسطاط والقطائع . وذكر القريرى أنه كان فى هاتين المدينتين - غير القاهرة - ١٠٠.٠٠٠ بيت ، فى بعضها

(١) القريرى ١٨٢ ج ١

(٢) هذا يؤيد ما قلناه فى تعليقنا السابق

(٢) القريرى ١٨٦ ج ١

مائة انسان ومئتان، اذ يكون البيت مؤلفا من خمس طبقات أو ست أو سبع (١) ومع ذلك فهي في تقديره لا تزيد على ثلث بغداد ، فكم تكون عمارة هذه ؟ ولما افضت الدولة الى السلطان صلاح الدين اذن للناس بسكنى القاهرة ، فاتصلت بمدينة الفسطاط . وكانت الفسطاط تسمى « مصر » ، فلما صارتا مدينة واحدة أطلقوا عليها اسم « مصر والقاهرة » ، ثم قالوا « مصر القاهرة » ، ولما خربت الفسطاط ظل الاسم للقاهرة وحدها كما هو مشهور (٢)

الأندلس

لما فتح المسلمون الأندلس كانت عامرة آهلة ، فأقاموا في مدنها وزادوها عمرا ، واشهر تلك المدن قرطبة وقد زادها المسلمون عظمة بما بنوه في ضواحيها من القصور الكبيرة أشباه المدن الضخمة مما سنذكره

قرطبة

هي من أعمال الأندلس ، واقعة على الوادى الكبير تستقى ماءها منه ، وكانت عامرة قبل الاسلام ويظن أنها من بناء القرطبيين ودخلت في حوزة الرومانيين سنة ١٥٢ قبل الميلاد ، وتوالت عليها أحوال شتى حتى فتح المسلمون الأندلس واستولوا على طليطلة ، ثم جعلوا مقر الامارة في قرطبة ، وزاد الأمويون عمارتها بما أنشأوه من القصور والمساجد والجسور وغيرها ، فاتسعت مساحتها ، وكان محيط المدينة الأصلية ٣٣٠٠٠ ذراع عليها سبعة أبواب ، فنشأ حولها ٢١ ربضا في كل ربض من المساجد والأسواق والحمامات ما يقوم بأهلها . فصار

- (١) المقرئى ٣٤١ ج ١
(٢) تاريخ مدينة القاهرة طويل ولا يزال متصلا ، فقد اختطف عام ٩٦٩/٣٥٩ أى أنها عمرت الى الآن ٩٨٩ سنة حافلة بالتطورات والاحداث ، وقد ألف الدكتور عبد الرحمن زكى في تاريخها سلسلة من الكتب بعنوان « القاهرة » استوفى فيها تاريخها وتطورها ، ولهذا فسنكتفى بذكر أهم المراجع القديمة والحديثة :
المقرئى : المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآبار ، جزءان ، بولاق ١٢٧٠ هـ ، وقد نشر جاستون فيبيت قسما من الجزء الاول في أربعة مجلدات ، القاهرة ١٩١١ - ١٩٢٤
ابراهيم بن محمد بن ايدير بن دقماق : الانتصار بواسطة عقد الامصار ، طبعة Vollers في خمسة أجزاء ، بولاق ١٣٠٩
ابن سعيد : المغرب في حلى المغرب ، الجزء الخامس الخاص بمصر ، نشر الدكتور زكى محمد حسن وآخرين ، القاهرة ١٩٥٢
السيوطى : حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة ، جزآن ، القاهرة ١٩٤٧
المقرئى : اتماظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء ، القاهرة ١٩٤٨
أبو المحاسن جمال الدين بن تفرى بردى : النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، ظهر منه ٩ أجزاء ، القاهرة ١٩٢٩ - ١٩٤٣ ، ابتداء من الجزء الرابع
شرف الدين يحيى بن الجيمان : التحفة السنية بأسماء البلاد المصرية ، نشره المستشرق موريتز ، القاهرة ١٨٩٨
على مبارك : الخطط التوفيقية الجديدة ، ٢٠ جزءا ، القاهرة ١٣٠٤ - ١٣٠٦
ياقوت : معجم البلدان ، طبعة الخانجي ، القاهرة ١٩٠٦
أبن الريات : الكواكب السيارة ، القاهرة ١٣٢٥

طولها ٢٤ ميلا وعرضها ستة أميال أو ١٤٤ ميلا مربعا (ومساحة لندن ١١٧ ميلا) وكل ذلك ديار وقصور ومساجد وبساتين على طول ضفة الوادى المذكور

وقد أحصوا مباني هذه المدينة وأرباضها في أبان عمرائها احصاءات مختلفة خلاصتها أن عدد الأبنية فيها كما يأتى :

عدد	
١١٣ر٠٠٠	دور الرعايا
٤٣٠	» القصر الكبير
٦ر٣٠٠	» أهل الدولة
٣ر٨٧٣	المساجد
٩٠٠	الحمامات
١٢٤ر٥٠٣	

وذكروا أن عدد الأبنية بلغ في أيام ابن أبى عامر ٢٠٠ر٠٠٠ دار للرعية ، و ٦٠ر٣٠٠ دار لأهل الدولة ، و ٨٠ر٤٥٥ حانوتا غير الحمامات والخانات (**) (١) ولا يخلو هذا التقدير من مبالغة ، والأول أقرب الى الصواب . وإذا اعتبرنا ما يلحقه من الحوانيت والخانات زاد المجموع على ضعفى عدد أبنية القاهرة اليوم

على أنك ترى في هذا التقسيم تمييزا بين الخاصة والعامة في المساكن ، وأن دور الخاصة نحو ٦ في المائة من دور العامة - على حين أن دور الأشراف في رومية لم يزد عددها في أبان عمرائها على ٢ر٠٠٠ دار (٢) فعمارة قرطبة بهذا الاعتبار فائقة الحد ، وأما سكانها فكانوا يناهزون المليونين ، وسيأتى الكلام على قصورها (***)

(**) وهذا التقدير يخالف الاول ، وقد روى المقرئ الخبرين في الفصل الذى عقده لقرطبة من كتابه نفح الطيب

(١) نفح الطيب ٢٥٦ ج ١

(٢) Gibbon, 1829

(***) لم يكتب بعد وصف قرطبة وتاريخها في العربية ، وأهم المراجع العربية القديمة عنها. وتاريخها أقصر من تاريخ القاهرة ، فقد اتخذها المسلمون عاصمة الأندلس عام ٧١٦/٩٦ واستولى عليها فرناندو الثالث ملك قشتالة في شوال سنة ٦٣٣ / يونيو ١٢٣٦ ، أى أنها ظلت عاصمة إسلامية ٥٢٠ عاما ، ولكن تاريخها القصير حائل بالتطورات والاحداث ، وقد روى تاريخها ووصفها حتى القرن العاشر ليفى بروقتسال في كتابه المعروف « اسبانيا الاسلامية في القرن العاشر » ، باريس ١٩٣١ ، في الفصل السادس ، ص ١٩٤ وما يليها ، ثم عاد فأكمل ذلك الوصف في الجزء الثالث من « تاريخ اسبانيا الاسلامية » ، في الفصل الخاص بالمدن . وأهم مرجع عربى قديم في وصفها : نفح الطيب للمقرئ ، طبعة مصطفى محمد ، القاهرة ١٩٤٩ ، الجزء الرابع ، ص ٤ وما يليها ، وهناك فصول عنها في صفة المغرب للرازي ، الترجمة الفرنسية التى نشرها ليفى بروقتسال في مجلة الأندلس سنة ١٩٥٣ - والروض المطار لابن

وأما غرناطة فكانوا يسمونها دمشق الأندلس ، لكثرة أثمارها وأعشابها وفاكهتها وتمتاز عن سائر مدائن الأندلس بنهر يتوزع على دورها وأسواقها وحماماتها وأرجائها الداخلة والخارجة وبساتينها ، كما يتوزع نهر بردى في دمشق . وبلغت غرناطة قمة مجدها في الدولة النصرية ، وأشهر ملوكها ابن الأحمر ، في أواسط القرن الثامن للهجرة ، وهو الذي بنى قصر الحمراء فيها كما بنى عبد الرحمن الناصر قصر الزهراء في قرطبة (١) . ونتقدم الى ذكر القصور والمباني

القصور والمباني

قال ابن خلدون : « ان المباني والمصانع في الملة الاسلامية قليلة ، بالنسبة الى قدرتها وبالقيااس على من كان من الدول قبلها » ولكننا اذا اعتبرنا ما انتاب المدائن الاسلامية من اسباب الخراب بما توالى عليها من الاحن والفتن ، ونظرنا الى مابقى من ابنيته في مصر والشام والعراق وفارس والهند والأندلس ، رايناها أكثر مما خيل لمؤرخنا الفيلسوف . ولعل الذي بعثه على هذا القول ان كثيراً من هذه المباني شيد بعد عصره على عهد السلاطين المماليك في مصر ، وبعضها لم يتصل علمه به مما في بلاد فارس والهند وغيرها . فقد كان للخلفاء والأمراء ، على اختلاف الدول والممالك ، عناية في بناء المساجد والمصانع والقصور يتأنقون في هندامها واتقانها ، فضلاً عن المتنزهات والحدائق مما ينفقون فيه الاموال الطائلة ، فيجلبون اليه الأغراس من أطراف العمور ، ويتفننون في تزيين مجالسهم بالاشعار والتصاوير الموهبة بالذهب ، وبينها رسوم الحيوانات والآدميين والأزهار وغيرها مما ستراه

عبد المنعم الحميري ومعجم الادباء لياقوت ، والمسالك والممالك لابن خرداذبة ، وصورة الارض لابن حوقل ، والغرب في حلى المغرب لابن سعيد ، وغيرها من كتب الجغرافية . ومن أهم الأبحاث الحديثة عنها :

Levi Provencal. L'Espagne musulmane au Xème siècle (Paris, 1932) chap. 'XI, Cordoue

Ibidem. Histoire de l'Espagne musulmane, Vol. III. Paris, 1954. Index.

Manuel Gomez Moreno. Ars Hispanica, Vol. III. Madrid, 1951.

(٢) كانت غرناطة أول الامر قرية صغيرة الى جانب مدينة البيرة Elvira التي اتخذها المسلمون قاعدة للكرورة التي تحمل نفس الاسم في جنوب الأندلس ، وقد بدأت أهميتها تظهر في عصر الطوائف عندما اتخذها بنو زيري قاعدة لآمارتهم التي كانت مملكة من ممالك الطوائف (١٠١٢ - ١٠٩٠ م) فانتقلت الأهمية من البيرة اليها وأخذت تتسع ، وبنى لها سور عظيم ، وعندما اتخذها محمد بن نصر المعروف بابن الأحمر قاعدة لمملكته في سنة ١٢٣٢ بدأ نجم المدينة يصعد ، وانشئت فيها حصون الحمراء وقصورها ومسجدها ، وشيئا فشيئا أصبحت أعظم ما بقي في ايدي المسلمين من بلاد الأندلس وبلغ عدد سكانها الى مليون ونصف ، وظلت معقل الاسلام في الجزيرة حتى سقطها في يد فرناندو وإيزابيلا ملكي قشتالة وأرغون في سنة ١٤٩٢ ، وبسقوطها انتهى أمر المسلمين في شبه الجزيرة الأيبيرية

انظر مادة غرناطة أو غرناطة عند ياقوت وابن عبد المنعم الحميري - كتاب الروض المطار في خبر الاقطار ، طبعة ليفي بروفنسال والأدريسي وجغرافية ابي الفدا ، وانظر فهرس المكتبة الجغرافية

١ - مباني الأمويين في الشام

لم يصلنا من أخبار مباني الأمويين في الشام ما يستحق الذكر الا « الجامع الأموي » الذي جدد بناءه الوليد بن عبد الملك بدمشق ، وكان قبل الاسلام كنيسة على اسم القديس يوحنا ، فلما فتح المسلمون دمشق صالحوا أهلها على أن تقسم الكنيسة مناصفة : المسيحيون يصلون في نصفها الغربي ، والمسلمون في النصف الشرقي . فلما أفضت الخلافة الى الوليد بن عبد الملك أخذ النصفين جميعا وجدد بناء الجامع ، فاستقدم نحو ١٢٠٠٠ صانع من بلاد الروم ، تأنقوا في بنائه فغطوا جدرانها كلها بفصوص من الفسيفساء صبغت بأنواع الاصبغة الغربية فمثلت أشجارا ، وفرعت أغصانا منظومة بالفصوص ببدايع الصنعة الانيقة . فأنفق في ذلك نحو ١١٢٠٠٠ دينار . وكان طول الجامع من الشرق الى الغرب ٣٠٠ ذراع ، وعرضه ٢٠٠ ذراع ، قائم على ٦٨ عمودا . وأعظم ما فيه قبة مصنوعة من الرصاص متصلة بالمحراب عظيمة الاستدارة والارتفاع وقد زاره ابن جبير الرحالة الأندلسي في القرن السادس للهجرة ، ووصفه وصفا مطولا وذكر تاريخه الى أيامه مما يضيق عنه المقام (١) ولا يزال هذا الجامع قائما الى الآن ، ويعد من أفخر أبنية المسلمين

وبني الحجاج بن يوسف قبة الاسلام في واسط ، وكانت من أفخم الابنية وفيها يقول الشاعر :

بنى قبة الاسلام حتى كأنما أتى الناس من بعد الضلال رسول (٢)

٢ - مباني العباسيين بالعراق

أول من شاد الأبنية منهم المنصور ، فبنى القبة الخضراء ليحول أذهان الناس عن الكعبة اليها ، وبني الجامع والحصون والقصور في بغداد ، كقصر الخلد وقصر باب الذهب وغيرهما ، وأخذ الخلفاء بعده في تشييد المصانع ، واقتدى بهم وزراءهم وأمراؤهم ، فأقاموا قصورا فخيمة تعرف غالبا بأسماء بانيها ، كقصور البرامكة في النعمانية ، وقصر ابن الخصيب ، وقصر أم حبيب بالجانب الشرقي من بغداد ، وقصر بني خلف بالبصرة ، وقصر عيسى ابن علي وهو أول قصر بناه الهاشميون في أيام المنصور ، وقصر وضاح بنه وجل اسمه وضاح للمهدي العباسي ، وقصر الرشيد ، وقصر الأمين ، وقصر ابن الفرات ، وقصر ابن مقله ، غير ما اطلقوا عليه لفظ الدار كدار الشجرة الآتى ذكرها ، ودار القرار وهي قصر زبيدة زوج الرشيد وغير ذلك. وأخذت

(١) رحلة ابن جبير ٢٦٣

(٢) الكامل للمبرد ٢٨٧

رغبتهم في بناء القصور تتزايد كلما تقدموا في المدينة وأغرقوا في الترف والرخاء . على أن بعض خلفائهم كانوا يحبون العمارة وينشطونها وأولهم المعتصم بالله ، فقد كان كلغا بالبناء فبنى سامرا لأتراكه وأقطعهم فيها القطائع . والمتوكل على الله كان مغرما بالعمارة ، فبذل فيها الأموال الطائلة ، فأحدث أساليب من الابنية لم تكن معروفة قبله ، منها النمط الحيري والكمين ذات الأروقة . وبنى ثلاثة أبنية تعرف بالهأروني والجوسق والجعفرى ، بذل في بنائها جميعا أكثر من ١٠٠.٠٠٠.٠٠٠ درهم (١) أنفق منها على القصر الجعفرى أكثر من ٢٠.٠٠٠.٠٠٠ دينار (٢) أو نحو ٤.٠٠٠.٠٠٠ درهم ، ثم صار تشييد المباني عادة جرى عليها الخلفاء والأغنياء ، فضلا عن المتنزهات ، فبنى اسماعيل ابن على متنزها أنفق فيه ٥.٠٠٠.٠٠٠ درهم (٣)

قصر التاج وقصر الثريا

وكان المعتضد بالله محبا للعمارة أيضا ، فبنى قصرا في الجانب الشرقى من بغداد سماه « قصر التاج » لم يتم في أيامه قاتمه ابنه المكتفى . وكان في مكانه قصر بناه جعفر البرمكى ثم سكنه الحسن بن سهل فسمى القصر الحسنى . فلما تولى المعتضد سنة ٢٨٩ هـ أضاف إليه ما جاوره ، فوسعه وكبره وأدار عليه سورا واتخذ حوله منازل كثيرة ودورا ، واقتطع من البرية قطعة عملها ميدانا . وأخذ في بناء قصر التاج ، فاتفق خروجه الى آمد ، فلما عاد رأى الدخان يرتفع الى الدار ، فكرهه وابتنى على ميلين منه قصرا سماه « قصر الثريا » طوله ثلاثة فراسخ أنفق فيه ٤.٠٠٠.٠٠٠ دينار (٤) وصله بالقصر الحسنى وابتنى بين القصرين على مسافة ميلين سردابا تمشى فيه جواريه وحرمه وسرايه ، وما زال باقيا الى الفرق الاول الذى صار ببغداد (٥) . وفى قصر الثريا يقول ابن المعنز :

سلمت أمير المؤمنين على الدهر	فلا زلت فينا باقيا واسع العمر
حللت الثريا خير دار ومنزل	فلا زال معمورا وبورك من قصر
جنان وأشجار تلاقى غصونها	وأورقن بالأثمار والورق الخضر
ترى الطير فى أغصانها هوائفا	تنقل من وكر لهن الى وكر
وبنيان قصر قد علت شرفاته	كمثل نساء قد تربعن فى أزر

(١) المسعودى ٢٧٩ ج ٢

(٢) ابن الأثير ٣٣ ج ٧

(٣) ابن الأثير ٢٨ ج ٦

(٤) المسعودى ٣٢٨ ج ٢

(٥) عن قصور بغداد انظر الفصل الثامن عشر من كتاب

وأنهـار ماء كـالسـلاسل فجـرت لترضع أولاد الرياحين والزهر
عطايا اله منعم كان عالـما * بأنك أوفى الناس فيهن بالشكر
ولما توفى المعتضـد قام ابنه المكتفى سنة ٢٨٩ هـ فآتم بناء قصر التاج ،
وكان وجهه مبنيـا على خمسة عقود كل عقد على عشرة أساطين في خمسة
أذرع (١)

دار الشجرة

وبنى المقتدر بالله في أول القرن الرابع دارا فسيحة ذات بساطين مونقة
عرفت بدار الشجرة ، لشجرة كانت فيها مصنوعة من الذهب والفضة في
وسط بركة كبيرة أمام ايوانها وبين شجر بساطينها ، لها ثمانية عشر غصنا من
الذهب والفضة لكل غصن منها فروع كثيرة مكللة بأنواع الجوهر على شكل
الثمار ، وعلى أغصانها أنواع الطيور من الذهب والفضة ، إذا مر الهواء عليها
أبانت عن عجائب من ضروب الصفير والهدير . وفي جانب الدار من يمين
البركة تماثيل خمسة عشر فارسا على خمسة عشر فرسا ، ومثلها عن يسار
البركة قد ألبسوا أنواع الحرير المديج ، مقلدين بالسيوف وفي أيديهم المطارد ،
يتحركون على خط واحد فيظن الناظر اليهم أن كل واحد منهم يقصد
صاحبه (٢)

وفي دولة آل بويه بنى معز الدولة قصره المعروف بالدار المعزية ، أنفق في
بنائه ١٠٠٠٠٠ دينار وموه سقفه بالذهب - ذكروا أنهم لما أرادوا هدمه
بذلوا في حـك الذهب من سقفه ٨٠٠٠٠ دينار (٣) ولم يبق لهذه القصور
أو الدور أثر الآن (*)

(١) معجم ياقوت ٨٠٦ و ٩٢٤ ج ١

(٢) معجم ياقوت ٥٢٠ ج ٣

(*) عن بغداد أنظر : اليعقوبى ، كتاب البلدان لـاحمد بن محمد بن أبى يعقوب بن واضح
المعروف باليعقوبى ، طبعة جوينبول T.G.J. Juynboll ، لندن ١٨٦٠ ص ١ - ٢٨

ابن سراييون : صفة الجزيرة وبغداد نشره وترجمه الى الانجليزية Guy Le Strange
في مجلة الجمعية الاسيوية الملكية سنة ١٨٩٥

الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ، القاهرة ١٩٣٢ الجزء الاول . وقد ترجم معظم هذا الجزء
G. Salmon بعنوان Introduction topographique de l'histoire de Baghdad
الفصل الخاص ببغداد من المسالك والممالك للاصطخرى ، وصورة الارض لابن حوقل ،
وأحسن التقاسيم في معرفة الاقاليم للمقدسى

رحلة بنيامين التطيلي : طبعة عزرا حداد ، بغداد ١٩٤٥

حمد الله مستوفى : نزهة القلوب ، طبعة بومباي ١٨٩٤/١٣١١ Voyage en Arabia

ياقوت : معجم البلدان ، طبعة الساسى ، القاهرة ١٩٠٦ ، مادة بغداد

رحلة ابن بطوطة طبعة Defrémery et Sanguinetti ج ٢ ص ١٠٠ ومايلها

وأهم المؤلفات الحديثة :

Guy Le Strange, Baghdad during the Abbasid Caliphate, Oxford 1900

Tavernier, Les six voyages. Utrecht C. Niebuhr, Reisebeschreibung

ترجمه الى الفرنسية بعنوان Voyage en Arabie.

٣ - مبانى الامويين بالاندلس

اما الاندلس فقد بنى بها آل مروان قصورا سارت بذكرها الركبان ، ولا يزال بعض آثارها باقيا الى اليوم ، واكثرها فى قرطبة وغرناطة - فمنها فى قرطبة :

القصر الكبير

وهو آية من آيات الزمان ، شرع فى بنائه عبد الرحمن الداخل فى أواسط القرن الثانى للهجرة ، وأتمه من جاء بعده وبنوا القصور فى داخله . وقد رأيت عند ذكر ابنية قرطبة أن القصر المذكور مؤلف من ٤٣٠ دارا ، بينها قصور فخيمة لكل منها اسم خاص ، كالكمال والمجدد والحائر والروضة والمعشوق والمبارك والرشييق وقصر السرور والبديع . وقد غالوا فى زخرفها واتقانها ، وأنشأوا فيها البرك والبحيرات والصهاريج والاحواض ، جلبوا اليها الماء فى قنوات الرصاص على المسافات البعيدة من الجبال ، حتى أوصلوه اليها ووزعوه فيها ، وفى ساحاتها ونواحيها بواسطة تلك القنوات التى تؤديها الى المصانع (أى المنشآت) ، هذا الى صور مختلفة الاشكال من الذهب الابريز والفضة الخالصة والنحاس المموه ، الى البحيرات الهائلة والبرك البديعة والصهاريج الغريبة فى أحواض الرخام الرومية المنقوشة ، ينصب فيها الماء من أنابيب من الذهب أو الفضة بصور الحيوانات الكاسرة أو الصور الجميلة على اشكال بديعة (١)

مسجد قرطبة

ومن عجائب قرطبة مسجدها الشهير ، ذكروا أنه لم يكن فى بلاد الاسلام أعظم منه ولا أعجب بناء ، وكان فى مكانه كنيسة للنصارى شاطرهم عليها المسلمون عند الفتح كما فعلوا بالجامع الأموى فى دمشق ، ثم أخذوا فى توسيعه والزيادة فيه بأنقاض الكنائس على توالى الاجيال . وأعجب ما فيه صومعته أو المثدنة ، قالوا لم يكن فى مساجد المسلمين صومعة تعدلها ، بنيت بضخام الحجارة فبلغ طولها الى مكان موقف المؤذن ٥٤ ذراعا ، والى أعلى الرمانة الاخيرة ٧٣ ذراعا ، وعرضها فى كل تربيعة ١٨ ذراعا

وتدرج الجامع فى الاتساع بتوالى التجديد فيه ، حتى بلغت مساحته فى أيام

ونشر فى امستردام ١٧٧٦ - ١٧٨٦ - وترجم الى العربية ونشر فى مجلة سومر سنة ١٩٥٤
J. F. Jones, Memoire on the Province of Baghdad in Selections from the Records of the Bombay Government, Number 43 new series pp. 304 sqq. M. Streck, Die Alte Landschaft Babylonien, Sare und Herzfeld, Archaelogische Reise im Euphrat und Tigris gebiet
C. Huart, Histoire de Baghdad dans les temps modernes.

(١) نفع الطيب ٢١٦ ج ١

الخليفة الناصر ٢٢٥ ذراعا في ٢.٥ اذرع ، وزاد الحكم في طوله مائة ذراع وخمسة اذرع فصار طوله ٣٣٠ ذراعا ، وزاد ابن ابي عامر في عرضه ثمانين ذراعا فصار ٢٨٥ ، وأرضه مرصفة باحدى عشرة بلاطة ، الوسطى عرضها ١٦ ذراعا ، وعرض كل واحدة من الست الباقية ١١ ذراعا ، وزاد ابن ابي عامر ثمانى بلاطات عرض كل واحدة عشرة اذرع (**) . وكان سقفه قائما على ١٢٩٣ سارية من الرخام ، وعدد ثرياته ٢٨٠ ثريا ، منها ثريات المقصورة من الفضة الخالصة . وكان في وسط الجامع تنور نحاس يحمل ألف مصباح وكان للجامع تسعة أبواب مصفحة بالنحاس الأصفر ، الا باب المقصورة فانه من الذهب ، وكذلك جدار المحراب وما يليه وقد أجرى فيه الذهب على الفسيفساء . وفي رأس الصومعة ثلاثة تفافيح ، دور كل تافحة ثلاثة اشبار ونصف ، اثنتان من الذهب الابريز وواحدة من الفضة . وتحت كل تافحة وفوقها سوسنة قد هندست بأبدع صنعة ، ورمانة ذهب صغيرة على رأس الزج . وكان في بيت المنبر مصحف الخليفة عثمان ، وعليه حلية الذهب مكللة بالدر والياقوت ، وفوقه أغشية الديباج . وهو موضوع على كرسى من العود الرطب بمسامير الذهب . وقد أفاض صاحب نفح الطيب في وصف هذا الجامع وما كان ينفق فيه من الزيت والشمع فليراجع هناك (١) وتحول الجامع المذكور بعد دخول قرطبة في حوزة الافرنج الى كنيسة ، ولا يزال على بنائه الاسلامى وعليه النقوش الشرقية والكتابة العربية (***)

قصر الزهراء

ومن قصورهم في قرطبة « الزهراء » ، بدأ بانشائها الخليفة الناصر سنة ٣٢٥ هـ على أربعة أميال من المدينة ، وأتمها ابنه الحكم فاستغرق البناء أربعين سنة . وهى عبارة عن بلد كبير طوله من الشرق الى الغرب ٢٧٠٠ ذراع وعرضه ١٥٠٠ ، وعدد أعمدته أو سواريه ٣٠٠ سارية ، بعضها حمل الى قرطبة من روما وافريقية وتونس ، وبعضها أهدها صاحب القسطنطينية ، وفيها الرخام الأبيض والأخضر والوردى والمجزع . وكان في الزهراء مسجد فخيم وعدة قصور وحدائق ، على نحو ماتقدم في وصف القصر الكبير . وفيها البحيرات تسبح فيها الأسماك بألوانها وأنواعها ، وأحواض

(**) الاصح هنا ان يقال : وكان عرض المسجد احدى عشرة بلاطة ، الوسطى منها ارض من الباقيات ، اذ ان عرضها كان ١٦ ذراعا اما الباقيات فكان عرضها ١٤ ذراعا ، اما في الطول فكان عدد البلاطات اثنتى عشرة ، والمراد بالبلاطة هنا الجزء من البناء الذى يقع بين عمودين ويدور عليه من أعلى قوس واحد

(١) نفح الطيب ٢٦٠ ج ١

(**) المراجع عن مسجد قرطبة الجامع كثيرة ما بين قديمة وحديثة ، وقد اجمالنا وصفه واتينا بالتصويف الخاصة بذلك والمراجع التى اعتمدنا عليها في مقالنا عن تطور العمارة الاسلامية في الاندلس ، حوليات كلية الاداب بجامعة عين شمس، المجلد الاول سنة ١٩٥١ ص ١٩٢-١٩٣

الرخام المنقوش على أشكال شتى بين مذهب وغير مذهب ، في جعلتها حوض منقوش بتمائيل الانسان ، جرى به من القسطنطينية ونصبه الناصر في بيت المنام بالمجلس الشرقي المعروف بالمؤنس ، وجعل عليه ١٢ تمثالا من الذهب الأحمر ، مرصعة بالدر النفيس الغالي مما صنع بدار الصناعة في قرطبة ، بصورة أسد بجانبه غزال الى جانبه تمساح يقابله ثعبان وعقاب وفيل . وفي المجنبتين حمامة وشاهين وطاووس ودجاجة وديك وحدأة ونسر ، وكلها من ذهب مرصع بالجواهر يجرى الماء من أفواهها (١)

وكل الناصر النظر في بناء هذه القصور الى ابنه الحكم بعده . وذكروا أن الناصر كان ينفق عليها ثلث جباية الدولة ، وكانت ٦٠٠٠٠٠٠٠ دينار فينفق منها ٢٠٠٠٠٠٠٠ دينار كل سنة على ذلك البناء . وقد تقدم أنهم واصلوا العمل فيه ٤٠ سنة ، فلو فرضنا أنهم كانوا ينفقون هذا القدر في نصف هذه المدة فقط لبلغ مجموع ما أنفق على الزهراء أكثر من ٥٠٠٠٠٠٠٠٠ دينار ، ولكن يظهر أن الانفاق السنوى لم يكن يبلغ ثلث جباية المملكة الا في بضع سنين ، وأما في سائر مدة البناء فكانت النفقة أقل من ذلك كثيرا (٢)

وقد ورد في مكان آخر أن الناصر كان ينفق على بنائها في أيامه ٣٠٠٠٠٠٠ دينار في السنة ، فإذا حسبنا ما أنفقه ابنه الحكم فيما بقى من الأربعين سنة على هذه النسبة مع ما أنفقه هو بالإضافة الى المقدار السنوى المذكور - كان مجموع ما دخل في بناء هذه المدينة نحو ٢٠٠٠٠٠٠٠٠ دينار على الأقل . ولا غرابة في ذلك ، لأننا اذا أعدنا النظر في تفاصيلها رأينا فيها ما يفوق الحصر من المرصعات والمذهبات ، وقد أدخلوا فيها شيئا كثيرا من الذهب حتى جعلوا بعض قرميدها منه . وقد كان يتصرف في بنائها من الخدم والآفلة عشرة آلاف رجل و ١٥٠٠ دابة . وأغرب من كل ذلك أن الناصر انما عمد الى بناء الزهراء مرضاة لمحظية له كان اسمها « زهراء » طلبت اليه أن يبنى مدينة باسمها وتكون خاصة بها (٣)

(١) نفع الطيب ٢٤٨ و ٢٦٧ ج ١ وابن خلكان ٢٩ ج ٢
(*) انظر عن مدينة الزهراء التي ابتناها عبد الرحمن الناصر وابنها ابنه الحكم المستنصر ومدينة الزاهرة التي بناها المنصور محمد بن ابي عامر
Ricardo Velasquez Bosco, Medina Azzahra y Alamiyya (Madrid, 1912)
والمراد بالعمارية هنا مدينة الزاهرة التي بناها المنصور محمد بن ابي عامر ، وهي منسوبة اليه ، وتسمى أيضا مدينة المنصور . وقد أكمل ابحاث بلاسكت بوسكو الاستاذ ليوبولدو توريس بالباس في القسم الذي كتبه من العمارة الاندلسية الى نهاية الخلافة في المجلد الخامس من تاريخ اسبانيا الذي يشرف على تحريره رامون مندز بيدال . وهذا الجزء نصفه الاول ترجمة اسبانية للمجلد الثالث من تاريخ اسبانيا الاسلامية للفي بروفنسال ، والثاني دراسة عامة من الفن الاندلسي الى نهاية عصر الخلافة . وانظر أيضا :

Manuel Gomez Moreno, El arte arabe espanol hasta los Almohades
Vol. 3 Ars Hispaniae, Madrid, 1951.

(٢) نفع الطيب ٢٤٨ ج ١

الزاهرة

واقتمدى بالخليفة الناصر المنصور بن أبى عامر ، فابتنى سنة ٣٦٨ هـ قصرا (**) لاقامته سباه «الزاهرة» ليكون معقلا له يحميه من أعدائه ، فأقامه فى طرف البلد على نهر قرطبة الأعظم ، وحشد له الصناع والفعلة وبالع فى رفع أسواره وجعل فيه أبنية كثيرة من جملتها أهراء ودواوين ، وأقطع مآ حولها لوزرائه وكتابه وقواده فابتنوا الدور والقصور وغرسوا الحدائق ، فقامت الأسواق وتنافس الناس فى النزول فى اكنافها تقربا من صاحب الدولة ، حتى اتصلت أرباضها بأرباض قرطبة ، واتصلت بهما الزهراء من الجهة الأخرى ، فأصبح الناس يمشون بين هذه المدن عشرة أميال على ضوء السرج

قنطرة قرطبة

ويجدر بنا فى هذا المقام الإشارة الى القنطرة الفخيمة التى أقامها المسلمون على نهر قرطبة ، وكانت مبنية قبل الاسلام ثم سقطت فأعاد المسلمون بناءها على يد عبد الرحمن القافى ، وطولها ٨٠٠ ذراع ، وعرضها عشرون ذراعا ، وارتفاعها ٦٠ ذراعا ، وعدد حناياها ١٨ حنية ، وأبراجها ١٩ برجاً (١) (***)

قصر الحمراء وأمثاله

الحمراء قصر شهير فى غرناطة لا يزال شكله محفوظا الى الآن يقصده السياح من كل مكان ، بناه ابن الأحمر فى أواسط القرن الثامن للهجرة كما تقدم فى أرض مساحتها ٣٥ فدانا على مرتفع فسيح . ويقال انها سميت « الحمراء » نسبة الى لون قرميدها ، وفى هذا القصر كانت بركة السباع ، وفى وسطها تماثيل أسود تقذف المياه من أفواهها على شكل جميل (***)

وبنى المنصور بن الأعلى قصرا فخيفا فى بجاية ، أنشأ فيه بركة على حافاتها أسود يجرى الماء من أفواهها ، وعلى البركة أشجار من ذهب وفضة ترمى فروعها فى الماء ، وعلى أغصانها أطيار من أشكال شتى بألوان بديعة وصنع عجيب ، على مثال الشجرة التى ذكرنا انها نصبت فى قصر المقتدر العباسى عند كلامنا عن أبنية العباسيين . وقد نظم أحمد بن حمدى الشاعر الاندلسى قصيدة يصف بها بركة هذا القصر وخروج الماء من أفواه الأسود قال منها :

(*) يصف المؤلف الزهراء والزاهرة على انهما قصران ، والحقيقة انهما كانتا صاحبتين لقرطبة فى كل منهما القصور والمساجد ودور للادارات الحكومية

(١) نفع الطيب ٢٢٦ ج ١

(**) وأعيد بناء القنطرة مرة أخرى أيام هشام بن عبد الرحمن الداخل وأصلحها الحكم المستنصر والمنصور بن أبى عامر

(***) بدىء فى بناء قصور الحمراء فى أيام أبى الحجاج يوسف بن اسماعيل بن نصر ، سابع سلاطين بنى الأحمر (٧٢٢ - ١٢٣٢/٧٥٥ - ١٣٥٤) واجتهد فى استكمالها ابنه أبو عبد الله وحفيده محمد الخامس الملقب بالفتى بالله (٧٥٥ - ١٣٥١/٧٩٣ - ١٣٩٠) ومن جاء بعدهم انظر منها مقالنا الألف الذكر عن تطور العمارة الاندلسية ، ص ٢٢١ وما يليها

وضراغم سكنت عرين رياسة
فكانما غشى النضار جسومها
أسد كان سكونها متحرك
وتذكرت فتكاتها فكانما
وتخالها والشمس تجلو لونها
فكانما سلت سيوف جداول
وكانما نسج النسيم لمائه
وقس على ذلك قصر المأمون بن ذى النون الأندلسي ، فانه انفق في بنائه
بيوت الاموال ، وكان من عجائبه انه صنع فيه بركة ماء كانها بحيرة ، وبنى في
وسطها قبة من زجاج وساق الماء من تحت الأرض حتى علا فوق رأس القبة
بتدبير احكمه المهندسون ، فكان الماء ينزل من أعلى القبة وحواليها محيطا
بها متصلا بعمقه ببعض ، فكانت القبة في غلالة من ماء سكبلا لا يفتر والمأمون
قاعد فيها (٢)

٤ - مبانى مصر

مبانى آل طولون

أنشأ بنو طولون في مصر أبنية أشهرها الجامع الذى بناه أحمد بن طولون ،
لا تزال آثاره الى الآن بالقاهرة . والقصر الذى بناه في القطائع وجعل له
ميدانا كبيرا ، ولما توفي أحمد زاد فيه ابنه خمارويه وجعل الميدان كله بستانا
زرع فيه أنواع الرياحين وأصناف الشجر ، ونقل اليه الشجر اللطيف الذى
ينال ثمره القائم (أى الرجل الواقف) ومنه ما يتناوله الجالس من أصناف
خيار النخل . وحمل اليه كل صنف من الشجر المطعم العجيب وأنواع الورد،
وزرع فيه الزعفران وكسا أجسام النخل نحاسا مذهبا حسن الصنعة ، وجعل
بين النحاس وأجساد النخل مزاريب الرصاص وأجرى فيها الماء المدبر ، فكان
يخرج من تضاعيف قائم النخل عيون الماء فتتحد إلى فساق معمولة ، ويفيض
منها الماء الى مجار تسقى سائر البستان . وغرس فيه من الرياحان المزروع
على نقوش معمولة وكتابات مكتوبة يتعهدا البستانى بالمقراض حتى لا تزيد
ورقة على ورقة . وزرع فيه النيلوفر الأحمر والأزرق والأصفر الجنوى
العجيب . وأهدى اليه من خراسان وغيرها كل أصل عجيب ، وطعموا له
شجر المشمش باللوز وأشباه ذلك من كل ما يستظرف ويستحسن . وبنى
فيه برجاً من خشب الساج المنقوش بالنقر النافذ ليقوم مقام الأقفاص ،

(١) نفع الطيب ٢٢٣ ج ١

(٢) سراج الملوك ٥٠

وزوقه بأصناف الاصباغ ويلط أرضه وجعل في تضاعيفه أنهارا لطافا جداولها يجرى الماء مدبرا من السواقي التي تدور على الآبار العذبة ويسقى منها الأشجار وغيرها . وسرح في هذا البرج من أصناف القمارى والدباسى والنونيات وكل طائر جميل الشكل حسن الصوت ، فكانت الطير تشرب وتفتسل من تلك الأنهار الجارية في البرج ، وجعل فيه أوكارا في قواديس لطيفة ممكنة في جوف الحيطان لتفرخ الطيور فيها ، وعارض لها فيه عيادانا ممكنة في جوانبه لتقف عليها اذا تطايرت حتى يجابو بعضها بعضا بالصياح . وسرح في البستان من الطير العجيب كالطواويس ودجاج الحبش ونحوها شيئا كثيرا (*)

وعمل في داره مجلسا برواقه سماه بيت الذهب ، طلى حيطانه كلها بالذهب المحلى باللازورد المعمول في احسن نقش وأظرف تفصيل ، وجعل فيه على مقدار قامة ونصف صورا في حيطانه بارزة من خشب معمول على صورته وصور حظاياها والمغننيات اللاتي تغنيه بأحسن تصوير وأبهج تزويق ، وجعل على رءوسهن الأكاليل من الذهب الخالص الابريز الرزين . والكواذن المرسعة بأصناف الجواهر وفي آذانها الأجراس الثقيل الوزن المحكمة الصنعة ، وهى مسمرة في الحيطان ولونت أجسامها أشباه الثياب من الأصباغ العجيبة ، فكان هذا البيت من أعجب مباني الدنيا

وجعل بين يدى هذا البناء فسقية مملأها زئبقا . وذلك انه شكا طبيبه كثرة السهر فاشار عليه بالتدليك فأنف من ذلك وقال : « لا أقدر على وضع يد أحد على » فقال له : « تأمر بعمل بركة من زئبق » فعمل بركة يقال انها خمسون ذراعا طولاً في خمسين ذراعا عرضا ومملأها من الزئبق فأنفق في ذلك أموالا عظيمة . وجعل في أركان البركة سككا من الفضة الخالصة ، وجعل في السكك زنابير من حرير محكمة الصنعة في حلق من الفضة ، وعمل فرشاً من آدم (أى جلد) يحشى بالريح حتى ينتفخ فيحكم حينئذ شده ويلقى على تلك البركة وتشد زنابير الحرير التي في حلقة الفضة بسكك الفضة ، وينام على هذا الفرش فلا يزال الفرش يرتج ويتحرك بحركة الزئبق مادام عليه . وكانت هذه البركة من أعظم ما سمع به من الهمم الملوكية يرى لها في الليالى المقمرة منظر بهيج اذا تالف نور القمر بنور الزئبق (١)

مباني الفاطميين

ولما أفضى الأمر الى الفاطميين بنوا في القاهرة الجامع الأزهر ، وهو عامر الى

(*) انظر صفة ذلك بالتفصيل في النجوم الزاهرة لابن المحاسن ، المجلد الثالث الفصل الخامس بخمارويه بن احمد بن طولون
(١) المقرئ ٢١٦ ج ١

اليوم ، وقصورا أشهرها القصران الشرقى والغربى ، وأنفقوا على الأخير منهما ٢٠٠٠.٠٠٠ دينار (١) فقس على ذلك ما أنفقوه فى سائر القصور والدور ، كدار الفطرة ودار الديباج وغيرهما . ولما استبحر عمرانهم تفننوا فى بناء المقاصير والمناظر على ضفة الخليج وشاطئ النيل ، كمنظرة الجامع الأزهر ، ومنظرة اللؤلؤة على الخليج ، ومنظرة الفزالة بجانبها ، ومنظرة السكرية ، ومنظرة الدكة ، ومنظرة المقس ، ومنظرة التاج ، ومنظرة باب الفتوح ، ومنظرة البعل ، ومنظرة (**) دار الملك ، غير المتنزهات العظيمة والقصور الفخيمة فى الجزيرة والروضة ، كالقصر الذى بناه الأمر بأحكام الله لمحبيته البدوية وسماء الهودج

وكانوا يتأنقون فى زخرفة تلك المناظر والقصور تأتقا عظيما يدل على مبلغ حضارتهم وتفننهم . فمنظرة بركة الحبش كانت مصنوعة من خشب مدهون صور فيها الشعراء ، كل شاعر وبلده وعند رأس الشاعر أبيات نظمها فى ذكر المنظرة ، وبجانب كل صورة رف لطيف مذهب ، فاذا دخل الخليفة وقرا الأشعار أمر أن يحط على كل رف صرة مختومة فيها خمسون دينارا ، فيدخل الشاعر ويأخذ صرته (٢)

مباني الأيوبيين والمماليك

ولما انتقلت الدولة الى الأكراد كان أعظم آثارهم البنائية قلعة القاهرة ، بناها السلطان صلاح الدين ليعتصم بها من الشيعة ، ولا تزال قائمة الى اليوم ومعظم ما فى مصر الآن من الآثار البنائية انما هو من أعمال السلاطين المماليك ولاسيما المساجد ، كجامع السلطان حسن وجامع المؤيد وقايتباى وقلاوون وغيرها . ومن آثارهم قبور الخلفاء خارج القاهرة فانها لهم ، وان نسبت الى الخلفاء بالاسم ، غير ما اندثر من قصورهم . وكانوا يقلدون الفاطميين فى زخرفها كالرفرف الذى بناه الأشرف خليل بن قلاوون عاليا يشرف على الجيزة كلها ، وصور فيه أمراء الدولة وخواصها وعقد عليه قبة على عمد وزخرفها وكان السلطان يجلس فيه ، وقصر يلبغا ، بناه الملك الناصر محمد بن قلاوون سنة ٧٣٨ هـ لسكنى الأمير يلبغا حيث مدرسة السلطان حسن تجاه القلعة ، وغيرها

(١) المقيزى ٤٥٧ ج ١
 (**) المنظرة هى الغرفة الفسيحة يعمل الحائط المطل منها على النيل او الحديقة من الزجاج وتفتح فيه ابواب تؤدي الى شرفة واسعة ، أى انها كانت اقرب شىء الى ما نسميه اليوم terrace او esplanade ومن لفظ منظرة جاء اللفظ العامى « مندارة » بمعنى حجرة
 (٢) المقيزى ٤٨٦ ج ١

الثروة والرخاء ونتائجهما

واشتغال الخلفاء والأمراء بإنشاء المدن وبناء القصور والمتنزهات إنما هو من ثمار الثروة وتكاثر النقود في بيوت الأموال ، فتنقل إلى رجال الدولة وغيرهم على ما يبيناه في نظام الاجتماع ، ولذلك كان الخليفة أكثر الناس مالا لأنه قابض على بيت المال ، يليه الوزراء والكتاب والعمال فبنو هاشم فالأتباع والتجار وغيرهم ، وإليك أمثلة من ذلك

ثروة الخلفاء وأهلبيهم

لما كان الخلفاء يتولون شؤون الدولة بأيديهم كانوا أكثر الناس ثروة ، فلما عهدوا بها إلى الوزراء تحولت الثروة إليهم وأصبح الخلفاء أحيانا مثل سائر الفقراء (١) والأصل في ثروة بيت المال أن تكون للدولة تنفق في مصالحها ، وللخليفة بيت مال خاص به . ولكن الخلفاء تصرفوا في أموال الدولة أولا لأعتبارهم اتفاقا مساعدا على تأييدها ، ثم أنفقوها في الجوائز والهدايا لمثل هذه الغاية ، وتدرجوا إلى بدلها في ملذاتهم وسائر أسباب تنعمهم . وكان يبقى مع ذلك في بيوت الأموال شيء كثير . وقد بينا في الجزء الثاني من هذا الكتاب مقدار مابقى منها في خزائن الخلفاء الأولين من بنى العباس : المنصور والمهدى والمعتصم والمستعين والمكتفى وغيرهم ، وما صار إليهم من الضياع الكثيرة ، وذكرنا ما بلغت إليه ثروة أمهات الخلفاء ولاسيما الخيزران أم الرشيد وقبيصة أم المعتز وغيرهما ، فلا حاجة إلى التكرار . وإنما نأتي ببعض التفصيل على سبيل المثال - ذكروا أن المكتفى خلف ١٠٠.٠٠٠.٠٠٠ دينار هذا تفصيلها (٢)

دينار

من العين والورق (أى الفضة) والأواني المعمولة	٢٠.٠٠٠.٠٠٠
» الفرش	٢٠.٠٠٠.٠٠٠
» الكراع والسلاح والغلمان	٢٠.٠٠٠.٠٠٠
» الضياع والعقار والأملاك	٢٠.٠٠٠.٠٠٠
» الجوهر والطيب وما يجري مجراهما	٢٠.٠٠٠.٠٠٠

(١) الجزء الثاني من هذا الكتاب

(٢) لطائف المعارف ٧٢

ثروة رجال الدولة وغيرهم

وذكرنا في الجزء الثاني أيضا سبب ثروة الوزراء ومقادير الأموال التي حصلها الحسن بن الفرات والمادرائي وابن كلس والأفضل وابن شهيد الاندلسي واليك أمثله أخرى :

أول من أثرى من الوزراء البرامكة في عهد الرشيد ، فكثرت ضياعهم (الأبعديات والجفالك) (**) حتى بلغت غلة يحيى وابنه جعفر فقط ٢٠.٠٠٠.٠٠٠ دينار في السنة . ولما نكبوا وقبضت أموالهم بلغ مقدار ما قبض منها ٣.٠٦٧.٠٠٠ دينار غير الضياع والدور والرياش (١) ويشبه الوزراء ببغداد الكتاب بمصر ، وقد أثرى منهم جماعة كبيرة كآل المادرائي (**) في أواسط القرن الثالث للهجرة ، فملك أحدهم محمد بن علي المادرائي ماقيمته ٣.٠٠٠.٠٠٠ دينار من الضياع بالشام ومصر والامتعة مع كثرة ما كانوا ينفقونه على الناس من الرواتب . وكانت غلته ٤٠.٠٠٠.٠٠٠ دينار في السنة (٢) وهو مع ذلك لا يعد شيئا بالنظر الى البرامكة . ومثلهم آل المغربي وآل الكتامي بمصر أيضا

(*) الأبعدية هي الضيعة او العزبة ، وهو لفظ عامي مصرى ، والجفلك هو الضيعة باللغة التركية

(١) العقد الفريد ٢٢ ج ٣

(**) في الاصل المارداني والصحيح المادرائي ، وقد جاء الخطأ من نسخة « الخطط » التي رجع اليها المؤلف . والمادرائيون أسرة فارسية الاصل ، أصلها من مادرايا ، وقد أول رجل منهم الى مصر أيام أحمد بن طولون على الاغلب ، ودخل في خدمة الدولة وارتقى في مناصبها ثم استندى أقاربه ، فتكاثروا في مصر

وقد عظم أمر المادرائيين في مصر خلال العصرين الطولوني والاخشيدى وما بينهما ، وبسطوا أيديهم على الشؤون المالية للبلاد ، فكانوا أشبه بوزراء المالية ، وربما لقب بعضهم بالوزير . وكانوا يضمنون جبايات مصر للحكام بمبالغ لا يستطيع غيرهم التقدم بها ، وكانت لهم من المعرفة بشئون البلاد الخراجية والمالية ما يمكنهم من جمع المبالغ التي يرتبطون بها ، وكان هذا سر قوتهم ، إذ لم يكن أحد من الحكام يستغنى عنهم ، وظلوا مسيطرين على ماليات مصر سبعين سنة انتهت بدخول الفاطميين مصر . وأهم رجال هذه الأسرة :

١ - أحمد بن إبراهيم أو محمد بن أحمد بن إبراهيم المادرائي تولى خراج مصر سنة ٢٦٦ هـ / ٨٧٩ شركة مع علي بن الحسين بن شعيب المدايني ، وقد ولاه الخراج أحمد ابن طولون

٢ - علي بن أحمد المادرائي ، وهو أخو الاول أو ابنه وكان يعينه في عمله ، وقد أصبح كبير البيت وعميد الأسرة أيام خمارويه بن أحمد بن طولون

٣ - أبو بكر بن علي بن أحمد بن المادرائي السابق ذكره ، وهو أكبر رجال البيت قاطبة ، وظل المسيطر على شئون مصر المالية حتى وفاته في سن الخامسة والثمانين باستثناء فترة ١٤ عاما

٤ - أبو علي الحسين بن أحمد المادرائي هم ابى بكر السابق ذكره ويلقب بأبى زنبور ، وهو يلى أبا بكر في الاهمية والكفاية

أنظر فصل « المادرائيين » من كتاب « مصر في عهد الاخشيديين » للدكتورة سيدة اسماعيل كاشف ، القاهرة ١٩٥٠ ، ص ٣٧ - ٥٢

H., Gottschalk, Die Madaridjün (Berlin und Leipzig 1931).

Wuestenfeld, Die Statthalter von Aegypten zur Zeit der Chalifen, Gottingen 1875

Zaky M. Hassan, Les Tulunides, Paris 1933

(٢) المقرئى ١٥٥ ج ٢

أما العمال والأمراء فقد كانوا يحشدون الأموال الكثيرة ، ولاسيما المفوضين منهم ، ويسهل ذلك عليهم لاطلاق أيديهم في مصادر الجباية فيجمعون ماشاءوا وكيف شاءوا . وقد اثروا وكثرت أموالهم من أيام بنى أمية قبل زمن الوزراء ، فخلف عمرو بن العاص سبعين بهراً من الدنانير - والبهار أردبان بالمصرى - ذهباً (١) وبلغت غلة خالد القسرى ١٣٠٠٠٠ درهم (٢) وصاروا في عهد بنى العباس أوفر ثروة ، ولاسيما بعد أن طمعوا في الاستقلال ، فخلف يعقوب ابن الليث الصفار في بيت ماله ٥٠٠٠٠٠ درهم و ٤٠٠٠٠ دينار (٣) وقس على ذلك أموال السلاطين المماليك بمصر ورجالهم . وكانت مخلفاتهم من الجواهر والحلى تقدر بالأرطال والقناطير والصناديق - مثال ذلك ما خلفه الأمير سيف الدين تنكز التستري منها ١٩ رطلاً من الزمرد والياقوت ، وستة صناديق جواهر وفصوص الماس ، و ١٢٥٠ حبة لؤلؤ كبار مدورة مما زنته درهم الى مثقال ، و ٢٤٠٠٠ مثقال ذهب ، و ١٠٠٠٠٠ درهم فضة ، وأربعة قناطير مصرية من المصاغ والعقود ونحوها كالخلق والأساور ، وستة قناطير فضيات ، و ١٢٠٠٠٠ دينار . فقس عليه ثروة الخلفاء الفاطميين والسلاطين والمماليك وغيرهم من سلاطين المسلمين وملوكهم

غير ثروة الخواشي والاتباع ، ممن اثري بالصناعة والأدب أو التجارة ، فقد ذكرنا ثروة بعض التجار فيما تقدم ، فاعتبر ذلك في سواهم من الأطباء والمغنين والشعراء ، فان ابراهيم الموصلى مغنى الرشيد توفى عن ٢٤٠٠٠٠ درهم (٤) وذكرنا في باب الرواتب من الجزء الثانى ما كان يقبضه جبرائيل بن بختيشوع طبيبه

نتائج الثروة

من قواعد العمران اذا تكاثرت الأموال في أيدي الناس ان يتوسعوا في الانفاق ويتنعموا بمعيشتهم ، فيتأنقوا في الطعام والشراب والسماع وغيرها من الملذات الجسدية ، ويتنعموا باللبسة الثمينة والرياش الفاخر . ثم يطلبوا الملذات المعنوية من التفاخر باقتناء المجوهرات والعقارات ، ويلتمسوا سعة الشهرة فيقربوا من يضمن لهم ذلك كالشعراء ورواة الاخبار في ذلك العهد ، كما يفعل بعض اغنياء زماننا بالتقرب من ارباب الصحافة . ونقسم الكلام في هذا الباب الى فصول :

(١) المقرئى ٣٠١ ج ١

(٢) ابن الاثير ١٠٣ ج ٥

(٣) المسعودى ٣١٤ ج ٢ وابن خلكان ٣١٩ ج ٢

(٤) سير الملوك ١١٣

١ - التائق في الطعام

قد رأيت في كلامنا عن أطعمة العرب أنها كانت ساذجة قليلة ، ثم تعددت بعد الاختلاط بالأعاجم ولا سيما الفرس . والعرب قلدوا الفرس في أكثر أسباب الحضارة فضلا عن نظام الحكومة . فكانوا إذا أحوجهم الاحتفال بعيد أو عرس أو ختان سألوا عما يفعله الفرس في مثله وقلدوهم فيه - هموا بذلك من عهد الأمويين ، وكان الصحابة قبلهم يتحاشون التمتع اقتداء بخلفائهم الراشدين مع غلبة البداوة على طباعهم . فأبو موسى الأشعري كان يتجافى عن أكل الدجاج لأن العرب لم يهدوا ذلك . وكانوا يتجنبون الاكثار من أكل اللحوم ويعتقدون أضرارها ، نحو ما يعتقد النباثيون اليوم تمثلا بما قاله عمر بن الخطاب : « مدمن اللحم كمدمن الخمر » . فلما حكم الأمويون ومالوا الى التمتع كان الفرس أحسن مثال لهم . وأراد غير واحد من أمراء العراق تقليدهم في ذلك ، ولكن البداوة كانت تغلب عليهم فيرجعون . ذكروا أن الحجاج بن يوسف أولم لختان أحد أولاده فاستحضر بعض الدهاقين ليسأله عن ولائم الفرس وقال : « أخبرني بأعظم صنيع شهدته » فقال : « شهدت أيها الأمير بعض مرازية كسرى وقد صنع لأهل فارس صنيعا أحضر فيه صحائف الذهب على أخونة الفضة أربعا على كل واحد ، وتحمله أربع وصائف ويجلس عليه أربعة من الناس ، فاذا أطعموا أتبعوا أربعتهم المائدة بصحافها ووصائفها » فلما سمع الحجاج ذلك أكبره وغلبت عليه البداوة فقال : « يا غلام انحر الجزر وأطعم الناس . . » (١)

على أنهم مالبثوا أن رضخوا لتيار الترف وتكيفوا لموافقة البيئة التي تحف بهم ، فبعد أن كانوا يحسبون الكافور ملحاً والأرز طعاماً مسموما والخبز المرقق كاغداً ، وبعد أن أكلوا العلّز والخنافس والعقارب وعجنوا الحنطة بنخالها (٢) فاقوا الفرس والروم في التائق والتنعيم ، فتفننوا في معالجة اللحوم واصطناع التوابل المنبهة لشهوة الطعام التماسا للمزيد من اللذة . فكان الخلفاء والملوك من بنى هاشم إذا جلسوا الى الطعام يقف الأطباء بين أيديهم ومعهم البراني (٣) بالجوارشنيات الهاضمة المسخنة الطابخة الموقية للحرارة الغريزية في الشتاء على اصطلاحهم في ذلك العصر . ويقفون في الصيف ومعهم الأشربة الباردة والجوارشنيات الموافقة لذلك الفصل (٤) واقتدى بهم سائر الأمراء وأهل الدولة فكانوا يستشيرون الأطباء ويستعينون بهم في حفظ صحتهم ، حتى في أثناء

(١) ابن خلدون ١٤٥ ج ١

(٢) ابن خلدون ١٧٠ ج ١

(٣) البراني جمع برنية ، وهي الاناء الصغير . والجوارشنيات مساحيق كانوا يتعاطونها لتسهيل الهضم

(٤) طبقات الأطباء ١٧٥ ج ١

الطعام وهم على المائدة ، وكان سيف الدولة اذا حضر الطعام جلس معه على المائدة ٢٤ طبيباً أرزاقهم جارية

وغالى الخلفاء فى استحضار ما اشتهر بطيبه من الوان اللحوم والطيور والفاكهة ولو بعد مكانه ، فيحملونه على البريد ينفقون فى ذلك الاموال الكثيرة (١) وكانوا يربون الطيور الداجنة على اطعمة مغذية يتوهمون انها تزيد فى لذة طعمها أو نفعها أو تسهل هضمها . فكانوا يعلفون الفراريح الجوز المقشر ويسقونها اللبن الحليب (٢) وتفنن الطهارة فى اصطناع الأطعمة التى يظنون فيها الغذاء الكثير أو النفع الصحى ، وربما فعل بعضهم ذلك مغالاة فى الاحتفاء ، كما فعل ابراهيم ابن المهدي فى زيارة زاره فيها الرشيد فاصطنع له أطعمة بينها جام سمك مقطع فاستصغر قطعه ، فسأله الرشيد عن ذلك فقال : « يا أمير المؤمنين هذه السنة السمك » وقدرت نفقة ما فى ذلك الجام بألف درهم (٣) وقس عليه تفننهم فى اصطناع الفالودج بدهن الفستق والمخ المعقود بالسكر والطبرز والعسل

فاتسعت مطابخ الخلفاء والأمراء لتعدد الوان الأطعمة والتوسع فى النفقة عليها ، حتى صار لكل صنف منها خدم عليهم رئيس . فكان عندهم لتربية الطيور ادارة قائمة بذاتها عليها رئيس ، وبلغت علوفة البط وحدها على أيام المقتدر العباسى ٣٠ قفيزاً من الشعير كل شهر (٤) فاعتبر كم يحتاج اليه احدهم اذا أراد نقل مطبخه من الدواب لحمله . ذكروا أن عمرو بن الليث الصغار كان مطبخه يحمل على ٦٠٠ جمل (٥) وكان للخليفة المقتفى العباسى ثمانون جملاً تحمل الماء من دجلة لشرب عياله (٦) وأما مقدار المطبوخ من كل طعام فلا قياس له ، على أنهم كانوا يجعلونه أضعاف ما يحتاجون اليه مخافة أن يطرقهم أضياف ، فكانت الأطعمة تفيض بمقادير كبيرة يحملها الخدم ويبيعونها ويرتفقون بأثمانها (٧)

فنتج من الانغماس فى الأكل والتفنن فى التشويق اليه كثير من علل القنائة الهضمية ، توالى على أهل الترف فى ذلك العهد كالتولنج وتلبك المعدة والدوزنطاريا ، وغيرها من عواقب النهم فى اللحوم كالنقرس والروماتزم ونحوهما وتسلمت السويداء على أمزجتهم ، وتولتهم حدة المزاج فجرهم الغضب الى

-
- (١) لطائف المعارف ٩٥ وابن بطوطة ٣ ج ٢
 (٢) طبقات الاطباء ١٤٠ ج ١
 (٣) المسعودى ١٩٩ ج ٢
 (٤) تاريخ الوزراء ٢٥١
 (٥) الفخرى ٢٣٢
 (٦) الفخرى ٢٧٦
 (٧) المقريزى ٣١٨ ج ١

سرعة الفتك والقتل من تغلب السويداء ، كما يتضح من مراجعة أخبارهم .
وعلة ذلك في الغالب فساد الهضم . واشتهر من الخلفاء والأمراء غير واحد
من الأكلة ، منهم في أيام بنى أمية معاوية بن أبى سفيان وعبيد الله بن زياد
والحجاج بن يوسف وسليمان بن عبد الملك واشتهر من بنى العباس محمد
الأمين (١)

٢ - البذخ في الألبسة

كان المسلمون في صدر الاسلام يتوخون الخشونة في العيش والتعفف في
المطعم والملبس ، فكان الخليفة من الراشدين يمشى في الأسواق وعليه القميص
الخلق المرقوع الى نصف ساقه ، أو ثوب من كرباس غليظ وفي رجله نعلان
من ليف وحمائل سيفه من ليف وفي يده درة يستوفي الحد بها (٢) . وكان
عمالهم في مثل حالهم ، اذا وفد أحدهم على الخليفة لبس جبة صوف وتعمم
بعمامة دكناء واحتلدى خفين ودخل عليه (٣) وأول من اتخذ زى
الملوك من أمراء المسلمين معاوية منذ كان أميراً في الشام . وقدم عليه عمر بن
الخطاب في أثناء ذلك فلما رآه في ابهة الملك أنكرها عليه وقال له : « أكسروية
يا معاوية ؟ » (٤)

ثم تحضروا وكثرت الأموال بين أيديهم وخالطوا أهل الترف من الاعاجم ،
فاضطروا بطبيعة المدنية الى التبسط في العيش والتنعيم باللباس . وأحب
الامويون الوشى كما تقدم ، وأكثرهم رغبة في لبسه هشام بن عبد الملك ،
فاجتمع عنده ١٢٠٠٠ قميص وشى و ١٠٠٠٠ تكة حرير . وكانت كسوته
اذا حج تحمل على ٧٠٠ جمل (٥) وفي أيامهم تسابق الصناع الى اجادة الوشى .
وزاد المسلمون بدخاً في أيام بنى العباس ، ورغب أهل التجارة في حمل أصناف
المنسوجات الحريرية والصوفية بين موشى ومطرز ومحوك بالذهب أو الفضة
ومرصع بالحجارة الكريمة على اختلاف البلاد التى يصنع فيها ، على نحو
ماييناه في كلامنا عما يحمل من أصناف التجارة الى بغداد

ومن أهم المنسوجات الثمينة الخز ، وهو نسيج ناعم يصنع من الحرير ومن
وبر الخرز وهو ذكر الارانب (٦) والابريسم حرير خالص ، والديباج نسيج
حريرى موشى بالقصب باشكال الحيوانات ونحوها ، والبز نسيج قطنى ثمين
وغير ذلك من أصناف الحرير والكتان والأودارى ، والملحم والمعلم والمنير

(١) المسعودى ٢٦٧ ج ٢ والفرج بعد الشدة ١٠٢ ج ٢

(٢) الفخرى ٢٥ و ٦٦

(٣) العقد الفريد ٦ ج ١

(٤) ابن خلدون ١٦٩ ج ١

(٥) المستطرف ٤٠ ج ٢ والعقد الفريد ٢٦٦ ج ٢

(٦) الف باء ١٨٧ ج ٢

ومنسوجات الشعر أو الوبر أو الصوف ، وما يلحق ذلك من أنواع السمور والقاقم وغيره - يصنعون منها الاقبية والدراريع والطبالسة والجيب والعمائم والأبراد والغلائل والملاحف والمآزر والسراويلات والشاشيات والتكك وغيرها وكان الصنائع يتبارون في اتقان هذه الصناعات ويغالون في ترفيعها ، لما يلاقونه من البذل في ابتياعها لتوفر الثروة بين ايدى الناس ولاسيما الخليفة وأهل دولته . فكان هؤلاء يتهافتون على اقتناء الالبسة ، لا يبالون كم يكون ثمنها حتى بلغت قيمة العمامة من الديبقي خمسمائة دينار ، وهم مع ذلك يكثرون من اقتنائها . وربما لبس الواحد ٩ اقبية كل قباء بلون خاص للمفاخرة في البلذخ . وقد تزيد على اضعاف حاجتهم اليها فيجتمع عند احدهم عشرات أو مئات أو آلاف من القطعة الواحدة ولاسيما الخلفاء - مثاله ما خلفه المكتفى بالله من الالبسة وهو :

عدد	
٤٠٠٠٠٠ ر	من الثياب المقصورة سوى الخامات
٦٣٠٠٠ ر	» الأثواب الخراسانية المروية
٨٠٠٠ ر	» الملاعات
١٣٠٠٠ ر	» العمائم المروية
١٨٠٠ ر	» الحلل الموشاة اليمانية وغيرها منسوجة بالذهب
١٨٠٠٠ ر	» البطائن التي تحمل من كرمان في انابيب القصب
١٨٠٠٠ ر	» الأبسطة الارمنية

وتوفى ذو اليمينين وفي خزانته ١٣٠٠٠ سروال لم يستعملها ، ووجدوا في كسوة بختيشوع الطبيب ٤٠٠ سروال ديبقي ، ولما قتل برجوان خادم الوزير بمصر وجدوا في تركته ألف سروال ديبقي بألف تكة حرير

وغالوا في البلذخ حتى كسوا دوابهم المنسوجات الحريرية الموشاة ، وكان الفاطميون يلبسون الفيلة اجلة في الخسرواني الاحمر المذهب (*) . وكان في القاهرة دار يصنع فيها الديباج ونحوه . وكان عند الفاطميين خزانة للثياب يسمونها دار الكسوة يصطنعون فيها جميع أنواع الثياب والبز ، ويكسون بها الناس على اختلاف اصنافهم كسوة الشتاء وكسوة الصيف . وقد فصل المقرئى ما تحويه تلك الدار من الالوان والاشكال (١) ولما جهز خمارويه ابنه قطر الندى الى الخليفة المعتضد العباسى كان من جملة الجهاز ألف تكة ثمن الواحدة عشرة دنانير (٢) وقس عليه سائر الملابس

(*) أى يجلونها بالخسرواني الاحمر المذهب

(١) المقرئى ٤٠٩ ج ١

(٢) المقرئى ٣١٩ ج ١

٣ - الأثاث والرياش والمجوهرات

كان الخلفاء الراشدون يجلسون على الأرض مثل سائر الناس وكذلك عمالهم ، فكان عمرو بن العاص بمصر يجلس في قصره على الأرض مع العرب ، ويأتيه المقوقس ومعه سرير الذهب محمول على الأيدي لجلوسه شأن الملوك يومئذ ، فيجلس عليه وهو على ماتقدم ، وفاء له بما اعتقد معهم من الذمة واطراحا لأبهة الملك . فما لبث المسلمون أن تحضروا وأثروا حتى اتخذوا الأسرة من الذهب والعاج وفاقوا الأكاسرة والقيصرة قبلهم . وأول من اتخذ السرير في الاسلام معاوية بن أبي سفيان ، ويريدون بالسرير المقعد أو الكرسي الكبير . ولم يقدم معاوية على ذلك الا بعد استئذان المسلمين ، واعتذر بثقل جسمه فزعم أنه بدين ، فأذنوا له فاتخذوه واقتدى به من جاء بعده من الخلفاء (١)

الأثاث والرياش عند الفرس

لما خرج المسلمون للفتح في زمن الراشدين كان أكثر مالقوه من الفرش الفاخر والمجوهرات الثمينة في فارس وعند فتح المدائن ، فدهشوا منه ولم يعرفوا قيمته . ذكروا بدويا ظفر يوم المدائن بحجر من الياقوت كبير يساوي مبلغا عظيما فلم يدر قيمته ، فاشتراه منه بعضهم بألف درهم ثم علم أنه كان يساوي أضعاف ذلك المبلغ فلأمله أصحابه على تفريطه به فقال : « لو عرفت عددا أكثر من الألف لطلبت به » (٢)

وكان في جملة ما عثروا عليه في المدائن كثير من الآنية والحلية الذهب المرصعة بالجواهر ، وفيها تاج كسرى نفسه والبسة من الديباج المنسوج بالذهب المنظوم بالجواهر . وظفر آخرون بسفطين في أحدهما فرس من ذهب بسرج من فضة وعلى ثغره ولبائه (*) الياقوت والزمرد المنظوم على الفضة وفارس من فضة مكلل بالجواهر ، وفي الآخر ناقة من فضة عليها شليل من ذهب مكلل بالجواهر . ووقع لهم بساط يسمونه القظيف طوله ٦٠ ذراعا في ٦٠ مطرزا بالصورة وعليه فصوص كالأنهار أرضها مذهبة ، وخلال ذلك فصوص كالدر وفي حافته كالارض المزروعة والارض المبجلة بالنبات في الربيع ، والورق من الحرير على قضبان الذهب والفضة وثمره الجواهر . وحمل هذا البساط الى عمر في المدينة فقطعه وفرقه في أصحابه مثل سائر الغنائم (٣)

وكان عمر اذا جاءته الغنائم من العراق وفيها الجواهر بكى لما كان يخافه من

(١) ابن خلدون ٢١٧ ج ١

(٢) الفخرى ٧٤

(*) أى صدره

(٣) ابن الاثير ٢٥٥ ج ٢

مصر المسلمين الى الترف المؤذن بالانحدار . وكذلك أبو بكر الصديق ، وله سبق في نصره الاسلام والفضل في تأييده ، فلما حضرته الوفاة وبخ المهاجرين وخوفهم وقال : « والله لتتخذن نضائد الديباج وستور الحرير » والنبي (صلم) قبلهما نهى عن لبس الحرير واتخاذ آنية الذهب (١) فلم ينفعهم ذلك كله ، فما كادوا يأخذون بأطراف الحضارة حتى انغمسوا في أسباب التمتع بالفرش الوثير والرياش الفاخر

بدأ بذلك الأمويون لما تقدم من رغبتهم في الدنيا وتحويلهم الخلافة الى الملك ، فأكثر خلفاؤهم المسرفون ولاسيما الوليد بن يزيد من عقود الجوهر يغيرها في كل يوم كما تغير الثياب ، وكان يجمعه من كل وجه ويغالي فيه حتى أغلاه (٢) على أنهم اقتصروا من أسباب الحضارة على مثل ذلك لرغبتهم في البقاء على البدواة . الا ما اتخذوه من الستائر المطرزة التي كانت تصنع لهم في مصر كما تصنع للروم من قبل ، عليها طراز باليونانية مفاده البسطة عند النصارى (٣) فأبدلها عبد الملك بالطراز العربى بصورة التوحيد . غير ما استعملوه من الوسائد المزرکشة

اللائك والرياش عند العباسيين

لما انتقلت الخلافة الى العباسيين اشتغل السفاح والمنصور بتأسيس الدولة وتأييدها ، فلما تأيد سلطانهم مالوا الى الترف فأخذوا بتقليد الدول السابقة لهم عملا بناموس العمران ، فاقتنوا الأسرة الذهب المرصعة بالجواهر أو الابنوس المطعم بالعاج ، واتخذوا المقاعد والتمارق والكراسى ، ونصبوا منائر الذهب أوقدوا فيها الشموع من العنبر ، وعلقوا الستور المطرزة والموشاة ، وأفترشوا البسط والطنافس المزرکشة والحصر المنسوجة بالذهب المكللة بالدرواليقاوت (٤) وغالوا في اقتناء آنية الذهب والفضة يأتون من كل بلد بأحسن مصنوعات وأثمنها فحملوا الستور المعلمة من فسا ، والبسط والمصليات من تستر وبخارا ، والحصر من عبادان ، والمقاعد من دشت — على أن أحسن أصناف الفرش المذهبة بطراز الذهب كانت تأتيهم من أرمينية . والطاقم الأرمنى — وهو عشر مصليات بمخادها ومساندتها ومطارحها ويساطها — يساوى خمسة آلاف دينار (٥) وكانت أطباق الخشب لآنية الطعام تأتيهم من طبرستان ، والزجاج والخزف من البصرة وأكثره وارد في الأصل من بلاد الصين على ما فصلناه في كلامنا عن التجارة من هذا الجزء . ولكن الزجاج الرقيق كان يحمل اليهم من الشام وكان يضرب به

(١) الف بء ١٨٧ ج ٢

(٢) الاغانى ١٢٩ ج ٦

(٣) الديمري ٥٨ ج ١

(٤) ابن خلدون ١٤٥ ج ١

(٥) الفرج بء الشدة ١٠٣ ج ١

المثل بالرقّة والصفاء فيقال أرق من زجاج الشام وأصفى من زجاج الشام (١) — اتخذوا ماتقدم من الآنية والمفروشات تقليداً للفريس والروم على ما كانت عليه عندهم ، ثم عربوها فجعلوا ما ينقش عليها من الكتابة باللغة العربية بين أمثال وأشعار وحكم ينقشونها على الستور ويعلقونها بمسامير الذهب والفضة (٢) ويزركشون البسط والطنافس فيرسمون في أواسطها أشكالاً وصوراً مما في البر والبحر ويطرزون حواشيها بالذهب أو القصب أبياتاً من الشعر وربما طرزوا دور البساط (أى حافته) بقصيدة (٣) وغالوا في الزخرفة حتى نقشوا الأشعار على آنية البلور وأطباق الطعام وعلى جدران القاعات وفوق أبوابها — يتفاوت ذلك شكلاً ومقداراً بتفاوت طبقات الناس من المطرز بالحريز إلى المزركش بالقصب فالمحلى بالذهب فالمرصع بالجوهر — كالבساط الذي كان لأم المستعين وعليه صورة كل حيوان من جميع الأجناس وصورة كل طائر من ذهب وأعينها يواقيت وجواهر أنفقت في صنعه ١٣٠.٠٠٠.٠٠٠ درهم (٤)

وأحدث العباسيون في عهد الرشيد أشكالاً من الفرش وفنونه لم يستبقهم إليها أحد ، منها ما ينسبون اختراعه إلى زوجته زبيدة ، فقد ذكروا أنها أول من اتخذ القباب من الفضة والابنوس والصندل وكلاليها من الذهب والفضة ملبسة بالوشى والسمور والديباج وأنواع الحرير الأحمر والأصفر والأخضر والأزرق (٥)

واخترع العباسيون المذاب وهي نوع من المراوح لم تكن معروفة قبلهم (٦) وتفننوا في تزيينها وكتابة الأشعار عليها مما يناسب المراد بها أو يشار به إلى غرض . كما فعل أبو العتاهية في طلب الجارية عتبة من الرشيد ، وكان يخاف أن يرده ، فأهدى إليه ثلاث مراوح كتب على كل منها بيتاً هذا مجموعها :

ولقد تنسجت الرياح لحاجتى فإذا لها من راحتيه شميم
أعلقت نفسى من رجائك ماله عنق يحث اليك بنى ورسيم
ولربما استأسيت ثم أقول لا ان الذى ضمن النجاح كريم (٧)
على أن كتابة الأشعار على المراوح كانت معروفة في أيام بنى أمية (٨)

(١) لطائف المعارف ٩٥

(٢) الاتليدى ٩٨

(٣) الاغانى ٤١ ج ١٥

(٤) المستطرف ١٢٤ ج ١

(٥) المسعودى ٣٦٦ ج ١

(٦) الاغانى ٨١ ج ١٢

(٧) المسعودى ١٩٦ ج ٢

(٨) العقد الفريد ١٨٤ ج ٢

المجوهرات عند العباسيين

غالى الخلفاء العباسيون فى اقتناء المجوهرات ، ولا سيما الدر وهو اللؤلؤ الكبير والياقوت الأحمر القانى ويسمى البهرمانى ، ويتلوه الأحمر المشرقى الرمانى ثم الأزرق العميق وتشوب زرقته حمرة ويسمى الاسمانجونى ، وبعده الأصفر وهو الفاقع اللون وبعده الذهبى . ولكل من هذه الاشكال قيمة تختلف باختلاف الصفاء والحجم . ومنها الزمرد وأحسنه يعرف بالذبابى لقرب لونه من لون الذباب الكبير المائل الى الخضرة . والماس كانوا يفضلون منه مايشوب لونه حمرة يسيرة - هذا أهم ماكانوا يتفاخرون باقتنائه من الحجارة الكريمة ، وأما الفيروز والمرجان والعقيق والجزع فقلما كان الملوك يكتنونه لكثرة

واكثر ماتناقله المسلمون من الحجارة الكريمة فى أوائل دولتهم مأخوذ من غنائم الفرس ، لأنهم غنموا ما يفوق الخصر من الجواهر التى قضى الفرس الأجيال وهم يجمعونها ويتوارثونها ، فقبضها العرب صفقة واحدة ولم يعرفوا قيمتها كما بيناه آنفا . وأصابوا نحو ذلك لما حاربوا الأكراد فانهم غنموا سफطا فيه جواهر حملوه الى عمر فى جملة الغنائم فأمر ببيعه وقسمة ثمنه فى المسلمين ، فباعه وقسمه وكان الفص يباع بخمسة دراهم وقيمته عشرون ألفا (١)

ولما تحضرُوا صاروا يشترون الجواهر بالأثمان الغالية ، فاشترى الرشيد فص ياقوت أحمر بأربعين ألف دينار وكان قديما ويعرف بالجبل والملوك تصونه ، فنقش عليه الرشيد اسمه (٢) واشترى فصا آخر بمائة وعشرين ألف درهم (٣) وعرض أحد تجار المصوغات ببغداد على يحيى بن خالد سفت جواهر فساومه على ثمنه بسبعة ملايين درهم (٤)

وكثيرا ماكانوا يستخدمون الجواهر بدلا من المبالغ الكبيرة فاذا عزم أحدهم على سفر طويل يستغرق نفقة عشرة آلاف دينار مثلا ، فبدلا من أن يحمل ذلك المال ذهبيا أو فضة استبدله بجوهرة أو عدة جواهر يسهل حملها فى الجيب . فاذا وصل الى البلد المقصود باع الجواهر وانفق من ثمنها كما يفعل الناس اليوم بتحويل المصارف المالية أو البنكنوت (العملة الورقية)

وكان الأمويون يرغبون فى المجوهرات أيضا ، وقد رصعوا بها الخلى وبعض الأنية واصطنعوا منها العقود للبسه ولبس نسائهم وجواربهم . أما العباسيون

(١) ابن الاثير ٢٤ ج ٣

(٢) المسعودى ٣٠٠ ج ٢

(٣) الاثيرى ١٤١

(٤) الطبرى ١٨٩ ج ٢

فبالغوا في ذلك حتى نظموها في عصائب نسائهم كما فعلت أخت الرشيد (١) ورصعوا بها خفافهن كما فعلت أم جعفر زوجته (٢)

فكان الخلفاء العباسيون يقتنون من الأنية والفرش والمجوهرات والثياب ما لا يعلم مقداره إلا الله ، يدل ذلك على ذلك ما قدمناه مما خلفه المكتفى وغيره وما أخرجوه من خزائهم في فتنة الساسيرى في أواسط القرن الخامس من جملته ٧٥٠٠٠ قطعة ديباج و ١١٠٠٠ كراغند و ٣٠٠٠٠ سيف ، وهو بعض ما كان في دار الخليفة ، ومع ذلك فهو لا يقاس بما كان عند الفاطميين كما سترى

وقد أنكر ابن خلدون مآذره المؤرخون عن ترف بنى العباس في ملابسه وزينتهم وسائر متناولاتهم ، لما كانوا عليه من خشونة البداوة (٣) واستشهد بالمسعودى والطبرى . ولا ينطبق رأيه في ذلك على مآذره هذان ولا على ما قاله هو نفسه . لأن المسعودى هو الذى أخبرنا بنظم الجوهر في خفاف أم جعفر وهى من أقرب الناس للتقوى . والطبرى أورد أخبارا كثيرة ، تدل على ترف العباسيين في عصر الرشيد . غير مآذره غيرهما من ثقات التاريخ والأدب المتقدمين كأصحاب الأغاني والعقد الفريد والكمال والمعارف (٤) وغيرهم . ونقل المؤرخون عنهم ذلك ولم يكبروه ولا اعترضوا عليه - حتى ابن خلدون نفسه فقد ذكر في مقدمة تاريخه « أن المأمون أعطى بوران في مهرها ليلة زفافها ألف حصاة من الياقوت ، وقد أوقد شموع العنبر في كل واحدة مائة من وثلثان ، وبسط لها فرشاً كان الحصر منها منسوجاً بالذهب مكللاً بالدر والياقوت » (٥) ويلوح لنا أن ما كانوا يتجافون عنه في صدر الدولة العباسية إنما هو الركوب بحلية الذهب ، وأول من ركب فيها منهم المعتز بالله (٥) فمؤرخنا الفيلسوف شديد الرغبة في تنزيه العباسيين عن الترف وهم من أعرق الخلفاء فيه

بدخ الفاطميين

كان العباسيون قدوة لمن قام بعدهم من الدول الإسلامية في مصر والشام والمغرب والأندلس ، فالفاطميون بمصر كانوا يناظرون العباسيين في كل شيء حتى في أسباب الحضارة ، وكان التمدن الإسلامى قد نضج والدولة العباسية أخذت في التقهقر ، ففاقوهم في كثير من أسباب البدخ والترف ولا سيما من

(١) الأغاني ٨٣ ج ٩

(٢) المسعودى ٣٦٦ ج ٢

(٣) ابن خلدون ١٥ ج ١

(٤) هم على الترتيب : الإصفيهانى وابن عبد ربه وابن الأثير وابن خزيمة

(٥) ابن خلدون ١٤٥ ج ١

(٥) المسعودى ٣٠٥ ج ٢

حيث الأثاث والرياش والثياب ، فقد رأيت أن العباسيين رصعوا عصائب نسائهم وخفافهن بالجواهر ، ولكن الفاطميين رصعوا بها آتية المطبخ واتخذوا كوز الزير من البلور مرصعا بالجواهر ، وكللوا المزينة بحب اللؤلؤ النفيس ، وثائقوا في المصوغات حتى اتخذوا منها التماثيل المرصعة للزينة في مجالسهم . فإذا جلس الخليفة في إحدى المناظر للراحة أو تبديل الثياب وضعوا بين يديه الصواني الذهب ، عليها أشكال الصور الأدمية والوحشية من الفيلة والزرافات ونحوها ، معمولة من الذهب والفضة والعنبر والمرسين المشدود والمظفور عليها ، المكلل باللؤلؤ والياقوت والزبرجد ، ومن الصور الوحشية ما يشبه الفيلة بينها عنبر معجون كخلفة الفيل وناباه فضة وعيناه جوهرتان كبيرتان ، في كل منهما مسمار ذهب مجرى سواده ، وعلى الفيل سرير منجور من عود بمتكات فضة وذهب ، وعليه عدة من الرجال ركبان عليهم اللبوس تشبه الزرديات ، وعلى رموسهم الخوذ وبأيديهم السيوف المجردة والدرق وجميع ذلك فضة . ثم صور السباع منجورة من عود وعينا السبع ياقوتتان حمراوان وهو على فريسته وأشكال من سائر الوحوش ، وأصناف تشد من المرسين المكلل باللؤلؤ شبه الفاكهة (١)

وكان للفاطميين في القاهرة دور يختزنون بها أدوات الترف والبذخ يسمونها خزائن ، بعضها للفرش والبعض الآخر للجواهر وآخر للطيب وآخر للبنود وآخر للسلاح وآخر للسرج أو الدرق أو الكسوات أو الإدم أو الشراب أو التوابل أو الخيم . وكان الخليفة يذهب إلى مجالس خاصة له في تلك الخزائن . والمجلس عبارة عن دكة عليها طراحة ولها فراش يخدمها وينظفها ليجلس الخليفة عليها إذا زار تلك الخزانة . وقد توسع المقرري في وصف هذه الدور وما حوته من الآلة والرياش والثياب والجواهر والأطياب مما يضيق عنه هذا المقام فليراجع في مكانه (٢) ونأتى بشيء من ذلك على سبيل المثال :

العلی والجواهر عند الفاطميين

فمما أخرجوه من خزانة الجواهر في أيام الشدة على عهد المستنصر بالله (توفي سنة ٤٨٧ هـ) صندوق فيه سبعة أمداد زمرد سالوا الصياغ عن قيمتها فقالوا إنما نعرف قيمة الشيء إذا كان مثله موجودا . واستخرجوا خريطة فيها وية جواهر قال الصياغ أن قيمته لا تقدر وأصل ثمنه ٧٠٠٠٠٠ دينار بيع يومئذ بعشرين ألف دينار . ووجدوا ما لا يحصى من أقذاح البلور المنقوش والمجروح وصحون من الميناء منها ما يساوي مئات من الدنانير ، وفي

(١) المقرري ٤٧٢ ج ١

(٢) المقرري ٤٠٩ - ٤٢٥ ج ١

مكان آخر ١٨٠٠٠ قطعة من بلور تتراوح اثمانها بين عشرة دنائير وألف دينار كل قطعة . وصوان من الذهب المجرة بالميناء وغير المجرة المنقوشة بأنواع النقوش ، و ١٧٠٠٠ غلاف خيار مبطن بالحرير محلاة بالذهب ، ونحو مائة كأس بادزهر وأشباهها على أكثرها اسم هرون الرشيد

غير ما وجدوه هناك من الصناديق المملوءة بالسكاكين المذهبة والمفضضة وأنصابها من الجواهر المختلفة ، وصناديق مملوءة دوى (جمع دواة) على اختلاف الأشكال من الذهب والفضة والصنيدل والعود والابنوس والعاج ، محلاة بالجواهر مما يساوى ألف دينار الى بضعة آلاف كل دواة . وعدة أزيار مملوءة كافورا وعدة جماجم عنبر ونوافج المسك التيبتي وشجر العود وغيره

ومما خلفته رشيدة بنت المعز وحفظ هناك ما قيمته ١٧٠٠٠٠٠ دينار من جملتها ١٢٠٠٠ من الثياب المصمت ألوانا و ١٠٠ قاطرميز مملوءة كافورا قيصوريا ومعجمات بجواهر من أيام المعز ، وبيت هرون الرشيد الخز الاسود الذى مات فيه بطوس ، ومثل ذلك مما تركته عبدة بنت المعز أيضا ويطول شرحه . وخزائن مملوءة بأنواع الصينى تساوى القطعة منها ألف دينار، وحصير من الذهب وزنه عشرة أرطال يظن أنه الحصير الذى حملت عليه بوران بنت الحسن بن سهل لما زفت الى المأمون كما تقدم ، وصوان من الذهب كان ملك الروم أهداها الى العزيز بالله

ووجدوا أنواعا من الشطرنج والنرد مصنوعة من الجواهر والذهب والفضة أو العاج أو الابنوس ، وعددا كبيرا من الزهريات ونحوها . ومن تماثيل العنبر ٢٢٠٠٠ قطعة أقل تمثال منها وزنه ١٢ منا ، ومن تماثيل الخليفة ما لا يحصى . والكلوة (أى الطاقية للرأس) المرصعة بالجواهر قيمتها ١٣٠٠٠٠ دينار فيها من الجواهر ١٧ رطلا . وطاووس من ذهب مرصع بنفيس الجواهر عيناه من ياقوت أحمر وريشه من الزجاج الميناء المجرى بالذهب على ألوان ريش الطاووس . وغزال مرصع بنفيس الدر والجواهر بطنه أبيض قد نظم من در رائق . ومائدة من الجزع يقعد عليها جماعة قوائمها مخروطة . ونخلة ذهب مكلفة بالجواهر وبديع الدر فى اجانة من ذهب تجمع الطلع والبلح والرطب بشكله ولونه وعلى صفته وهيئته من الجواهر قيمتها لا تقدر . وكوز زير بلور مرصع يحمل عشرة أرطال ومزيرة مكلفة بحب لؤلؤ نفيس وقس على ذلك عشرات من أمثاله

الفرش والاثاث عند الفاطميين

ووجدوا فى خزائن الفرش من أصناف الاثاث والرياش ما يعد بالآلاف . من ذلك ١٠٠٠٠٠ قطعة خسروانى أكثرها مذهب ، ومراتب خسروانى وقلمونى

ثمن الواحدة ٣٥٠٠ دينار ، وأجلة معمولة لليلة من الخسروانى الأحمر المذهب ، و ٣٠٠٠ قطعة خسروانى أحمر مطرز بأبيض من هدهبا لم يفصل من كساء البيوت كاملة بجميع آلاتها ومقاطعها ، وكل بيت يشتمل على مسانده ومخاده ومساوره ومراتبه وبسطه ومقاطعته وستوره وكل ما يحتاج اليه . ومثل ذلك من المخمل والديباج وسائر أنواع الحرير وعليها أشكال الصور من كل شيء . ونحو ألف من الستور الحرير المنسوجة بالذهب على اختلاف ألوانها وأطوالها ، فيها صور الدول وملوكها ومشاهيرها وعلى صورة كل واحد اسمه ومدة أيامه وشرح حاله ، و ٤٠٠٠ رزمة خسروانى مذهب فى كل رزمة فرش مجلس ببسطه وتعليقه وسائر آلاته منسوجة فى خيوط واحد . ومن جملتها مقطع من الحرير الأزرق التستري غريب الصنعة منسوج بالذهب وسائر ألوان الحرير كان المعز لدين الله أمر بعمله ، وفيه صورة أقاليم الأرض وجبالها وبحارها ومدنها وأنهارها ومسكنها شبيه الخارطة الجغرافية . وفيه صورة مكة والمدينة ومكتوب على كل مدينة وجبل وبلد ونهر وبحر وطريق اسمه بالذهب والفضة أو الحرير ، وقد كتب فى آخره « مما أمر بعمله المعز لدين الله شوقا الى حرم الله وأشهارا لمعالم رسول الله فى سنة ٣٥٣ هـ »

فاعتبر ما تدل عليه هذه الآثار من رقى المدنية والحضارة ، وكم تكون قيمتها لو وجدت الآن وكم يدفع المتمولون من المبالغ فى الحصول عليها

وقس عليه ما كان فى سائر الخزائن من التحف ، وفى خزانة السلاح سيف الحسين بن على ، ودرقة حمزة بن عبد المطلب ، وسيف جعفر الصادق ، ومئات الألوف من الدروع والسيوف والقسى والرماح وغيرها . وفى خزانة السروج ألوف من السروج الثمينة ومنها ما يساوى ألف دينار . وفى خزانة الخيم أنواع الفساطيط والمضارب والمسطحات والحصون والقصور ، والشرائع والمشارع العمومية من الديبى والمخمل والخسروانى والديباج المسكى والأزمنى والبهنساوى والكردوانى ، وغير ذلك على اختلاف الألوان والنقوش من المغيل والمسيع والمخيل والمطوس والمطير وغيرها من أشكال السباع والطيور والأدميين مما ينصب على أعمدة ملبسة بالفضة . ومن هذه الفساطيط ما يبلغ طوله ٦٥ ذراعا كبيرا يحمله مع ملحقاته مائة جمل . وفى خزانة البنود كثير من الرايات والاعلام الساذجة والمطرزة وغيرها

ومن أدلة الترف والاسراف فى هذه الدولة أن السيدة الشريفة ست الملك أخت الحاكم بأمر الله أهدت أخاها هذا هدايا من جملتها ثلاثون فرسا بمراكبها ذهبيا ، منها مركب واحد مرصع ومرغب من حجر البلور وتاج مرصع بنفيس الجواهر وبستان من الفضة مزروع من أنواع الشجر

وقد يتبادر الى الذهن ان ما تقدم ذكره لا يخلو من مبالغة أو هو من قبيل الاحاديث الخرافية . ولكن مصر اشتهرت في العصور الاسلامية الوسطى بالثروة مثل شهرة بغداد في ابان حضارتها ، واشتهر المصريون بالترف والغنى حين كان الناس يشكون الضيق (١) ولذلك قالوا : « من دخل مصر ولم يستغن فلا اغناه الله » وقد تواتر ذكر هذه التحف وامثالها في كتب الثقات وبعضهم شهد الامر بنفسه ورأى هذه التحف رأى العين ومنهم ابن الاثير المؤرخ الشهير فقد ذكر في حوادث سنة ٥٦٧ هـ التي اقام فيها السلطان صلاح الدين الخطبة بمصر للدولة العباسية واستولى على ماكان باقيا في قصور الخلافة من التحف والجواهر بعد ما أصابها من النهب في فتنة المستنصر وغيره - قال : « وحمل الجميع الى صلاح الدين ، وكان من كثرته يخرج عن الاحصاء ، وفيه من الاعلاق النفيسة والاشياء الغريبة ما تخلو الدنيا من مثله ، ومن الجواهر التي لم توجد عند غيرهم ، فمنه الحبل الياقوت وزنه سبعة عشر درهما أو ١٧ مثقالا أنا لا أشك ، لاني رأيته ووزنته ، واللؤلؤ الذي لم يوجد مثله ومنه النصاب الزمرد الذي طوله أربع أصابع في عرض عقد كبير » (٢)

بذخ الاندلسيين

واقتردى بالعباسيين في الترف والبذخ الاندلسيون ، ولكنهم لم يبلغوا مبلغ المصريين فيهما . على أن بعضهم تفنن بذلك على شكل لم يسبقه أحد الى مثله ، فالمنصور بن ابي عامر في أواخر القرن الرابع قدم عليه رسول ملك الروم ، وهو أعظم ملوك النصارى في ذلك الزمان ، ليطلع على احوال المسلمين وقوتهم . فأراد المنصور أن يبعثه بما يطلعه عليه من عز الدولة وثروة المملكة ، فأمر أن يغرس في بركة عظيمة ذات أميال نيلوفر ، ثم أمر بأربعة قناطير من الذهب وأربعة قناطير من الفضة فسبكت قطعاً صغاراً قدر ما تسع النيلوفرة ، وملاً بها جميع النيلوفر وبعث الى الرسول فحضر عنده قبل الفجر في مجلسه بالزاهرة فأجلسه بحيث يشرف على موضع البركة . فلما قرب طلوع الشمس جاء الف من الصقابة عليهم الاقية والمناطق من الذهب والفضة ، ويده . منهم أطباق من ذهب ويده . به أطباق من فضة ، فتعجب الرسول من جمالهم ولم يدر الغرض من مجيئهم . فحين اشرقت الشمس ظهر النيلوفر في البركة وبادروا لأخذ الذهب والفضة منه وكانوا يجعلون الذهب في أطباق الفضة والفضة في أطباق الذهب ، حتى التقطوا جميع ما فيها وجاءوا به فعرضوه بين يدي المنصور حتى صار كوما ، فتعجب الرسول من ذلك وطلب المهادنة . واصطنع المنصور هذا نموذج قصر من فضة لصبح أم هشام وحمله اليها على

(١) ابن خلدون ٣٠٢ ج ١ .

(٢) ابن الاثير ١٦٥ ج ١١

وعوس الرجال استجلابا لحبها (١)

واغرب منه ما فعله المعتمد الاندلسي لام اولاده الرميكية الملقبة اعتماد ، وقد رأت ذات يوم نساء البادية بأشبيلية يبعن اللبن في القرب وهن رافعات عن سوقهن في الطين فقالت : « ياسيدى أشتى أن أفعل أنا وجوارى مثل هؤلاء النساء » فأمر المعتمد بالعنبر والمسك والكافور وماء الورد وصير الجميع طينا في القصر ، وجعل لها قريبا وحبالا من الابريسم وخرجت هي وجواريتها تخوض في ذلك الطين (٢)

وقس على ذلك سائر ملوك الاسلام في عصر الترف ، فقد كان عند سنجر ابن ملكشاه ١٠٣٠ رطلا من الجوهر ولم يسمع بمثله عند الملوك . وكانوا يقيسون الاسراف أحيانا بما ينفقونه من الشمع في الاضواء ، فذكروا أن وظيفة كل من ابن بقية وعز الدولة ألف رطل من شمع في الشهر (٣) واشتهر محمد الامين بكبر شمعته . ولم يكن ذلك الترف قاصرا على الخلفاء والملوك والامراء ، ولكنه كان يتناول سائر رجال الدولة ومن يرتزق منهم ، وأما العامة فربما كانوا في أشد الضيق - راجع الجزء الثاني من هذا الكتاب

٤ - التسرى

هو اقتناء الجوارى للتمتع بهن أو استيلادهن . وقد علمت ما كان من تكاثرهن والاتجار بهن وتربيتهن وتهاديهن في ذلك العصر ، ونتكلم هنا عما بعث عليه الترف من تسريهن . وكثيرا ما يعقب التسرى الزوج ، فإذا ولدت الجازية لأحدهم تزوجها . وكان العرب يكرهون الزواج بالجوارى ، فمع كثرتهم في صدر الاسلام لم يتزوج الراشدون جارية (٤) ولكن المسلمين كانوا يتسرونهن للفراش . فتوفى الامام على عن ٤ نسوة و ١٧ سريّة (٥) وكانت تلد الجارية لأحدهم فيبيعها كما يبيع سائر الجوارى ، فنهى عمر عن بيع أمهات الاولاد (٦) وكانت العرب على كل حال تحتقر أبناء الجوارى ، حتى نبغ منهم ثلاثة من كرام الرجال أمهاتهم من بنات يزدجرد (٧) فرغب الناس في التسرى (✽)

(١) نفع الطيب ٧٣١ و ٧٣٢ ج ٢

(٢) نفع الطيب ٢٠٨ ج ١

(٣) ابن خلكان ٨٧ ج ١ و ٦٣ ج ٢

(٤) ابن الاثير ٢٦ و ٩٢ ج ٣

(٥) الف باء ٣٤٧ ج ٢

(٦) ابن الاثير ٢٩ ج ٣

(٧) ابن خلكان ٣٢٠ ج ١

(✽) روى خبر أولئك الثلاثة أبو العباس المبرد في الكامل من كتاب ربيع الزمان للزمخشري، وخلاسته أن بنات يزدجرد الثالث وقعن في أسر المسلمين ، فاشترىهن على بن أبي طالب ودفع واحدة لمحمد بن عمرو وأخرى لولده الحسين ، وأخرى لمحمد بن أبي بكر الصديق ، فأولد

وليس المسلمون أول من اقتنى السراى ، فالتسرى كان شائعا عند الرومانيين ، والسرية عندهم احط منزلة من الزوجة ولكن علاقتها مع الرجل كانت شرعية . وكانوا فى أول امرهم كالعرب يكرهون التسرى ، حتى تقدمهم فيه اثنان من كبار امرائهم فحكفوا عليه (١)

وزادت رغبة المسلمين فى التسرى فى ابان الحضارة ، حتى أصبح اكثر أبناء الخلفاء من اولاد الجوارى (٢) وأكثر نساء أهل الدولة منهن ، واقتدى بهم سائر ألوجهاء والأغنياء . فعمدوا الى اقتناء السراى ، ومن ولدت له تزوجها أو اعتقها . فبلغ عددهن عند بعض الخلفاء عدة آلاف ، ذكروا انه كان للمتوكل العباسى ٤٠٠٠ جارية وطئهن جميعا (٣) وعلم الامراء برغبته فيهن فتقربوا اليه بالهدايا منهن ، فأهداه عبد الله بن طاهر ٤٠٠ وصيفة (٤) . وكان لنصر الدولة صاحب ميافارقين ٣٦٠ سرية على عداد أيام السنة (٥) غير ما كانوا يقتنونه من الجوارى للغناء ، فقد كان عند الرشيد ٢٠٠٠ جارية (٦) منهن ٣٠٠ قينة للغناء والضرب على آلات الطرب (٧)

وأصبح الاستكثار من الجوارى عادة مألوفة ، حتى صار النساء يقتنينهن للزينة . فكان عند أم جعفر البرمكى ٤٠٠ وصيفة يخدمنها (٨) وقد رأيت ما اتخذته زبيدة من الجوارى المقدودات وكيف البستهن ملابس الغلمان فقلدتها ألوجهات من أهل اليسار ، فاتخذن الجوارى المظموحات أو الغلاميات ، ثم تبارى الخلفاء وسائر الكبراء فى ذلك ، حتى ألف القاهر بالله العباسى جوقا من الجوارى بقدر واحد البسهن القراطى والاقبية والطرر والافقية والمناطق من الذهب أو الفضة كأنهن الغلمان (٩)

وقس على ذلك سائر دول المسلمين فى المشرق والمغرب ، وقد فاق الفاطميون سواهم فى الاكثار من الجوارى أيضا ، فكان فى قصر الحاكم بأمر الله ١٠٠٠٠ جارية وخادم (١٠) وكان عند أخته السيدة الشريفة ست الملك ٨٠٠٠ جارية منها

عبد الله ولده سالما ، وأولد الحسين عليا زين العابدين ، وأولد محمد بن أبى بكر ولده القاسم . وكان أهل المدينة يكرهون اتخاذ أمهات الاولاد ، حتى نشأ فيهم على بن الحسين والقاسم بن محمد بن أبى بكر وسالم بن عبد الله بن عمرو ففاقوا أهل المدينة فقها وورما ، فرغب الناس فى السراى .

(١) Gibbon, 11. 205

(٢) الجزء الرابع من هذا الكتاب

(٣) المسعودى ٢٧٩ ج ٢

(٤) الأغانى ١٣٣ ج ١٩

(٥) ابن خلكان ٥٧ ج ١

(٦) الأغانى ٨٨ ج ٩

(٧) الاثليدى ٦٧

(٨) المسعودى ٢٠٨ ج ٢

(٩) المسعودى ٣٦٦ ج ٢

(١٠) المقربرى ٣٦ ج ١

١٥٠٠ من البنات الإبكار (١) ولما قبض صلاح الدين على قصورهم وجد في القصر الكبير ١٢٠٠٠ نسمة ليس فيهم فحل الا الخليفة وأهله وأولاده ، غير الخدم والعلماء والامتعة والتحف ، وأطلق صلاح الدين البيع فيهم فاستمروا يبيعون عشر سنين (٢) ويقال نحو ذلك في السلاطين المماليك بمصر وبني أمية في الاندلس مما يطول شرحه ، ولا يزال مثاله عند بعض أمراء الشرق وملوكه الى اليوم (قبل الحرب العالمية الاولى)

المان الجوارى

والاستكثار من الجوارى في أوائل الاسلام لم يكن يحتاج الى نفقة كبيرة لكثرة السبايا ، فلما نضج التمدن صاروا يتناوونهم ويغالون في رفع اثمانهم، وكانت أسعارهم تتضاعف اذا جمع بين الجمال ورخامة الصوت وصناعة الغناء . ويختلف ثمن الجارية من بضع مئات الى بضعة آلاف أو مائة ألف دينار . وأول من بذل في هذا السبيل الى هذا المقدار سعيد أخوسليمان بن عبد الملك ، فابتاع « الدلقاء » الجارية الشهيرة بمليون درهم (٣) (نحو ٧٠٠٠٠ دينار)

وابتاع الرشيد جارية بمائة ألف دينار (٤) وجارية أخرى اشتراها من ابراهيم الموصلى بمبلغ ٣٦٠٠٠ دينار فباعت عنده ليلة ثم أرسلها الى الفضل وطلب محمد الأمين الى جعفر بن الهادي أن يبيعه جارية له اسمها « بذل » فأبى ، فأمر فاقروا قاريه ذهباً فبلغت قيمة ذلك ٢٠٠٠٠٠ درهم (٥) أى أكثر من مليون دينار - وهذا اذا صح كان أعظم ما بلغ اليه بذلهم في اثمان الجوارى

وأما ما خلا ذلك فقد اشترى يزيد بن عبد الملك الأموى « سلامة » المغنية بعشرين ألف دينار ، وبيعت الجارية « ضياء » بخمسين ألف دينار ، واشترى جعفر البرمكى جارية بأربعين ألف دينار ، وابتاع الواثق بالله جارية مولدة للغناء اسمها « الصاحبة » بعشرة آلاف دينار . وقس عليه مادون ذلك وما فوقه ، واعتبر مقدار ما كانوا ينفقونه من الأموال في اقتنائهم

٥ - السخاء

علمت مما تقدم انطباع العرب على السخاء من أيام جاهليتهم ، وأنهم اضطروا للمحافظة عليه بعد الاسلام حتى أصبح من قواعد الارتزاق فيمن

(١) المقرئى ٤٨٥ ج ٢

(٢) المقرئى ٤٩٧ ج ١

(٣) المقعد الفريد ٢٠٣ ج ٣ والمستطرف ١٣٢ ج ٢

(٤) المطبوع ١٣٣٢ ج ٢

(٥) المقعد الفريد ٤٣ ج ٣ والاغانى ١٤٥ ج ١٥

بحومون حول الخليفة وأهل الدولة ، فلما توفرت الأموال في أيدي هؤلاء وتمتعوا بالحاجات والكماليات من الملاذ الجسدية تطلبوا الملاذ المعنوية بحسن الأحذوثة ، وهم أهل أريحية يستفزههم الاطراء والاستنجاد ، فوجدوا في السخاء بابا واسعا لتلك الملاذ ، فبدلوا الأموال على الشعراء والندماء والمغنين والمستجدين من سائر الطبقات ، لما في ذلك من لذة الفخر أو توقع الأجر

مبلغ السخاء على العموم

وقد ذكرنا في كلامنا عن الارتزاق بالسخاء ما الذي بعث على بقاء هذه المنقبة الجاهلية حتى صارت سنة مرعية . وتدرج المسلمون فيها بتدرجهم في الحضارة والمدنية ، وزادت جوائزهم بزيادة الثروة واتساع الأرزاق ، فكان الأمويون يعطون بالالف درهم أو بضعة آلاف يلحقونها ببعض الماشية أو الكسوة أو الخيل ، وإذا توسموا في العطاء مصلحة جعلوا الصلة عشرة آلاف أو عشرات الألوف أو مائة ألف أو مئات الألوف ، كما فعل معاوية في استرضاء الناس واكتساب بنى هاشم الى حزبه ، فانه جعل صلات أبناء الصحابة ملايين يبدلها رواتب كل عام . وهو أول من فعل ذلك من المسلمين ، غير ما كان يصلهم به من الهدايا لسبب أو لغير سبب ، كما فعل لما ولد لعبد الله بن جعفر غلام فبدل له ١٠٠.٠٠٠ درهم على أن يسميه معاوية فرضى ، ولكنه أعطى تلك الصلة للذي بشره بالغلام (١)

واقتدى بمعاوية من خلفه من الأمويين وأمرائهم ، واشتهر من هؤلاء آل المهلب بالسخاء في الدولة الأموية ، كما اشتهر البرامكة في الدولة العباسية (٢) ومن أسخياء عمالهم خالد القسرى والحجاج بن يوسف إذا مست الحاجة الى السخاء . فالحجاج أعطى للذي توسط في زواجه بهند بنت أسماء ثلاثين غلاما مع كل غلام عشرة آلاف درهم ، وثلاثين جارية مع كل جارية تخت من ثياب وغير ذلك (٣) وكان سعيد بن العاص لا يرسل الى أحد هدية مع عبد الا كان العبد في جملتها (٤)

أما العباسيون فكانت الثروة في أيامهم أوفر ، فبلغت عطياتهم عشرات الملايين من الدراهم ، وأول من أعطى هذا القدر منهم المنصور (٥) ثم صاروا يهبون الضياع وخراج البلاد ، أو يوقرون الزوارق ذهباً أو فضة ، أو يهدون الفلمان يخلون بدر المال ، أو يرسلون الجائزة على مئات من الدواب ، أو يولون

(١) الاغانى ٧١ ج ١١

(٢) ابن خلكان ٢٦٦ ج ٢

(٣) الاغانى ١٣٠ ج ١

(٤) الفرغ بعد الشدة ٣٣ ج ٢

(٥) لطائف المعارف ١٦

الولايات والاعمال ، وتردد جوائزهم اذا استخفهم الطرب أو استغزهم الاطراء فقد ولى السفاح رجلا الاهواز بقصيدة (١) والغالب أن يكون سخاؤهم لغرض سياسى يعود نفعه على الدولة ، كما فعل المنصور اذ أعطى فى يوم واحد عشرة ملايين درهم فرقهها فى اعمامه ووجوه قواده ليقطع السنتهم عن مقاومته . ولما تولى ابنه المهدي استكتب أسماء اولاد المهاجرين والأنصار ، وجلس مجلسا عاما فرق فيه ٣٠٠٠٠٠ درهم ، وقرر لكل واحد من أهل بيته ٦٠٠٠ درهم كل سنة (٢) وأعطى المغيرة بن حبيب ألف فريضة يضعها حيث شاء (٣) و فرق الرشيد فى يوم واحد ١٣٥٠٠٠ دينار (٤) وطرب يوما فنثر على الناس ٦٠٠٠٠ درهم (٥) وأعطى الهادى لعبد الملك بن مالك صاحب شرطة أبيه مالا أرسله اليه على ٤٠٠ بغل موقرة دراهم (٦) وأعطى الأمين الى سليمان بن أبى جعفر مليون درهم (٧) واختص الأمين من أساليب السخاء بأنه كان يأمر بإيقار زورق الطالب ذهباً أو فضة ، وكان قصره على شاطئ دجلة فاذا جاءه شاعر أو طالب فى زورق وأخذته الأريحية واستخفه الطرب قال : « أوقروا زورق هذا ذهباً أو فضة » . وقلما كانوا يفعلون ذلك ، والغالب أن يعوضوا عنه بمبلغ من المال كما فعلوا بأبى محمد التيمى ، فانه مدح الأمين بقصيدة أطربته فأمر الفضل بن الربيع أن يوقر زورقه مالا فقال : « نعم ياسيدى » فلما طالبه التيمى بذلك قال له الفضل : « أنت مجنون ! من أين لنا ما يملأ زورقك ؟ » ثم صالحه على ١٠٠٠٠ درهم (٨) وأجاز المأمون طبيبه بمليون درهم وألف كر حنطية (٩) و فرق المأمون فى ساعة ٢٦٠٠٠٠ درهم ، ومدحه أعرابى فأجازه بثلاثين ألف دينار (١٠) وكان المتوكل يهب القطائع جوائز على المدح (١١) وقس على ذلك هدايا سائر الخلفاء ، وانما ذكرنا أعظمها لبيان مبلغ ذلك فى أبان التمدن

فلما افتقر الخلفاء العباسيون فى أواسط الدولة صاروا يهبون الرتب الاسمية وألقاب الشرف يسترضون الناس بها . وهذه أبيات يقولون أن أبا بكر الخوارزمى نظمها بهذا المعنى :

-
- (١) فوات الوفيات ٢٠ ج ١
 - (٢) سير الملوك ٦٥ و ٦٦
 - (٣) الاغانى ٩٨ ج ١٨
 - (٤) المستطرف ١٣٥ ج ١
 - (٥) الاغانى ٨٨ ج ٠ و ١٢٤ ج ١٧
 - (٦) ابن الأثير ٤٢ ج ٦
 - (٧) المستطرف ١٣٣ ج ١
 - (٨) الاغانى ١١٨ ج ١٨
 - (٩) طبقات الاطباء ١٢٨ ج ١
 - (١٠) فوات الوفيات ٢٤٠ ج ١
 - (١١) الاغانى ٣ ج ١١

مالى رأيت بنى العباس قد فتحوا من الكنى ومن الألقاب أبوابا
ولقبوا رجلا لو عاش أولهم ما كان يرضى به للحبس بوابا
قل الدراهم فى كفى خليفتنا هذا فانفق فى الاقوام القابا

سخاء البرامكة

على أن العصر العباسى الأول انما زها بالبرامكة ، وهم الذين رغبوا الخلفاء فى السخاء ، وأولهم خالد بن برمك وزير المنصور ، والثروة لم تنضج فى أيامه ، ومع ذلك فالوافدون على الخلفاء للاستجداء كانوا يسمونهم السؤال ، فقال خالد : « هذا والله اسم أستقله لطلاب الخير ، وأرفع قدر الكريم عن أن يسمى به أمثال هؤلاء المؤمنين ، لأن فيهم الأشراف والاحرار وأبناء النعيم ، ومن لعله خير ممن يقصد وأفضل أدبا ، ولكننا نسميهم الزوار » وكان ممن شهد مجلسه وسمع قوله بشار بن برد فقال :

حذا خالد فى فعله حذو برمك فمجد له مستطرف وأصيل
وكان ذوو الآمال يدعون قبله بلفظ على الاعداد فيه دليل
يسمون بـ «السؤال» فى كل موطن وان كان فيهم نابه وجليل
فسماهم « الزوار » سترا عليهم فاستاره فى المهتدين سدول

فأعطاه خالد عن كل بيت ألف درهم (١)

وكان ابنه يحيى بن خالد اذا ركب أعطى كل من تعرض له ٢٠٠ درهم (٢) ، ويروون من أخبار سخائه ما هو أشبه بالخرافات منه بالحقائق . نذكر حادثة تواتر ذكرها فى كتب التاريخ والأدب ، وهى تمثل سخاء يحيى أحسن تمثيل . وذلك أن البرامكة لما تكبوا منع الرشيد الناس من ذكرهم أو رثائهم ، فمن ذكرهم انما يذكرهم سرا . وظلوا على ذلك فى أيام الأمين والمأمون . فسمع المأمون بشيخ يأتى خرابات البرامكة ويبكى وينتحب طويلا ثم ينشد شعرا يرثيهم به وينصرف ، فبعث فى طلبه فلما حضر انتهره الخليفة وسأله من هو وبم استحق البرامكة منه ما يصنع ، فقال الرجل وهو غير هائب : « للبرامكة عندى أباد خضر ، فان أمر أمير المؤمنين حديثه ببعضها » فقال : « هات » . فقال : « أنا المنذر بن المغيرة الدمشقى ، نشأت فى نعمة فزالت حتى وصلت الى بيع دارى وأملقت الى غاية ، فأشير على بقصد البرامكة فخرجت الى بغداد ومعى نيف وعشرون امرأة وصيبا ، فدخلت بهم الى مسجد ببغداد ثم خرجت وتركتهن جياعا لا نفقة لهم . فمررت بمسجد فيه جماعة عليهم أحسن زى ، فجلست معهم أردد فى صدرى ما أخطبهم به فتحيد نفسى عن

(١) الاغانى ٣٦ ج ٣

(٢) ابن خلكان ٢٤٤ ج ٢

ذل المسألة ، واذا خادم قد ازعج القوم فقاموا فقامت معهم ، ودخلوا دارا كبيرة فدخلت ، فاذا يحيى بن خالد على دكة وسط بستان فجلسوا وجلست ، وكنا مائة رجل ورجل فخرج مائة خادم في يد كل خادم منهم معجزة ذهب فيها قطعة عنبر ، فتبخروا وأقبل يحيى على القاضي وقال : زوج ابن عمي هذا بابنتي عائشة . فخطب وعقد النكاح وأخذنا النثار من فتات المسك وبنادق العنبر وثمانيل الند ، فالتقط الناس والتقطت . ثم جاءنا الخدم في يد كل واحد منهم صينية فضة فيها ألف دينار مخلوطة بالمسك ، فوضع بين يدي كل واحد واحدة ، فأقبل كل واحد يأخذ الدنانير في كمه والصينية تحت أبطه ويخرج ، فبقيت وحدي لا أجسر أفعل ذلك ، فغمزني بعض الخدم وقال : خذها وقم . فأخذتها وقمت وجعلت أمشي والتفت خوفا من أن تؤخذ مني ، ويحيى يلاحظني من حيث لا أظن . فلما قاربت الستر رددت ، فبيست من الصينية ، فجمته فأمرني بالجلوس فجلست ، فسألني عن حالي فحدثته عن قصتي فبكي ثم قال : على بموسى . فجاءه ، فقال : يا بني ، هذا رجل من أولاد النعم قد رمته الايام بصرفها ، فخذ اليك فاخبطه بنفسك . فأخذني وخلع على وأمرني بحفظ الصينية لي ، فكنت في الدعيش يومي وليلتي . ثم استدعى أخاه العباس وقال : ان الوزير قد سلم الى هذا وأريد الركوب الى دار أمير المؤمنين فليكن عندك اليوم ، فكان يومي مثل أمس . فاقبلوا يتداولوني وأنا قلق بأمر عيالي ولا أتجاسر أن أذكرهم . فلما كان في اليوم العاشر أدخلت على الفضل بن يحيى فأقامت عنده يومي وليلتي ، فلما أصبحت جاءني خادم فقال : قم الى عيالك وصبيانك . فقلت : انا لله ، ذهبت الصينية وما فيها ، فليت هذا كان من أول يوم ! وقمت والخادم يمشي بين يدي ، فأخرجني من الدار فازداد ما بي ، ثم أدخلني الى دار كان الشمس تطلع في جوانبها ، وفيها من صنوف الآلات والفرش ، فلما توسطتها رأيت عيالي يرتعون في الديباج والستور ، وقد حمل اليهم مائة ألف درهم وعشرة آلاف دينار ، وسلم الى الخادم سكا باسم ضيعتين جليلتين وقال : هذه الدار وما فيها والضياع لك ، فأقامت مع البرامكة في أخفض عيش الى الآن . ثم قصدني عمرو بن مسعدة في الضيعتين والزمني من خراجهما مالا يفي به دخلهما ، فكلما لحقتني نائبة قصدت دورهم فبكي

فاستدعى المأمون عمرو بن مسعدة وأمره أن يرد على الرجل ما استخرج منه ، ويقرر خواجه على ما كان في أيام البرامكة . فبكي الشيخ بكاء شديدا ، فقال له المأمون : « ألم استأنف بك جميلا ؟ » فقال : « بلى ، ولكن هذا من بركة البرامكة ! » فقال : « امض مصاحبا ، فان الوفاء مبارك وحسن العهد من الايمان » (١)

(١) الفرج بعد الشدة ٢٢ ج ٢ وسير الملوك ١١١ والاليدى ١٣٢

وعلى ذلك شب جعفر والفضل ابنا يحيى وسائر البرامكة ، وتوسعوا في السخاء حتى عينوا الرواتب لأهل الحاجات . فقد ذكرنا فيما تقدم أن غلتهم بلغت ٢٠٠٠٠ ر. د. دينار في السنة ، فلما قتل جعفر وقبضت أموالهم وجدوا ١٢٠٠٠ ر. د. دينار في بدر مختومة وعليها صكوك لأناس على سبيل الرواتب أو الصلات أو نحو ذلك (١) . ومن فنون سخائهم أن الفضل بن يحيى كان يكتب رقاعا بخطه فحواها « امض الى فلان الصيرفي وخذ منه كذا وكذا دينارا » حسبما يجريه الله على يده ، ويركب في الليل أو في القائلة ويخترق شوارع البلد وينثرها فيها . وسئل عن ذلك فقال : « أردت أن يصل برى الى من لا يصل الى ولا يعرفه ولا يعرفني » ، فاذا وجد أحد رقعة من هذه الرقاع مضى بها الى الصيرفي فيأخذها منه ويعطيه ما فيها ، وعند الصيرفي أمين جالس لثلا يصلحه على بعضها . ولا يعطى لأحد غير رقعة واحدة ولا يسأل عنه ولا يثبت اسمه ، وربما جاءت بيد الصبي والمرأة والدمى فيأخذ ما فيها (٢)

واشتهر من وزراء الدولة العباسية بالسخاء بعد البرامكة آل الفرات في أيام المقتدر ، فكانوا يفرضون الرواتب للعلماء والأدباء والفقهاء وأهل الفاقة ، وقد نكبوا كما نكب البرامكة ، ولكن شهرة البرامكة غلبت على سواهم ، فاصبحوا مضرب الأمثال في الكرم . ولا يزال الناس يتداولون أخبارهم ويتمثلون بسخائهم ويستحثون أريحية العظماء على السخاء بما يروون من أحاديثهم ، حتى ظننها بعضهم موضوعا لهذه الغاية . ولا يبعد أن تكون رغبة الناس في الاستحثاث بعثت على المبالغة في بعضها ، ولكنها صحيحة على أجمالها - قال السلطان العادل الأيوبي مرة وقد جرى ذكر البرامكة وأمثالهم من الكرماء : « هذا كذب مختلق من الوراقين ومن المؤرخين ، يقصدون بذلك أن يحركوا همم الملوك والأكابر للسخاء وتبذير الاموال »

فقال بعض الحضور : « ياخوند ، ولائى شيء يكذبون عليك ؟ » (٣) (ج)

السخاء على الشعراء والمفنين

واعتبر ذلك في سخائهم على الشعراء ، فقد كانت اجازة الشعراء قاعدة عامة من أوائل الاسلام لأسباب تقدم ذكرها ، ويشبه ذلك ماتنفقه بعض الدول اليوم على الصحافة لتنصرها أو تأخذ بيدها في نشر مبدء أو رأى .

(١) العقد الفريد ٢٢ ج ٣

(٢) ترتيب الدول ٢٢

(٣) نفع الطيب ٤٧٢ ج ١

(ج) الخوند - بفتح الخاء والواو وسكون النون - هو المولى أو السيد . والمراد : يمولانا . وهذه الملاحظة من ذلك الرجل اشارة الى بخل السلطان العادل .

وتعودوا أن يسموا ما يعطى للشاعر جائزة أو صلة ، كما يسمون ما يعطى للصحف امانة أو راتباً . على أن بعض الخلفاء كانوا يفرضون للشعراء رواتب يتناولونها مشاهرة أو مسانهة ، وربما عدوا الجائزة راتباً يناله الشاعر إذا وفد على الخليفة أو الأمير في يوم معين من السنة . وقد تكلمنا عن الشعر وسائر أحواله فيما تقدم ، ونحن ذاكرون سخاء الخلفاء على الشعراء في ابان الحضارة

أول من جاد على الشعراء في الاسلام بنو أمية ، وأسماهم الوليد بن يزيد وهو أول من عد أبيات الشعر وأعطى على كل بيت ألف درهم (١) واقتدى به من جاء بعده منهم . أما العباسيون فزادوا القيمة وأعطوا على القصيدة في مدحهم ١٠٠٠ درهم ، وأول من نال هذه الصلة منهم مروان بن أبى حفصة وصله بها المهدي على قصيدة مدحه بها مطلعها :

« طرقك زائرة فحى خيالها » (٢) ومدحه سلم الخاسر بقصيدة مطلعها :
« حضر الرحيل وشدت الأحداج »

فأراد أن ينقص له من جائزة مروان فحلف أنه لا يأخذ الا مائة ألف ألف درهم ، ويقال انه أعطاه اياها (٣) والغالب انه أعطاه مائة ألف فقط ، وانما اضيفت الآلاف الأخرى خطأ من النساخ

وكان المنصور قبله بخيلاً على الشعراء ، اذا أحب أن يعطى شاعره أبا دلالة فرض على الهاشميين دينارين ليعطيها له (٤)
أما الرشيد فأعطى مروان كما كان يعطيه المهدي ، أى مائة ألف درهم (٥) وأعطاه مرة ٥٠٠ درهم وعشرة من الرقيق ، وكان يعطى أبا العتاهية راتباً سنوياً مقداره ٥٠٠ درهم غير الجوائز والمعاون (٦) وفاقهم المتوكل في ذلك لأنه أعطى حسين بن الضحاك ألف دينار عن كل بيت من قصيدة قالها ، وهو أول من أعطى ذلك (٧) وكان المعتصم اذا أعجبه قول الشاعر ملأ فمه جوهراً ، وقد سبقه الى ذلك يزيد بن عبد الملك (٨)

وتشبه الوزراء والأمراء بالخلفاء ، فكان خالد القسري يجلس للشعراء في

(١) ابن الأثير ١٣٧ ج ٥ والاغانى ١٤٨ ج ١٧ و ٣٩ ج ٩

(٢) ابن خلكان ١١٢ ج ٢

(٣) ابن خلكان ١٩٨ ج ١

(٤) الاغانى ١٢٨ و ١٣١ ج ٩

(٥) الاغانى ١٩ ج ١٢

(٦) الاغانى ١٥٧ ج ٣

(٧) الاغانى ١٨٤ ج ٦

(٨) الاغانى ١٧٤ ج ٦ و ١٤٧ و ج ١

يوم معين ويجيزهم . وكذلك آل المهلب فانهم فرضوا لهم الاعطية والجوائز (١)
اما في الدولة العباسية فالبرامكة لم يدخروا وسعا في اجازة الشعراء ،
وخصوصا الفضل بن يحيى وقد قال فيه بعضهم :

ما لقينا من جود فضل بن يحيى ترك الناس كلهم شعراء (٢)

وكان أبوه يحيى اذا لقيه شاعر ولم يكن معه مال أعطاه دابته (٣) وقد فاق
البرامكة الخلفاء في اجازة الشعراء ، فنال شاعرهم أبان اللاحثي على قصيدة
واحدة مثل ماناله مروان بن أبي حفصة من الرشيد كل عمره (٤) وقس
على ذلك سخاء سائر الوزراء والأمراء ، فان يزيد بن مزيد أعطى نصف ماله
لشاعر (٥)

ويقال نحو ذلك في سخائهم على المغنين ، فقد أعطى المهدي دحمان المغني
في ليلة واحدة ٥٠٠٠ دينار لأنه أطربه . وأعطى الأمين اسحق الموصلي
١٠٠٠ درهم لأنه غناه شعرا في مدحه فحملها الى داره مائة فراش (٥)
وكان الهادي يجرى على ابراهيم الموصلي عشرة آلاف درهم في الشهر سوى
صلاته . أما الرشيد فكان اذا طرب وهب وجاد حتى ولى اسماعيل بن صالح
مصر لأنه أطربه بغنائه (٧) وأخبار الشعراء والمغنين كثيرة لا محل لها
واقتندي بسخاء العباسيين ورجال دولتهم سائر رجال الدول الاسلامية ،
وان لم يبلغوا شأوهم

٦ - المسكر

كان المسكر شائعا قبل الاسلام في الشام والعراق وفارس ومصر وجزيرة
العرب وغيرها ، وكان ملوك الفرس يقبلون على اللذات والمسكرات . ويقال
ان الرومانيين لم يتعودوا المسكر الا بعد فتحهم آسيا . على أن عقلاء الناس
كانوا يحرمون شربه حتى في جاهلية العرب ، فان جماعة منهم حرموه على
أنفسهم وأهلهم ، واذا عربد أحدهم بالسكر وتكرر ذلك منه خلعه قومه
ونفوه . فلما جاء الاسلام ورد النص بتحريمه ، وأقيمت الحدود في منعه
بالجلد والحبس وحلق الرأس أو اللحية والشوارب أو قطع العطاء ، وعاقبوا
بائعيه وكسروا أوانيهم ولاسيما في عصر الراشدين وأوائل أيام بني أمية ، حتى

(١) الاغانى ١٦٤ ج ١١

(٢) ابن خلكان ٤١١ ج ١

(٣) الاغانى ٨ ج ٥

(٤) الاغانى ٧٣ ج ٢٠

(٥) ابن خلكان ٢٨٥ ج ٢

(٦) الاغانى ٩٩ و ١٤٢ ج ٥

(٧) حلبة الكميت ٦٣ و ٦٤

عنف عمر بن الخطاب خالد بن الوليد على تدلكه في الحمام بغسل فيه خمر ، وقال له : « ان الله حرم ظاهر الخمر وباطنها ومسها فلا تمسوها بأجسادكم » ومع ذلك فاختلاط المسلمين بأهل البلاد المفتوحة عودهم اياها ، حتى شربها جماعة من الصحابة وابنائهم فوقعوا تحت طائلة العقاب . وأول من عوقب على شربها وحشى بن حرب قاتل حمزة (١) ثم عوقب غير واحد منهم ومن ابنائهم ، وفيهم جماعة من الكبراء كالوليد بن عقبة ، ويزيد بن معاوية ، وعبد الله بن عمر بن الخطاب وأخويه عبد الرحمن وعاصم ، والعباس بن عبد الله ابن عباس ، وقدامة بن مظعون ، وعبد العزيز بن مروان ، وعبد الرحمن بن عبد الله الثقفي القاضي ، وأبي محجن الثقفي وغيرهم (٢)

ومما ساعد على اقبال نفر من المسلمين على الخمر أن بعض الخلفاء الامويين كانوا يشربونها ، كيزيد بن معاوية ، وعبد الملك بن مروان ، ويزيد بن عبد الملك ، والوليد بن يزيد (٣) والوليد هذا أول من وصف الخمر وتغزل بها فسرقت الشعراء معانيه وادخلوها في اشعارهم . وتهتك الوليد في المسكر حتى حدثته نفسه أن يسكر فوق الكعبة ، فخوفه أصحابه من الناس فأمسك . وقد أفسده وعلمه الخلاعة مؤدبه عبد الصمد بن عبد الأعلى (٤) على أن رجال الحكومة كانوا يشددون في منع الخمر والحد عليها ، حتى كثيرا ما كانوا يمنعون بيع العسل لئلا يصنعوها منه (٥) وأشهر من شدد في منعها من الخلفاء عمر ابن عبد العزيز الأموي والمهتدي العباسي ، ومع ذلك فقد كانت تزداد انتشارا باتساع أسباب الحضارة وذهاب دهشة الدين واشتغال الناس بالغناء والجوارى حتى صاروا يشربونها جهارا . واشتهر بشربها غير واحد من الخلفاء وأهلهم ورجال الدولة مع التهتك في مجالس الشرب . فعمد بعض المتملقين من الفقهاء ورجال الدين الى انتحال المسوفات لشربها ، فأخذوا يبحثون في الفرق بين أنواعها وميزوا بين المحلل والمحرم منها فأجمعوا على تحريم الخمر واختلفوا في تحريم النبيذ ، وفي أى أنواعه حلال وأيها حرام ، ويقال بالاجمال ان أهل العراق كانوا يستحلون النبيذ وأهل الحجاز يحرمونه (٦)

والنبيذ يصنع من أكثر أنواع الفاكهة ولا سيما العنب والتمر والتفاح والمشمش ومن الدرة . ويختلف باختلاف البلاد وباختلاف طرق عمله ، وهو عصير بعض هذه الأثمار أو منقوعها كما ينقع الزبيب اليوم (الخشاف)

(١) المعارف لابن قتيبة ١١٢

(٢) العقد الفريد ٣١٤ ج ٣

(٣) الاغانى ١٥٤ ج ١٩ و ١٥٧ ج ١٣ والعقد الفريد ٣١٤ ج ٣

(٤) ابن الأثير ١٢٤ و ١٣٦ ج ٥

(٥) المقرئ ٢٩٧ ج ٢

(٦) ابن الأثير ٣٦ ج ٦ وابن خلدون ١٥ ج ١

وقد يضيّقون اليه العسل أو الدبس أو يصنعونه من أحدهما مع الحب على النار (١) وكانوا إذا أقبلوا على شربه صفوه وتناولوه بالأقداح الكبيرة ، وربما صنعوا الخمر منه . وإذا صفى في القناني صعب تمييزه من الخمر أو منقوع الزبيب أو مذاق العسل (٢) فمن أحب الشرب استحل تناوله على أنه نبيذ ، فإذا أكثر من شربه فعل فعل الخمر . وبعضهم كان يحلل قليل الخمر ويحرم كثيرها ، وآخرون يحللون شرب الخمر إلا إذا أدت إلى السكر (٣) ولكن الأكثرين حكموا بتحريمها ، ولهم في ذلك أقوال يطول شرحها تراها مبسطة في كتب الشرع

فالخلفاء العقلاء الذين بلغنا أنهم سكروا في بعض مجالسهم كانوا يستحلون شرب النبيذ ، وهو حلو منعش فيكثرون منه حتى يسكروا . ويؤيد ذلك أنهم كانوا يشربونه بالأرطال ، وإذا طال مكث النبيذ قبل شربه دب فيه الاختمار وتولد الكحول ولو قليلا . وقد يطول مجلس الشراب فيسكر الشاربون ويعربدون . وربما اتوا في سكرهم بما لا يأتيه غير المجانين . وأقطع ما يروى من هذا القليل أن الملك الناصر بن الملك المعظم الأيوبي كان إذا سكر يقول : « أشتهى أن أرى غلامى فلانا طائرا في الهواء ! » فيرمى ذلك المسكين بالمنجنيق ، ويراه في الهواء فيضحك ويشرب ويقول : « أشتهى أن أشم رائحة فلان وهو يشوى ! » فيحضر ذلك الرجل ويقطع لحمه ويشوى (٤) . وكتب التاريخ والأدب مشحونة بأخبار مجالس الشراب ، وهى فى الغالب مجالس إلقاء ، ويندر أن يترفع خليفة أو وزير عنها . ومن أكثر العباسيين رغبة فيها الهادى والرشيد والأمين والمأمون والمعتصم والواثق والمتوكل ، وأكثرهم نفورا منها المنصور والمهتدى . واشتهر من الفاطميين بالتهتك بها المستنصر (٥) واشتهر بمقاومتها الحاكم بأمر الله ، وكثيرا ما أمر باراقة الخمر وأراقة العسل حتى لا تصنع منه

أما العامة فانغمس الكثيرون منهم فى السكر وشربوه على أنواعه ، شأنهم فى كل زمان وإن لم يشربه حكامهم ، فكيف إذا كانوا يشربون ؟ والغالب فى شاربى النبيذ أن ينبذوه فى بيوتهم ، وبعضهم يشربه عند أخوانه ، وآخرون يتناولونه فى الحانات وكانت كثيرة ، وأكثر أصحابها من اليهود ، وقد يشربون الخمر فى الأديار وخمرها مشهورة بجودتها

٧ - التهتك

وطبيعى فيما قدمناه من الحضارة والترف أن يعتورها شيء من التهتك

-
- (١) كتاب البخلاء ٥١
 (٢) الأغانى ٤ ج ٥ و ١١٢ ج ٤ و ٣٥ ج ٢
 (٣) العقد الفريد ٣٠٩ و ٣١٨ ج ٣ و ٢٧٠ ج ٢ والفاء ٨١ ج ١
 (٤) فوات الوفيات ١٥٧ ج ١
 (٥) المقرئى ١٥٤ ج ٢

والفحشاء، وأن كان ذلك لا يخلو منه قوم مهما بلغ من بعدهم عن الحضارة ، ولكنه يكثر غالبا في المتحضرين ، لسكون خواطرهم وتوفر أسباب الرغد والتنعيم عندهم . كان في جاهلية العرب جماعة من البغايا لهن رايات ينتحيها الفتيان ، وكان بعض الناس يكرهون اماءهم على البغاء يبتغون عرض الدنيا (١) ولكن ذلك شأن الحضر منهم ، لان البدو أقرب الى صحة الآداب ، فاعتبر كم تكون أسباب التهلكة أوفر في المدن الكبرى ، حيث تتزاحم الأقدام وتتوفر الثروة وتكثر الجوارى ويتفشى الغناء والمسكر ، كما كان شأن بغداد وقرطبة والقاهرة والفسطاط في أبان ذلك التمدن . فلا غرو اذا تفشت الفحشاء فيها ولا سيما في العصور الوسطى ، حتى صار البغاء في بعض الأحيان صناعة عليها رئيس يحتكم اليه البغائون عند الحاجة (٢) وتفننوا في ترويح تلك البضاعة بتصوير النساء على جدران الحمامات (٣) وأصبح أهل القصف من الأغنياء يصورون حظاياهم على جدران منازلهم كما فعل ابن طولون . وكان الحكام العقلاء يبذلون جهدهم في منع الفحشاء ويقاومون تيارها بما في إمكانهم (٤) ولما عجزوا عن كف أذاها بالقوة ضرب بعضهم عليها ضرائب يدفعها أصحابها مثل سائر التجارات (٥)

وأصبح ما ظهر من التهلكة في أثناء هذا التمدن مغازلة الغلمان وتسريحهم ، وظهر ذلك على الخصوص في أيام الامين ، وتكاثر بتكاثر غلمان الترك والروم من أيام المعتصم وفيهم الأرقاء بالأسر أو بالشراء . وتسابق الناس الى اقتنائهم كما تسابقوا الى اقتناء الجوارى وغالوا في تزيينهم وتطيبهم . وكانوا يخصصونهم ليأمنوا تعديهم على نسائهم وجواريتهم . وفشا حب الغلمان في أهل الدولة بمصر وتغزل بهم الشعراء (٦) حتى غارت النساء من ذلك فعمدن الى التشبه بالغلمان في اللباس والقيافة ليستملن قلوب الرجال (٧)

وكثرة الجوارى في بعض القصور جرتهن الى التفتن في أساليب الفحشاء ، وربما اتخذت كل جارية خصيا لنفسها كالزوج ، كما فعلت جوارى خمارويه صاحب مصر (٨) حتى النساء الشريفات فان قعودهن عن الزواج لعدم وجود الأكفاء أو لأسباب أخرى كان يجرحهن الى مثل ذلك فتكاثر الفساد فيهن لقلّة

(١) العقد الفريد ٢ ج ٣

(٢) الفرج بعد الشدة ١٤٣ ج ٢

(٣) ابن خلكان ١٢٧ ج ٢ ونفح الطيب ٨٦٠ ج ٢

(٤) ابن الأثير ٩٥ ج ١٠ و ٢١٥ ج ١١ والمقريزى ٣١٦ ج ١

(٥) المقريزى ٨٩ ج ١

(٦) تزيين الأسواق ١٦٣

(٧) المقريزى ١٠٤ ج ٢

(٨) ابن الأثير ١٨٨ ج ٧

التزويج (١) ذكروا أن ابنة الاخشيذ صاحب مصر اشترت جارية لتتمتع بها ، وبلغ المعز لدين الله الفاطمي ذلك - وكان لا يزال في القرب يتحفظ للوثوب على مصر ويخاف الفشل - فلما بلغه ما فعلته ابنة الاخشيذ استبشر وقال : « هذا دليل السقوط » وجند على مصر وفتحها ، والعفاف سياج العمران

أجهزة الدولة

أبهة الدولة

الابهة « العظمة والبهجة والكبر والنخوة » ، وتريد بها مظاهر الدولة في أبهى أحوالها وأفخم أطوارها ، والبحث فيها يتناول النظر في مجالس الخلفاء ومواكبهم وضخامة دولتهم وألعابهم وملاهيهم وملابسهم ، وغير ذلك مما سنفصله . ولما كانت الدولة العباسية أسبق الدول الإسلامية الى تلك المظاهر وقدوتها فيها ، رأينا أن نحصر كلامنا عن الابهة في العصر العباسي ، مع ما يقتضيه المقام من الاستشهاد بما عند الدول الأخرى فنقول :

مجالس الخلفاء

يختلف مجلس الخليفة شكلا وأبهة باختلاف الدول ، وفي الدولة الواحدة باختلاف أطوارها ، وفي كل طور باختلاف المراد منها . فكانت مجالس الراشدين في المسجد أو المنزل ، يقعدون على حصير أو جلد يلتفون بعباءة أو نحوها ، فيدخل عليهم الناس في حوائجهم ويخاطبونهم بأسمائهم ، لا يستنكفون من ذلك ولا يرون فيه ضعة . وإذا خرج أحد قوادهم للفتح مثى الخليفة لوداعه بلا حرس ولا بنود ولا طبول ، وأوصاه بالتؤدة والصبر مع الرفق والعدل . وكان عمالهم في الأمصار على نحو ذلك ، على أن العمال - نظرا لاقامتهم في مدن عمرها الفرس أو الروم مع ما راوه من أحوال تينك الدولتين - كانوا أقرب الى مظاهر الابهة ، وكان الخلفاء اذا علموا بذلك انبوههم كما فعل عمر لما علم أن سعد بن أبي وقاص أمير الكوفة اتخذ قصرا وجعل عليه بابا ، فأرسل اليه رجلا من خاصته وأمره أن يحرق الباب عليه ففعل

ثم ان طبيعة العمران غلبت على تلك السداجة ، فتدرج الخلفاء والأمراء في مظاهر الابهة واتخاذ الحجاب - بدأ بذلك معاوية بن أبي سفيان ، وأعانه عليه أمراؤه في العراق ومصر ، وعملوا مثل عمله وأشاروا عليه بضروب من الفخامة كان عليها ملوك تلك البلاد قبلهم ، واقتدى بهم سائر خلفاء بني أمية . وزاد العباسيون أسباب الابهة بمن قربوهم من الفرس ، فأدخلوا في الدولة كثيرا مما كان عليه الأكاسرة في مجالسهم وسائر أحوالهم ، فتعددت تلك المجالس وأصبحوا يجلسون مجلسا للحكم وآخر للمنادمة أو للمناظرة أو للمذاكرة أو غيرها ، ويختلف المجلس باختلاف ذلك فخامة وترتبا على أن مؤسسى الدول قلما كانوا يجلسون لغير العمل والنظر في شؤون

الدولة ، فمعاوية بن أبى سفيان (١) وأبو جعفر المنصور (٢) كانا يوزعان ساعات النهار على ما لديهما من الاعمال من ادارة وسياسة ومفاوضة ومطالعة . أما فى أواسط الدولة فتعددت المجالس ، والمراد هنا بالاكثر المجلس الذى كانوا يجلسونه للنظر فى مصالح الدولة

شكل المجلس وفرشه

قلنا ان الراشدين وعمالهم كانوا يجلسون فى المساجد ، لان الاسلام كان لايزال غضا ، فلما جعله الامويون دولة جلسوا فى قصور كانت للدول السابقة أو بنوا قصورا لانفسهم نصبوا بها الاسرة والكراسى ، وافترشوا الطنافس والمصليات والوسائد وعلقوا الستور واقاموا الحجاب . فالاسرة أول من اتخذها معاوية ، قلدها بطارقة الروم فى الشام وكذلك الستور والطنافس ، وأما الكراسى فيظهر أنه قلدها بها مرابزة الفرس لأن أول من استخدمها من أمراء المسلمين زياد بن أبيه عامله على فارس (٣) فلعله نقلها الى الشام ، وقد يكون معاوية اقتبسها من الروم رأسا - وقس على ذلك سائر ما أدخلوه من مظاهر الابهة من الطراز ونقش الاشعار فى صدور المجلس ، وفرش الديباج والخز واصطناع الاسرة من الابنوس أو الصندل أو العاج أو الذهب أو غيرها

وبعد أن كانت مصالح الدولة تجتمع فى بناء واحد اختصت كل منها بإدارة . وأصبح لبعض كبار الرجال ادارات خاصة بأعماله تشبه ما للخلفاء من ادارات الكتاب والحساب والاطباء وغيرهم (٤) وكان لمجلس الحكم فى العصر العباسى داران ، دار خاصة ودار عامة ، يجلس الخليفة فى الاولى مع رجال الدولة أو من يفد عليه من كبار الامراء أو الملوك . وينظر فى الثانية فى سائر الشؤون ويعقد بها المجالس الاعتيادية

والمجلس فى ابان الحضارة كان ينعقد فى قاعة أو بهو كبير ، على جدرانها صور ممثلة بالذهب والفضة لما فى البر والبحر من شجر أو حيوان أو جبال ، ويكسو أرضه بساط واحد أو عدة أبسطة من الديباج أو نحوه ، وفى أطراف البهو مناوئ من الذهب أو الفضة توضع عليها الشموع (٥) ويسبل على أبواب المجلس ونوافذه ستائر من الحرير أو غيره مطرزة بشارة الدولة أو بأشعار أو حكم أو آيات أو أحاديث أو رسوم مدن أو أنهر أو جبال .

(١) المسعودى ٥١ ج ٢

(٢) ابن الأثير ١١ ج ٦

(٣) العقد الفريد ٤ ج ٣

(٤) طبقات الاطباء ١٣٠ ج ١

(٥) العقد الفريد ١٠٨ ج ٣

وفى وسط القاعة سدة أو سرير يجلس عليه الخليفة (١) يصنع من العاج أو الابنوس أو الصندل يحلى بالذهب . وقد غالى الفاطميون فى النفقة على الاسرة حتى يدخل فى الواحد منها ١١٠.٠٠٠ مثقال من الذهب الابريز الخالص (٢) وقد يجعل الخليفة بين يديه بعض التحف أو نحوها للزينة أو التشاغل بها . فالمعتمد الاندلسى كانوا يضعون أمامه فى المجالس تماثيل عنبر من جعلتها جمل مرصع بالذهب واللؤلؤ وجمل من بلور له عينان من ياقوت وقد حلى بنفائس الدر (٣) . ولما كان الخلفاء يحتجبون عن الناس كانوا يعلقون فى وسط القاعة سترا بينهم وبين الجلساء (٤) أو يستترون عنهم وراء شباك مخرم . على أن فرشهم يختلف فى الشتاء عنه فى الصيف ، فيضاف اليه فى الشتاء مواقد النار يستجر فيها الند والعود ويلبسون الفراء اللاتقة بالوقت على أشكالها (٥)

مجالسة الخلفاء

الاستئذان فى الدخول

كان الاستئذان على الخليفة فى عصر الراشدين أن يقف الرجل بالباب ويقول : « السلام عليكم . أدخل ؟ » . يكرر ذلك ثلاثا ، فان لم يؤذن له لم بعدها (٦) وربما أقام الراشدون الحجاب لمنع الازدحام أو للاستئذان فى بعض الاحوال . فلما انقضى ذلك العصر أقيم الأذنون والحجاب يتوسطون للناس فى دخولهم على الخليفة بحسب طبقاتهم وفى اوقات معينة لكل طبقة من الجلساء أو الادباء أو الشعراء أو غيرهم (٧) أما فى المجالس العامة فيقدمون الناس حسب مراتبهم

وأول من رتب المراتب فى الدخول على الخليفة زياد بن أبيه فى العراق ، أشار عليه بذلك حاجبه عجلان ولعله اقتبسها من الفرس ، فجعل الاذن للناس على البيوتات ثم على الاسنان ثم على الآداب (٨) وصار ذلك سنة فى الاستئذان على الخلفاء فى عصر الامويين ، فاذا استأذن جماعة فى الدخول على الخليفة أو الأمير يؤذن أولا لأشرفهم نسبا ، واذا تساوا فى النسب قدموا أكبرهم

(١) طبقات الاطباء ١٤٢ ج ١

(٢) المقرئى ٣٨٥ ج ١

(٣) نفع الطيب ١١٢٨ ج ٢

(٤) الامانى ٩٩ ج ٢

(٥) ترتيب الدول ١٢٣

(٦) العقد الفريد ٢١ ج ١

(٧) الاغانى ٦٠ ح ٥

(٨) العقد الفريد ٥ ح ٣ و ٢١ ج ١

سنا ، فاذا تساوا في السن قدموا أكثرهم أدبا ، وظلت هذه القاعدة مرعية في سائر العصور الاسلامية

وكانوا في أيام بنى أمية وفي أوائل الدولة العباسية اذا وفد الناس على الخليفة أو الأمير وقفوا ببابه يلتمسون الاذن ، فاما أن يأذن لهم أو يصرفهم ، فاذا صرفهم عادوا ثانية واذا لم يؤذن لهم هذه المرة عادوا ثالثة حتى يؤذن لهم أو يملوا . ويعبرون عن ذلك بقولهم الاذن الاول والثاني والثالث الخ (١) ثم جعلوا للوافدين على الخليفة منازل بجوار دار العامة يقيمون فيها ريثما يؤذن لهم . وأول من فعل ذلك المنصور العباسي لما بنى بغداد ، فاتخذ في قصره بيوتا للاذن فجري الامر على ذلك في الدولة العباسية (٢) فكان الوافد يقيم ريثما يستريح ثم يستأذن . وقد يلتمسون أذنا لدخول القصر وآخر لدخول المجلس

الدخول على الخليفة والسلام عليه

فاذا أذن لاحدهم بالدخول تقدم وألقى التحية . وكانوا في أول الاسلام يحيون تحية عامة ، فيقول الداخل على الخليفة أو الأمير أو الوالي : « السلام عليك » ويكرهون قولهم : « عليك السلام » لأنها تحية الموتى (٣) وقد يضاف الى التحية كنية الأمير أو الخليفة ، ولا يزيدون على ذلك . فلما خالطوا الاعاجم ، وراوا تمييزهم بين الرئيس والرؤوس ، هموا بتقليدهم . وأول من قلدهم المغيرة بن شعبة فقال : « ينبغي أن يكون بين الأمير ورعيته فرق » ، وألزم أهل عمله أن يؤمروه أى يحيوه تحية الامراء وهى : « السلام عليك أيها الأمير ورحمة الله وبركاته » (٤) أو « السلام على الأمير ورحمة الله » ففعلوا . واقتدى بهم سائر المسلمين ، وميزوا الخلفاء بتحية الخلافة ، فصاروا يقولون عند الدخول على الخليفة : « السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته » أو « السلام على أمير المؤمنين ورحمة الله » (٥) وما زالت هذه تحيتهم حتى فسدت حضارتهم بالتملق ونحوه ، فقلدوا الدول الاخرى بالتعظيم ، وحظروا على الناس السلام على الخليفة لما فيه من تكليف الرد والجواب ، واقتصروا في تحيته على الخدمة والدعاء له . والخدمة تختلف بين أن تكون بانحناء الرأس والتطامن والبلوغ الى حد الركوع ، وما زاد عليه فهو سجود ولا يجوز لغير الله

وربما قبلوا يد الخليفة عند التحية ، وكانوا في أوائل الاسلام يقبلونها عند

-
- (١) الاغانى ٧٠ ج ٦
(٢) لطائف المعارف ١٤
(٣) العقد الفريد ٢٠٩ ج ١
(٤) الاغانى ٣٥ ج ١٢
(٥) المقرئى ٢٨٨ ج ٢

البيعة أو تجديد العطاء ، وعند العفو أو الوداع ، وكان الصحابة يفعلون ذلك مع النبي (صلعم) وظل متبعاً مع أكثر الخلفاء . ثم ترفع هؤلاء عن أن يلمس الناس أكفهم ، فصار التقبيل للأكمام والعتبات على حسب الاقتدار . وإذا أراد الخليفة تشريف أحد قواده منعه من تقبيل يده أو كفه كما فعل المهدي مع مسلم بن قتيبة ، ف جذب يده منه وقال : « نصونك عنها ولا نصونها عن غيرك » (١) وقد يختلف ذلك باختلاف الناس واختلاف الدول وتباين الأحوال . فان جوهر القائد لما ودع موله المعز لدين الله عند قدومه لفتح مصر أنزل المعز أولاده لوداعه ، فنزلوا عن خيولهم ونزل أهل الدولة لنزولهم فقبل جوهر يد المعز وجاfer فرسه (٢) . وعبد الله بن مالك صاحب شرطة المهدي كان خائفاً من الهادي لأنه سبه قبل خلافته ، فرأى منه رعاية وحلماً فلم يتمالك عن تقبيل يده ورجله وحافر دابته (٣) وكذلك فعل إبراهيم الموصلي فقبل حافر دابة الرشيد لأنه تنازل لزيارته (٤) وكان أهل الدين والنسك إذا دخلوا على الخليفة لا يخدمون مثل سواهم ، بل يدخلون وعليهم السكينة والوقار

والداخلون على الخليفة يجلسون في المواضع اللائقة بمراتبهم ، ويتولى اجلاسهم الحاجب أو الأذن ، وكانت الرتبة الأولى بعد الخليفة في الدولة الأموية لبنى أمية ، يجلسون على الأسرة وبنو هاشم على الكراسي . وأما في الدولة العباسية فصارت الأفضلية لبنى هاشم ، وصاروا يسمونهم الملوك والإشراف ، فيجلس الخليفة على السرير أو السدة ، ويجلس بنو هاشم على الكراسي ، ويقعد بنو أمية إذا حضروا على الوسائد تثني لهم (٥) لكن الأمويين قلما كانوا يحضرون مجلس بنى العباس ، بعد أن نكبوهم وقتلوا معظمهم وما بقي منهم أسقطت مرتبته في أيام المستعين سنة ٢٥٠ هـ (٦) ويلي هؤلاء سائر طبقات الجلساء من أهل الدولة وغيرهم ، وتتفاوت مراتب هؤلاء وتباين على مقتضى الأحوال مما لا حد له

الآداب في مجالسة الخلفاء

كانت مجالسة الخلفاء في صدر الإسلام مثل مجالسة سائر الناس ، لما علمته من سداجة الراشدين ، وكانوا يخاطبون الخليفة باسمه أو كنيته ، فيقولون : يا عمر أو يامعاوية أو ياعلي ، لا يرون بذلك بأساً . وكان الجلساء يتخاطبون

(١) ترتيب الدول ٦٠ و ٩

(٢) ابن خلكان ١١٩ ج ١

(٣) ابن الأثير ٤٢ ج ٦

(٤) الأغاني ٩١ ج ٩

(٥) الأغاني ٩٢ ج ٤

(٦) ابن الأثير ٥١ ج ٧

ويتباحثون بلا احتراس ولا تهيب ، لأسباب تقدم بيانها . فلما ضخم ملكهم وذهبت دهشة النبوة ، عمل الأمويون على التشبه بالدول المستبدة ، وأخذ الدهاة من عمالهم بتعظيم أمر الخليفة وتفخيم منصبه وتنزيه مجلسه عن مجالس سائر الناس . وأول من فعل ذلك زياد بن أبيه ، فوضع القاعدة « أن لا يسلم على قادم بين يدي الخليفة » (١) ثم منعوا الكلام في حضرة الخلفاء على الإطلاق ، وأول من منعه عبد الملك بن مروان . وتجبر الخلفاء بعد ذلك حتى منعوا الناس من مخاطبتهم كما كانوا يخاطبون أسلافهم ، وأول من تجبر الوليد بن عبد الملك ، فكلف الناس أن لا يكلموه كما كانوا يكلمون أسلافه ، وقال بعد كلام : « واني أعطى الله عهدا يأخذني بالوفاء به لا يكلمني أحد بمثل ذلك الا أثلقت نفسه ، فلعمري أن استخفاف الرعية بإرعائها سيدعوها الى الاستخفاف بطاعته والجرأة على معصيته » . وقال له رجل من بنى مرة يوما : « اتق الله يا وليد فان الكبرياء لله » فأمر به فوطئ حتى مات ، فاتعظ الناس وهابوه (٢) وهو أول من منع الناس أن يكتبوه بما كانوا يكتبون أسلافه أو يكتبون بعضهم بعضا

ثم صارت القاعدة المرعية في مجالسة الخلفاء أن لا يدعى لأحد في حضرته (٣) ولا ينهض لداخل الا اذا نهض الخليفة - ثم صارت رسوم أرباب الدواوين كبارهم وصغارهم اذا كانوا في دواوينهم لا يقومون لأحد من خلق الله ممن يدخل عليهم (٤) فلا يتكلم أحد في مجلس الخلفاء الا اذا كلموه ، أى لا يبدأهم أحد بكلام . وجرت العادة أن يطلقوا الكلام للوافد عليهم بقولهم : « ما أئعنا بك يا أبا فلان » وهي كلمة كانت تقولها العرب (٥) فيذكر الرجل ما جاء من أجله ، واذا لم يطلق له الكلام ظل ساكنا

وما زال ذلك سنة مرعية في مجالس الخلفاء ، حتى أباح المأمون الكلام لأهل مجلسه للمناظرة بين يديه (٦) واستمر ذلك بعده مع مراعاة الاحوال . أما مباداة الخليفة بالكلام فأول من استطاعها أحمد بن أبي دؤاد وزير المعتصم (٧) . ولما استولى القواد على الأمور ضعفت هيبة الخلفاء وذهبت تلك الرسوم ، حتى أبيع اللعب والضحك والهزل في مجالسهم ، وأول من أباحها المتوكل على الله في أواسط القرن الثالث للهجرة (٨)

-
- (١) العقد الفريد ٢١٨٦ ج ٢
 (٢) لطائف المعارف ١٤ والبيان والتبيين ١٢ ج ٢ وابن الأثير ٢٥١ ج ٤
 (٣) البيان والتبيين ٣٨ ج ٢
 (٤) الفرج بعد الشدة ١٠٠ ج ١
 (٥) ترتيب الدول ٩٢
 (٦) الأغاني ٣٦ ج ١٤ والمسعودي ٢٥٧ ج ٢
 (٧) ابن خلكان ٢٢ ج ١
 (٨) المسعودي ٢٦١ ج ٢

ومن آدابهم في ذلك المجلس ان لا يأمر فيه أحد غير الخليفة (١) وإذا نهض نهض سائر الحضور . وأن يصفى المجلس الى كلامه بكليته فلا يشتغل عنه بشيء . ومن لطيف ما يروونه من هذا القبيل أن معاوية كان يحدث يزيد بن سحرة حديثاً ، وابن سحرة مصغ قصك جبينه حجر غائر فأدماه ، فجعلت الدماء تسيل على وجهه ولحيته ونوبه ولم يتغير عما كان عليه من الاستماع ، حتى نبهه معاوية الى ذلك فأجابه : « ان حديث أمير المؤمنين الهانئ حتى غمر فكرى وغطى على قلبى » فزاد معاوية عطائه (٢)

والخلفاء لا يعززون ، وإنما يقتصر على الدعاء لهم بدوام الظفر والسعادة من غير تطويل . ولا يقال للخليفة كيف أصبح ولا كيف أمسى ، ولا يسأل عن حاله ولا يطنب في تحسين كلامه ولا أفعاله ، ولا يستعاد منه الكلام ولا يستزاد ولا تحسن الاشارات في مجلسه ولا يغامز ، ولا يشتغل بحضرته بوداع راحل ولا سلام قادم (٣) ولا يليق أن يرد على الخليفة بلفظ « لا » فيحتال في التخلص منها (٤) . وقد قالوا في الاحتراس في مخاطبة الملوك : « من أراد مصاحبة الملك فليدخل كالاعمى وليخرج كالأخرس » (٥) ومن أمثلة التأدب في مخاطبة الخلفاء أن عبد الملك بن صالح وجه الى الرشيد فأكفه في أطباق الخيزران وكتب اليه : « أسعد الله أمير المؤمنين وأسعدنى به . انى دخلت الى بستان لى أفادنيـه كرمك وعمرته لى نعمك ، قد أينعت أشجاره وآتت ثماره ، فوجهت الى أمير المؤمنين منه شيئاً على الثقة والامكان فى أطباق القضبـان ، ليصل الى من بركة دعائه مثل ما وصل الى من كثرة عطائه » فاستحسن الرشيد تـكـنيـته عن الخيزران بالقضبـان لأنه اسم أمه (٦)

وكان الحديث يجرى في مجلس الخليفة في أول الاسلام باللغة العربية الفصحى ، فيعربون الكلام ويضبطون حركات الالفاظ ، فمن لم يستطع ذلك من الخلفاء عدوه لحانا . فكان الامويون يرسلون اولادهم الى البادية يشبون فيها ليضبطوا الفاظهم ، وقد أحسنوا ذلك الا الوليد بن عبد الملك فان أباه لم يرسله الى البادية فنشأ لحانا ، وكان أبوه يكره اللحن ومن أقواله : « اللحن فى الكلام أقبح من التفتيق فى الثوب والجدرى فى الوجه » ، ومنها : « تعلموا النحو كما تتعلمون الفرائض » . وكان يخاف اللحن اذا وقف للخطابة فيؤمله ذلك ، وسأله سائل : « لقد عجل اليك الشيب يا أمير المؤمنين » فقال :

(١) المقدم الفريد ١١١ ج ٣

(٢) المسعودى ١٥٧ ج ٢

(٣) ترتيب الدول ٦١

(٤) ابن الجوزى ٣٦ و ٦٠

(٥) ترتيب الدول ٩٨

(٦) قوات الوقيات ١٣ ج ٢

« شيبني ارتقاء المناير وتوقع اللحن » ، وكذلك كان سائر بنى أمية . ولوليد أخبار في اللحن مضحكة (١) . وكان عمال بنى أمية مثل خلفائهم في المحافظة على الاعراب الا الحجاج بن يوسف فقد كان يلحن أحيانا (٢) فلما استعجمت الدولة في زمن بنى العباس قلت عناية الناس بالاعراب ، وظهر غير واحد من الفقهاء والعلماء يلحنون في كلامهم ، كأبي حنيفة النعمان وأبي عبيدة وغيرهما

احتجاب الخلفاء من جلسائهم

كان الخلفاء الراشدون يجالسون الناس ويخاطبونهم ولا يحتجبون عنهم ، ثم احتجب الامويون وجعلوا بينهم وبين الجلساء حجابا ، ووسطوا في حوارهم الناس من يقضيها عنهم . وأول من احتجب معاوية بعد محاولة البرك بن عبد الله الخارجي سنة ٤٠ هـ قتله غيلة، وكان قد قعد له في المسجد فلما خرج ليصلي الغداة شد عليه بالسيف فجرحه ، فلما شفى ابتنى هناك مقصورة يصلي فيها خوفا من مثل ذلك ، واحتجب عن الناس الا من اختصهم بالمجالسة ، واقتدى به الخلفاء بعده في أوائل دولتهم وكذلك الأوائل من بنى العباس (٣)

والحجاب كان شائعا عند الفرس من عهد أردشير ، فكانوا ينصبون في مجلس الملك ستارة بينها وبينه عشرة أذرع وبينها وبين الجلساء عشرة أذرع ، فقلدهم العباسيون . ثم ضاعفوا الحجاب في بعض الاحوال ، فاتخذوا عدة أستار الواحد وراء الآخر الى ثلاثة أو أربعة ، وفعل ذلك وزرأهم البرامكة أيضا (٤) وجعلوا لقصورهم عدة أبواب الواحد وراء الآخر (٥)

كذلك كان شأن العباسيين ، من أبى العباس السفاح الى المتوكل ومن بعده، الا الهادي فانه لم يحتجب عن أحد (٦) على أنهم كانوا يحتجبون غالبا عن الندماء والمغنين وسائر طبقات العامة ، وليس عن الخاصة الا أحيانا . فكانوا يقيمون عند الستارة حاجبا يسمونه صاحب الستارة ، يتوسط في نقل ما يريد الخليفة ابلاغه الى جلسائه أو ندمائه ، واقتدى بالعباسيين غيرهم من الدول الاسلامية بمصر والاندلس

علامة الصرف

واذا أراد الخليفة صرف جلسائه أبدى اشارة يعرفونها فينصرفون . وهي عادة فارسية وضعها كسرى أنوشروان ، فكان اذا أحب أن يصرف ندماءه مد رجليه فينصرفون . وتابعه ملوكهم على ذلك، فكان فيروز يدلك عينيه ، وبهرام

(١) المقدم الفريد ٢٢٤ ج ١ والغفرى ١١٢

(٢) ابن خلكان ٢٤٤ ج ١

(٣) المسمودي ١٠٦ ج ١

(٤) الفرج بعد الشدة ٢٣ ج ٢ والمستطرف ١٦٤ ج ١ والالتيدى ١٣٣

(٥) الالتيدى ١١٥

(٦) الاعاني ١٦ ج ٥

يرفع رأسه الى السماء (١) وقلدهم فيها المسلمون من أيام بنى أمية ، فكان معاوية اذا أراد صرف الناس قال : « اذا شئتم » أو « العزة لله » ، وكان ابنه يزيد يصرفهم بقوله : « على بركة الله » . وعبد الملك كان يحمل بيده خيزرانة فاذا لقاه من يده عرف جلاله انه يريد انصرفهم (٢) وقس عليه سائر الخلفاء من بنى أمية وأمرائهم ، فكان يزيد بن هبيرة اذا أراد صرف جلسائه دعا بمنديل فيقومون

أما بنو العباس فقد كانت اماراة السفاح منهم أن يتشاءب ويلقى المروحة من يده (٣) وكانت علامة المأمون أن يعقد أصبعه الوسطى بإبهامه ويقول : « برق يمان برق يمان ! » . ومن انصرف من حضرة الخليفة مشى القهقري ووجهه نحو مجلسه حتى يتوارى

مجالس الادب والشعر

رغبة الخلفاء في الاطلاع

كان للخلفاء ميل شديد الى سماع الاخبار ، فيعقدون المجالس يحضرها الادباء من أهل الاخبار والنوادر والادب والشعر ، يحادثون الخليفة بما يلد له سماعه من أخبار العرب ونوادرهم وأشعارهم . وكان الدهاء من الخلفاء والامراء مثل معاوية وهشام والمنصور وابن هبيرة (٤) يقيمون اناسا يتلون عليهم أعمال القواد والملوك من الروم والفرس ، وأخبار الدول وحوادث الشجاعة والرأى ، يلتمسون بذلك التوسع في أسباب الدهاء وأفانين السياسة ، كما يفعل رجال اليوم بالاطلاع على تراجم العظماء

على أنهم كانوا يعقدون مجالس الادب على الغالب لترويح النفس من مشاغل الدولة ، وتلذذا بالاطلاع على آداب العرب وأخبارهم ، فاختص بكل خليفة جماعة ممن عاصروه من أصحاب الاخبار والشعر ، يجالسونه في أوقات معينة أو اذا دعاهم في ساعة قلقه أو أرقه . وقد يكون ذلك في أواسط الليل والناس نيام . فلا يزال الرجل ينتقل بحديثه من خبر الى نكتة الى نادرة الى شعر ، حتى يزول ما في نفس الخليفة وينشرح صدره . وقد تفرغ جعبة المحدث مما يعلمه من الاخبار قبل أن ينشرح صدر الخليفة ، فيضع قصة من عند نفسه يبنها على نكتة أو حكمة مما يعلم ارتياح الخليفة له (٥)

(١) حلبة الكميث ٢٦

(٢) البيان والتبيين ٦٠ ج ٢ والمقد الفريد ٢١٩ ج ١

(٣) الاغانى ٢٠٦ ج ١٨

(٤) ابن الاثير ١١ ج ٦ والمسعودى ٥١ ج ٢ وابن خلكان ٢٨٠ ج ٢ وسير الملوك ٢٢

(٥) المسعودى ١٦٣ ج ٢

احترام الخلفاء لاهل العلم

وكانوا يجلون اهل الادب والعلم ويقربونهم ويبذلون لهم الاموال ويدافعون عنهم ، ولا سيما الرشيد والمأمون . وفيما يروونه عن الرشيد ومعاملته للعلماء أدلة عديدة على ذلك ، فكان كثير الملاطفة للاصمعي والاجلال له ، فاذا خلا به سألته واستفاد منه علما وأدبا ، فيقول الرشيد عند ذلك : « هكذا قرنا في الملا وعلمنا في الخلا » وكان يعطيه الجوائز الحسنة . واكل أبو معاوية الضريع طعاما مع الرشيد ، فلما قام ليغسل يديه تناول الرشيد الابريق وصب عليهما والرجل لا يعلم ، فقال له : « أتدري من يصب الماء على يديك؟ » قال : « لا » قال : « أنا » قال : « أنت يا أمير المؤمنين ؟ » قال : « نعم ، اجلالا للعلم » (١)

ناهيك بما وقع من البحث في مسألة الزنبور والنحلة بين سيبويه والكسائي، وكيف انتصر الامين للكسائي والمأمون لسيبويه ، وما جرى من الجدل في ذلك بحضرة الرشيد ، فأخذ الرشيد بناصر الكسائي في حديث طويل ذكرنا خلاصته في الجزء الثالث

ومن أدلة اجلالهم للعلم انهم كانوا يحرضون أبناءهم على تلقيه وحفظ الاشعار والاخبار ، ويعينون لهم المعلمين من نخبة العلماء المعاصرين . فالنصور ضم الشرقى بن القطامي الى ابنه المهدي وأوصاه ان يعلمه أخبار العرب ومكارم الاخلاق وقراءة الاشعار (٢) والرشيد عهد بتعليم ابنه الامين الى الاحمر النحوى ثم الى الكسائي وعهد بتأديب المأمون لليزیدی وسيبويه وغيرهما . وللرشيد وصية يقال انه أوصى بها الاحمر المذكور لما عهد اليه بتأديب الامين وهى :

« يا احمر ، ان أمير المؤمنين قد دفع اليك مهجة نفسه وثمره قلبه ، فصير يدك عليه مبسوطة وطاعته لك واجبة ، فكن له بحيث وضعك أمير المؤمنين : أقرئه القرآن ، وعرفه الاخبار ، وروه الاشعار ، وعلمه السنن ، وبصره بمواقع الكلام وبدئه ، وامنعه من الضحك الا في أوقاته ، وخذه بتعظيم مشايخ بنى هاشم اذا دخلوا عليه ، ورفع مجالس القواد اذا حضروا . مجلسه ، ولا تمرن بك ساعة الا وأنت مفتنم فائدة تفيده اياها من غير أن تحزنه فتميت ذهنه ، ولا تمنع في مسامحته فيستحلى الفراغ ويألفه ، وقومه ما استطعت بالقرب والملاينة ، فان أباهما فعليك بالشدة والغلظة » (٣) وعهد المأمون الى الفراء بتعليم ولديه النحو ، واتفق ان الفراء أراد أن

(١) سير الملوك ٧٩

(٢) المسعودى ١٨٠ ج ٢ وطبقات الاطباء ٤٢

(٣) ابن خلدون ٤٧٥ ج ١ والمسعودى ١٩٤ ج ٢

ينهض ذات يوم الى حوائجه فابتدرا الى نعله ليقدمها له ، فتنازعا إيهما يقدمها ثم اصطلحا على أن يقدم كل منهما واحدة . وبلغ ذلك المأمون فاستدعاه ، فلما دخل عليه قال المأمون : « من اعز الناس ؟ » قال : « لا اعرف أحدا أعز من أمير المؤمنين » فقال : « بل من اذا نهض تقاتل على تقديم نعله وليا عهد المسلمين حتى يرضى كل واحد منهما أن يقدم له فردا » فقال : « يا أمير المؤمنين لقد أردت منعهما عن ذلك ، ولكن خشيت أن أذفعهما عن مكربة سبقا إليها أو كسر نفسيهما عن شريفة حرصا عليها » (١) . وعهد المتوكل بتعليم أبنائه الى ابن السكيت (٢) وتعلم عبيد الله بن المعتز الادب والعربية على المبرد ونعلب وأحمد بن سعيد الدمشقي (٣)

تقديم الشعراء

ويقال نحو ذلك في تقديمهم الشعراء ، فقد أجزلوا لهم الاعطية ، وعينوا لهم أوقاتا يدخلون فيها عليهم كما قلنا في غير هذا المكان ، وكانوا يفرضون لهم مالا يدفعونه اليهم كل سنة على الوفدة أو القصيدة ، أو يعطونهم على البيت من الشعر مبلغا معينا . على أن مقامهم كان يعلو ويهبط تبعا لامزجة الخلفاء وأغراضهم وأحوال السياسة . فمنهم من كان يبعد الشعراء بخلا كعبد الملك ابن مروان وابنه الوليد (٤) . ومنع عمر بن عبد العزيز الشعراء من بابه تورعا لاعتقاده أنه لا تصح اجازتهم من بيت المال ، وكان ذلك اعتقاد غير واحد من أبناء الصحابة كعبد الله بن الزبير وغيره . وكان المنصور بخيلا على الشعراء اشتغالا عنهم بتأييد الدولة . فكانوا يخرجون في أيامه من بغداد ويجمعون ويتذاكرون أيامهم في الشام (٥) على عهد بني أمية

ولكن معظم الخلفاء كانوا يحبون الشعر ويقربون الشعراء ، وبعضهم تعلموا العروض ونظموا الشعر ولهم أبيات مشهورة . وكان الشعراء يتقربون الى الخلفاء أو الأمراء بالمديح ، وقد يرتكبون أقبح الاكاذيب في هذا السبيل ، الا من لم ينتجع بشعره وهم قليلون ، وكانت لهم منزلة رفيعة عند أهل الدولة (٦) وأما سائر الشعراء فكانوا يتعيشون بالمديح أو الهجاء . وقيل للحطيئة : « اياك وهجاء الناس » فقال : « اذا يموت عيالى جوعا . هذا مكسبى ومنه معاشى » (٧) وقد يمدح الشاعر الضدين رغبة في الكسب ،

(١) طبقات الادباء ١٢٠ وابن خلكان ٢٢٨ ج ٢

(٢) طبقات الادباء ٢٢٨

(٣) فوات الوفيات ٢٤١ ج ١

(٤) الاغانى ١٥٨ ج ١٥ و ١١٩ ج ٢٠

(٥) الاغانى ١٠٢ و ٩١ ج ١٢

(٦) الاغانى ٧٩ ج ٢٠

(٧) الاغانى ٥٥ ج ٢

كما فعل ابن دأب فمدح معاوية وعلياً (١)

وكان الشاعر إذا دخل على الخليفة بقصيدة أنشدها بصوت عال وهو قائم . وإذا تعدد المنشدون قدمهم على الاسنان . وكان الخلفاء يتفهمون معاني الشعر حتى أنهم كثيراً ما كانوا يباحثون الشاعر في معنى البيت أو الكلمة ، وإذا استبطأوا الشاعر أو الراوية بعثوا في استقدامه من العراق أو الحجاز ، وقد لا يكون الغرض من ذلك إلا سماع بيت أو قصيدة ، كما فعل الوليد بن يزيد في استقدام حماد من العراق لينشده قصيدة تغنيها مغنيته (٢) أو لينظم له شعراً في حادثة جرت معه كما فعل الواثق لما غضبت عليه حظيته فاستقدم ابن الضحالك ليقول في ذلك شعراً (٣) وقد يجيزون من يأتيهم بشاعر يعجبهم ، كما أجاز المهدي الفضل بن الربيع بعشرة آلاف دينار وولاه حجابته لأنه أتاه بابن جامع (٤)

وكانوا لا يكتفون بمن يفد عليهم من الشعراء للاستجداء ، فيرسلون في طلبهم إلى الانحاء ، وأرغب الخلفاء في ذلك الرشيد (٥) فتكثر الشعراء ببابه حتى ضاقت بهم بغداد ، واضطروا إلى امتحانهم وترتيبهم في الجوائز ، فعهد يحيى ابن خالد بذلك إلى شاعره أبان اللاحقى (٦) وأصبح الخليفة إذا أحب مجالسة الشعراء بعث رجلاً يثق به ليختار له أحسنهم (٧) أو إذا عن له بيت أو قصيدة خرج وصيف أو حاجب أو نحوهما فيقول للشعراء : « من منكم يقدر يقول قول فلان أو يحفظ القصيدة الفلانية فليدخل وله كذا وكذا » (٨) وكانوا يطربون للشعر ويستلذونه ، وربما تراحفوا عن مجالسهم أعجاباً وطرباً (٩)

مجالس المناظرة والعلم

كانت مجالس الأدب في أيام بنى أمية وأوائل بنى العباس يقتصر البحث فيها على المسائل الأدبية والعلوم اللسانية كما تقدم ، فلما ترجمت علوم القدماء في العصر العباسي ونشأ علم الكلام شاعت المناظرة بين العلماء والفقهاء . وقد سبق الناس إلى العناية في ذلك البرامكة ، فكان ليحيى بن خالد مجلس يجتمع فيه المتكلمون وغيرهم من أهل النحل ، يتباحثون في الكون والظهور والقدم

(١) الأغاني ١٣٩ ج ٤

(٢) الأغاني ٦٥ ج ٢

(٣) الأغاني ١٧٨ ج ٦

(٤) الأغاني ٨٣ ج ٦

(٥) الأغاني ٧٤ ج ١٧

(٦) الأغاني ٧٣ ج ٢٠

(٧) الأغاني ٢ ج ١٢

(٨) الأغاني ١٣٥ ج ١١ و ١٤١ ج ١٧

(٩) سير الملوك ٩٣

والحدوث والاثبات والنفي وغيرها من الابحاث الفلسفية المبنية على علم الكلام (١)

ثم اهتم الخلفاء انفسهم في ذلك ، ولا سيما بعد ان ظهر القول بخلق القرآن وقام به المؤمنون ، فآخذ يعقد المجالس للمناظرة فيه وفي سواء ، وعين لذلك يوم الثلاثاء من كل اسبوع . فاذا حضر الفقهاء ومن يناظره من سائر اهل المقالات ادخلوا حجرة مفروشة وقيل لهم : « انزعوا اخفافكم » ثم احضرت الموائد وقيل لهم : « اصبوا من الطعام والشراب وجددوا الوضوء ، ومن كان خفه ضيقا فلينزعه ، ومن ثقلت عليه قلنسوته فليضعها » . فاذا فرغوا اتوا بالمجامر فتبخروا وتطيبوا ثم خرجوا ، فاستدناهم الخليفة حتى يدنوا منه ويناضروهم احسن مناظرة والطفها وابعدها من مناظرة المتجبرين . فلا يزالون كذلك الى ان تزول الشمس ، ثم تنصب الموائد ثانية فيطعمون وينصرفون (٢) وسار الواثق على خطواته في هذا السبيل . وكانوا يعقدون هذه المجالس كلما دعت الحاجة الى اثبات رأى او مذهب جديد

ولما استقرت الدولة الفاطمية بمصر فعل وزيرها يعقوب بن كلس مثل ما فعل يحيى البرمكى وزير العباسيين ، فانشأ مجالس للمناظرة في الفقه والادب والشعر وعلم الكلام وغيره ، وغرض هذه الدولة اثبات مذهب الشيعة لأن دولتهم قامت عليه . فآخذ الحاكم بأمر الله يفادى العلماء ويجيزهم ، ويسهل عليهم البحث والمناظرة في دار الحكمة التى انشأها في القاهرة (٣) وربما عقدوا حلقي المناظرة في الجوامع أو غيرها

وصارت تلك المجالس عامة في الدول التى خلقت الدولة العباسية أو تفرعت منها ، وأكثر العقلاء والاقوياء من الملوك والسلطين كانوا يعقدونها للمناظرة — كذلك فعل صلاح الدين الايوبى وسيف الدولة الحمدانى ونظام الملك وزير ملكشاه والحكم المستنصر الاندلسى . واقتدى بهم اهل العلم والوجهاء والاطباء ، وأطلقت حرية البحث في كل شيء . ومن أشهر مجالس المناظرة مجلس كان يعقده يوحنا بن ماسويه في بغداد ، فيحضره العلماء على اختلاف طبقاتهم من الفلاسفة والاطباء والادباء والمتكلمين وغيرهم (٤) ومجلس أبى حامد الاسفرايينى كان يحضره ٣٠٠ فقيه . وقس عليهما مجلس ابن المنجم وكان يعقده بحضرة المكتفى (٥)

(١) السمعودى ٢٠٢ ج ٢ وابن خلكان ٤٨٠ ج ١

(٢) السمعودى ٢٢١ ج ٢ وابو الفرج الملقب ٢٣٦

(٣) الجزء الثالث من هذا الكتاب

(٤) طبقات الاطباء ١٧٥ ج ١ وابو الفرج الملقب ٢٢٧

(٥) ابن خلكان ٢٢٥ ج ٢

مجالس الفناء والانس

منزلة المغنين

تقدم الكلام في تاريخ الفناء وأصله وانتشاره ، وقد رغب الخلفاء فيه على الخصوص في ايام الحضارة وعصر الرخاء والترف ، وجعلوا للمغنين نوبات يدخلون فيها مجالسهم (١) وفرضوا لهم الرواتب كما فرضوها للشعراء ، وعهدوا بهم الى بعض اهل البلاط أو الحاشية ينظرون في أمورهم (٢) . وكانوا يصطحبونهم في خروجهم للصيد أو نحوه ويجيزونهم (٣) الجوائز الكبرى وهم أقرب الى ذلك من الشعراء لما يتفق في مجالسهم من طرب الخلفاء ، لانهم كلما كانوا يسمعون الفناء من غير شراب ، فاذا طربوا بدلوا الاموال بلا حساب كما تقدم

ومن أكثر الخلفاء الامويين رغبة في الفناء وبلالا للمغنين يزيد بن عبد الملك ، الذي استخفه الطرب من غناء جاريته حباية حتى قال : « أريد أن أطير ! » . فقالت له حباية : « على من تدع الامة وتدمنا ؟ » (٤) وكذلك كان ابنه الوليد ابن يزيد . ومن الخلفاء العباسيين المهدي والرشيد والأمين والمأمون والواثق والمتوكل ومن نبغ في أيامهم من الوجهاء والعظماء

على انهم كانوا اذا أهمهم أمر الدولة وخافوا سقوطها أبعدا المغنين ليتفرغوا لمهامهم ، كما فعل المأمون لما رجع من خراسان (٥) . وكان لكبار المغنين منزلة رفيعة في الدولة كابراهيم الموصلي وابنه اسحق وابن جامع ، وكانت جوائزهم من الخلفاء تفوق الحصر ، ذكروا عن ابراهيم المذكور انه غنى للامين بشهر

أبي نواس :

رشا لولا ملاحظته خلت الدنيا من الفتن

فاستخفه الطرب حتى وثب من مجلسه وركب على ابراهيم وجعل يقبل رأسه ! فنهض ابراهيم واخذ يقبل اخمص قدمي الأمين وما وطئتا من البساط ، فأمر له بثلاثة آلاف درهم ، فقال ابراهيم : « ياسيدي قد أجزتني الى هذه الغاية بعشرين ألف ألف درهم » فقال الأمين : « وهل ذلك الا خراج بعض الكور ؟ » (٦) فاعتبر ما دخل على الموصلي من الرشيد وغيره . فلا غرو اذا توفي عن ثروة طائلة . واشتهر في الاندلس على بن نافع المعروف بزرياب المغني وهو الذي نقل هذه الصناعة الى الاندلس ، فقد أثرى وارتفعت منزلته حتى

(١) الافاني ٩ ج ١٢

(٢) ابن الاثير ٦١ ج ٨

(٣) الافاني ١١١ ج ٥

(٤) المسعودي ١٢٦ ج ٢

(٥) الفرج بعد الشدة ٨٧ ج ١

(٦) المعتمد القريد ١٩٥ ج ٣

صار يركب في ٢٠٠ غلام ويملك ٣٠٠٠٠ دينار غير الخيل والضياع والرقيق (١) (ج)

المضحكون والمجانون

ومن توابع مجالس الفناء المضحكون والمجانون ، أشهرهم أشعب في دولة بنى أمية وأبو الحسن الخليلي الدمشقي في أيام الرشيد وأبو العبر في أيام المتوكل وغيرهم كثيرون . فكانوا إذا عقدت مجالس الانس ودارت الاقداح وطرب الخليفة لبسوا ملابس مضحكة يقلدون بها الدب أو القرد ، يعلقون في أعناقهم الجلاجل والاجراس مما يضحك الثكلى ، وكان بعض الخلفاء إذا استخفهم الطرب كلفوا هؤلاء المجانين ما لا يطاق من ضروب العذاب وهم يتسللذون بعذابهم ، فالتوكل كان إذا طرب أمر بأبي العبر المجان أن يرمى به في المنجنيق الى الماء وعليه قميص حرير ، فإذا علا في الهواء صاح : « الطريق الطريق ! » ثم يقع في الماء فيخرجه السباح . وكان يجلس أحيانا على الزلافة فينحدر فيها حتى يقع في البركة ، ثم يطرح الخليفة الشبكة فيخرجه كما يخرج السمك (٢) وكان الامين اذا طرب صاح في ندمائه وجلاسه : « من يكون منكم حمارى ؟ » فكل واحد يقول : « انا ! » فيركب الواحد ويصله (٣) وكان يقع في مجالس الوليد ابن يزيد من السكر والفحش في القول والفعل ما نتحاشى ذكره . وقد أفرط الخلفاء في التبسط في العيش والتمتع بالملذات ، ولذلك كانوا قصار الاعمار فمات أكثرهم قبل سن السكولة

(١) الاغانى ١٣٢ ج ١

(ج) المادة من زرياب والفرقة ، أهمها نفع الطيب للمعزى ، فهرس الطبعة الاوروبية ، والمقد الفريد لابن عبد ربه ، طبعة الدكتور احمد امين وآخرين ، القاهرة ١٩٤٨ - ١٩٥٥ ، الفهرس العام في الجزء السابع ، وطوق الحمامة لابن حزم ، طبعة بتروف ، ليون ١٩١٤ ص ١٠٨ ، وتاريخ الموسيقى العربية لفارمر ترجمة الدكتور حسين نصار ، القاهرة ١٩٥٧

Julian Rebera, La musica arabe medieval y su influencia en la espanola. Madrid 1927.

(٢) الاغانى ٩٢ ج ٢٠

(٣) الاغانى ٢٠٣ ج ٦

مواكب الخلفاء

نريد بالموكب الاحتفال بخروج الخليفة أو السلطان أو الأمير في عيد أو غير عيد ، وهو من مقتضيات الابهة والمدنية . وكانت المواكب معروفة عند ملوك العرب في الجاهلية ، فكان لمعديكرب عبيد من الاحباش يمشون بين يديه بالحراپ (١) فلما جاء الاسلام تزهّد أصحابه من التقوى ، فكان الخلفاء الراشدون يركبون في خروجهم كسائر الناس . وكان أبو بكر في أول خلافته يقيم في السّنع بضاحية المدينة ويفدو كل يوم على رجله الى المدينة وقد يركب فرسه . وكان يفدو الى السوق فيبيع ويبتاع ، وله قطعة غنم تروح عليه وربما خرج هو بنفسه فيها منفردا . وكان عمر يخرج في الاسواق ماشيا ويسوءه أن يركب عماله وأماؤه ركوب الفرس والروم . وقد على الشّام أربع مرات جاءها في المرة الاولى على فرس ، وفي الثانية على بعير ، وفي الثالثة على بغل ، وفي الرابعة على حمار . وبعث في احدى خطراته الى امرائه أن يوافوه في الجابية ، فكان أول من لقيه يزيد بن أبى سفيان وأبو عبيدة ثم خالد على الخيول عليهم الديباج والحريز ، فنزل وأخذ الحجارة ورماهم بها (٢) فقس على ذلك سائر الراشدون

مواكب الخلفاء في أبان التّمدن

على أن اتخاذا الآلة والاعوان في المواكب انما بدأ به العمال في الامصار ، لقربهم من حضارة الفرس والروم ، فاتخذوا الطبول والاعلام والحرس وغيرها من شارات الدولة . وأسبقهم الى ذلك معاوية ، فأقام حراسا يرفعون الحراپ بين يديه ، أو يقفون بالسيف عند المقصورة التي يصلّى فيها خوفا من الاغتيال (٣) واقتدى به عماله ، وبعضهم سبقه الى مثله ، فاتخذ زياد ابن أبيه رجالا يمشون بين يديه بالاعمدة (٤) أو بالحربة . وأصبح ذلك قاعدة في المسير بين يدي الخليفة ، ثم صار المسير بالحربة خاصا بولى العهد أو بكبار العمال ، يحملها رجل راكب على جواد يتقدم الخليفة أو الأمير ، فجرى على ذلك الخلفاء العباسيون (٥)

(١) المسعودى ١٩٧ ج ١

(٢) ابن الاثير ٢٤٦ ج ٢ والمقد الفريد ٢٣٦ ج ٢

(٣) الفخرى ٩٧

(٤) لطائف المعارف ١٢ والمقد الفريد ٤ ج ٣

(٥) البهيان والتبيين ١٥ ج ٢ وابن الاثير ٢٦ ج ٦ والمقرئى ٣٠٧ ج ١

وفي أيام المتوكل جاء بعضهم بحربة كانت للنبي (صلعم) تسمى العنزة ، وأصلها للنجاشي ، فأهداها للزبير بن العوام فأهداها الزبير للنبي (صلعم) وكانت تركب بين يديه في العيدين ، ثم اتصلت بذلك الرجل فحملها الى المتوكل ، فكان صاحب الشرطة يحملها بين يديه (١) اذا خرج في موكب

وتدرجوا في الابهة بتدرجهم في أسباب المدنية واتساع السلطة ، حتى اصطنعوا المحامل أو القباب أو المحفات يحملون بها بدل الركوب على الخيل ، ثم صاروا يركبون والناس يمشون بين أيديهم . وأقدم من فعل ذلك الاشعث ابن قيس سيد أهل اليمن ، فكان يركب والناس يمشون بين يديه (٢) ثم صاروا يمشون بين يدي الخلفاء بالسلاح ، وأول من فعل ذلك الهادي العباسي ، فكان اذا ركب مشى الرجال بين يديه بالسيوف المرفعة والاعمدة المشهورة والقسي الموتورة (٣) فلما خلفه الرشيد تجاوزه فاتخذ خدما صغارا يسمونهم النمل يتقدمونه وبأيديهم قسي البندق يرمون بها من يعارضه من الناس (٤) ثم صار ذلك سنة جرى عليها الوزراء والامراء ، وأول وزير مشى أرباب الدولة بين يديه رجالة الحسن بن علي وزير المسترشد (٥) وكاتوا الى ذلك الحين يركبون بالخلية الخفيفة الفضية والسروج المكسوة بالديباج ، ثم ركبوا في خلية الذهب ، وأول من ركب بها المعتز العباسي المتوفى سنة ٢٥٥ هـ فجرى الناس على ذلك

أما في مصر فالخلفاء الفاطميون قلدوا العباسيين في مواكبهم على جاري العادة في سائر أسباب المدنية ، وزادوا عليهم الركوب بالمظلة والشمسية ، ولعلهم نقلوا هذه العادة من المغرب لأنها كانت جارية هناك قبل الاسلام ، فكان الناس يظللون حكامهم بريش الطواويس (٦) فاتخذها الفاطميون من الديباج أو الخز المحلى بالذهب والمرصع بالجواهر وحولها الاعلام تختلف ألوانها باختلاف الاحوال

وكان السلاجقة يركبون بالطبل والبوق والعلم وبالجتر على رؤوسهم ، وهو كالقبة الصغيرة مرتفعة في الهواء على رمح يحمله من يسير قرب الملك بحيث يظلله من الشمس ، ويتخذونه من الديباج أو الحرير المذهب (٧)

على أن تلك المواكب تختلف فخامة وشكلا باختلاف المقصود منها وباختلاف الدول ، أهمها موكب الخروج الى الحج أو الى بلد آخر . ومواكب الاعياد وهي

(١) ابن الاثير ٣٢ ج ٧

(٢) لطائف المعارف ١٢

(٣) المسعودي ٣٦٥ ج ٢

(٤) الاغانى ٩٤ ج ٢٠

(٥) الفخرى ٢٧٢

(٦) الاغانى ٥٩ ج ٦

(٧) ترتيب الدول ١٠٣

تمتاز بمن يقف للخليفة في خروجه من صفوف الجند . وأول من صفت له الجنود يزيد بن الوليد الاموى ، فكان يخرج يوم العيد بين صفين عليهم السلاح (١)

وللخلفاء مواكب كثيرة لو أردنا الاتيان عليها كلها لضاق المقام ، ولكننا نقول بالاجمال انهم كانوا يخرجون على الخيول أو في القباب ، وحولهم الاعوان ركوبا والشرطة مشاة ، وكذلك الفلمان على اختلاف طبقاتهم يلبسون مناطق الذهب أو يحملون المقارع أو الطبرزينات المحلاة بالذهب ، ويقف الناس أو الجند في الطريق صفين يسير الموكب بينهما ، ويختلف طول هذا الموكب باختلاف مايريدونه من اظهار الابهة . وقد بلغ طوله في خروج المتوكل على الله أربعة أميال ترحل فيها الناس بين يديه (٢) وإذا كان المسير الى مكان بعيد ضربوا القباب العظيمة في الطريق (٣) يستظل الخليفة بها أو يقيم فيها

وكان الخلفاء الفاطميون يركبون يوم الجمعة الى الجامع الازهر بالمظلة المذهبة وبين ايديهم نحو ٥٠٠ ماش ، وعلى الخليفة الطيلسان والسيف وبيده قضيب الخلافة ، حتى يأتى الجامع ويصلى ، ولهم رسوم كثيرة يجرونها قبل الصلاة . وإذا خرجوا للمبايعة أو الاحتفال لفتح الخليج ركب الخليفة وعليه العمامة الجوهرة (٤) وثوب يقال له البدنة كله ذهب وحرير مرقوم والمظلة من شكله ، وبين يدي الخليفة الجناث عليها السروج الذهب المرصع بالجواهر والسروج العنبر والقباب الديباج بالخلي ، والعسكر على أزيائه من الاتراك والديلم والعزيرية والاشييدية والكافورية بالديباج الثقيل والمناطق المذهبة ، وبين يديه الفيلة عليها الرجال بالسلاح والزراقة ، وفوق الخليفة المظلة الثقيلة بالجواهر وبيده قضيب الخلافة ، ويمشى امامه اصحاب الابواق الذهب فابواق الفضة فالنحاس ، واصحاب الطبول الكبار التى مكان خشبها فضة ، والاولوية تخفق فوق ذلك الموكب

احتفالاتهم

الاحتفالات الدينية

والاحتفالات فى التمدن الاسلامى بعضها دينى كالموالد والاعياد والكسوة ، وبعضها وطنى كالنيروز والمهرجان وشم النسيم وفتح الخليج . على ان الاحتفالات الدينية انما اتخذوا أسلوب الاحتفال بها من غير المسلمين ، كما

(١) ابن الاثير ١٤٧ ج ٥

(٢) ابن الاثير ٣٦ ج ٧ والاغانى ٣٢ ج ٩ وابن خلكان ٢٨٠ ج ٢

(٣) فوات الوفيات ٤ ج ١

(٤) المقرئى ٢٨٠ و ٢٨٥ ج ٢

اتخذ النصارى بعض طقوس الاحتفال بأعيادهم من الوثنيين. ولا يزال الاحتفال بالأعياد الإسلامية شائعا الى الآن مع تغيير اقتضاء الفرق بين التمدنين. وأكثر الدول الإسلامية عناية بهذه الأعياد الفاطميون . منها : يوم عاشوراء ، والمولد النبوى ، ومولد على وفاطمة والحسن والحسين ، والخليفة الحاضر ، وليلة أول رجب ، وعيد النحر ، وعيد الفطر ، وفتح الخليج ، ويوم النيروز ، وغيرها مما فصله المقرئى فى خطه (١). ولهم فى كل من هذه الأعياد رسوم وقواعد يبدلون فيها الاموال ويفرقون الصدقات ويهدون الهدايا من النقود والثياب والحلى وغيرها مما يطول شرحه

وممن اشتهرت عنايته بالاحتفالات الدينية مظفر الدين صاحب اربل ، وكان احتفاله بالمولد النبوى بالفا حد النهاية فى الابهة ، والمشهور انه اول من احتفل به على الصورة المعروفة اليوم (٢) وكذلك السلطان أبو حمو موسى صاحب تلمسان (٣) - هذا غير احتفالاتهم الاجتماعية كالاعراس والمآتم والختان ونحوها ، والسياسية كاستقبال الوفود والمبايعات والتتويج والخلع ، فنذكر امثلة منها فيما يلى :

احتفالات الاعراس ونحوها

فالاحتفال بالاعراس تقلب على أحوال شتى ترجع الى نحو المشهور من الاحتفال بأعراس المسلمين فى مصر الآن ، مع اعتبار عوائد البلاد وتفاوت الثروة . ونأتى بمثال من أبلغ ما يعرف من التناهى بالبذخ فى مثل هذه الحال ، فنذكر احتفالين اشتهرا فى تاريخ الاسلام :

الاول : زفاف خديجة بنت الحسن بن سهل المسماة بوران الى الخليفة المأمون ، احتفلوا به فى « فم الصلح » احتفالا لم يسبق له مثيل ، نشر الحسن فيه على الهاشميين والقواد والكتاب والوجوه بنادق المسك فيها رقايع بأسماء ضياع وأسماء جوار وصفات دواب وغير ذلك . فكانت البندقة اذا وقعت فى يد الرجل فتحها فيقرأ ما فى الرقعة ، فاذا علم ما فيها مضى الى الوكيل المرصد لذلك فيدفعها اليه ويتسلم ما فيها ، سواء كان ضيعة أو ملكا آخر أو فرسا أو جارية أو مملوكا . ثم نشر على سائر طبقات الناس الدنانير والدرهم ونوافج المسك وبيض العنبر ، غير ما أنفق على المأمون وقواده وأصحابه وسائر من كان معه من أجناده وأتباعه ، وكانوا خلقا لا يحصى حتى على الحماليين والمكارية والملاحين وكل من ضمه عسكره . ذكروا انه خدم فى

(١) المقرئى ٤٩٠ ج ١

(٢) ابن خلكان ٤٣٦ ج ١

(٣) نفع الطيب ٦٠٤ ج ٤

ذلك الاحتفال ٣٦٠٠٠ ملاح ونفذ الخطب يوما فأوقدوا تحت القدور الخيش مغموسا في الزيت . ولما كانت ليلة البناء وجليت بوران على المأمون فرش لها حصير من الذهب ، وجيء بمكتل مرصع بالجواهر فيه درر كبار نثرت على النساء وفيهن زبيدة وحمدونة بنت الرشيد فما مست احدهن من الدر شيئا . فقال المأمون : « شرفن أبا محمد وأكرمنه » فمدت كل واحدة منهن يدها فأخذت درة ، فبقى سائر الدر يلوح على ذلك الحصير الذهب ويتلألأ فقال المأمون : « قاتل الله الحسن بن هانيء » ، كانه قد رأى هذا حيث يقول :

كأن صفري وكبرى من فقاقتها حصباء در على أرض من الذهب

وكانت في المجلس شمعة عنبر فيها مائة رطل ، فضج المأمون من دخانها فعملت له مثل من الشمع فكان الليل مدة مقامه فيه كالنهار . وبلغت نفقة هذا الاحتفال ٥٠٠٠٠٠ درهم ، وأمر المأمون للحسن بن سهل عند منصرفه بمبلغ ١٠٠٠٠٠ درهم وأقطعه فم الصلح ، فجلس الحسن وفرق المال على قواده وأصحابه وحشمه ، وأطلق له خراج فارس وكور الأهواز مدة سنة . وجاء المأمون الى عروسه في الليلة التالية فنثرت عليه جدتها ألف درة كانت في صينية ذهب (١) وغير ذلك مما يفوق طور التصديق

والاحتفال الثاني اقامه المتوكل على الله حين ظهر ابنه المعتز بالموضع المعروف ببركوازا ، ومما جرى فيه انه جلس بعد فراغ القواد والاكابر من الاكل ومدت بين يديه مراقيم ذهب مرصعة بالجواهر ، وعليها أمثلة من العنبر والتند والمسك المعجون على جميع الصور ، وجعلت بساطا ممدودا . وأحضر القواد والجلساء وأصحاب المراتب ، فوضعت بين أيديهم صواني الذهب مرصعة بأصناف الجواهر من الجانبين وبين السماطين فرجة . وجاء الفرائشون بزناييل قدغشيت بالادم مملوءة دراهم ودنانير نصفين ، فصبت في الفرجة حتى ارتفعت على الصواني ، وأمر الحاضرون أن يشربوا وأن يتنفل كل من شرب من تلك الدنانير بثلاث حفنات مما حملت يده ، وكلما خف موضع صب عليه من الزناييل حتى يرد الى حالته . ووقف غلمان في آخر المجلس فصاحوا : « ان أمير المؤمنين يقول لكم : ليأخذ من شاء ما شاء ! » فمد الناس أيديهم الى المال فأخذوه ، وكان الرجل يثقله ما معه فيخرج به فيسلمه الى غلمانه ويرجع الى مكانه . ولما تقوض المجلس خلع على الناس ألف خلعة ، وحملوا على ألف مركب بالذهب والفضة وأعتق ألف نسمة (٢)

وقس على ذلك احتفال الخليفة المقتدى بالله سنة ٤٨٠ هـ لما زفت اليه

(١) لطائف المعارف ٧٣ وابن خلكان ٩٢ ج ١

(٢) لطائف المعارف ٧٤

بنت السلطان ملكشاه وحمل جهازها الى دار الخلافة (١) وأما الاحتفال بتتويج السلاطين والبيعة فقد ذكرنا أمثلة منه في الجزء الاول من هذا الكتاب

الخلع على الوزراء

ومن مظاهر الابهة احتفالهم بالخلع على الوزراء والسلاطين ، وأول من خلع عليه جعفر البرمكى في اليوم الذى تولى الرشيد الخلافة فيه ، وكان في جملة ما خلعه عليه ١٠٠ بدره دراهم ودنانير ، وأمر الناس فركبوا اليه حتى سلموا عليه وأعطاهم خاتم الملك ليختم به على ما يريد (٢) وحذا حذو الرشيد من جاء بعده فخلعوا على وزرائهم وعمالهم خلعا تختلف شكلا وقدر باختلاف الاحوال ، ومعها في كل حال ثوب يرسله الخالع ويلبسه المخلوع عليه يقال له الخلعة . فالخليفة العاضد الفاطمى لما ولى السلطان صلاح الدين الايوبى الوزارة بمصر لقبه الملك الناصر ، وخلع عليه خلعة مؤلفة من عمامة بيضاء تنيسى بطرف ذهب وثوب ديبقى بطراز ذهب وجبة بطراز ذهب وطيلسان مطرز ذهب ، وعقد جوهر بعشرة آلاف دينار وسيف محلى بخمسة آلاف دينار وحجرة (٣) بثمانية آلاف دينار عليها سرج ذهب وسرصار ذهب مجوهر ، وفي رأسها مائتا حبة جوهر وفي قوائمها أربعة عقود جوهر وفي رأسها قصبه بذهب وفيها شدة بياض بأعلام بياض . ومع الخلعة عدة بقج وخيل وأشياء أخرى ومنشور الوزارة مكتوب في ثوب اطلس أبيض (٤)

ولما نقلت الخلافة العباسية الى مصر خلع الخليفة العباسى على السلطان الملك الظاهر بيبرس يومئذ خلعة البسه اياها باحتفال ، هي عبارة عن جبة سوداء وعمامة سوداء وطوق في عنقه من ذهب وقيد في رجله من ذهب (٤) . وقس على ذلك

استقبال الوفود

أما استقبال الوفود فقد كان فخيميا يظهرهم به عز الاسلام ، ولا سيما اذا كان القادمون من وفود الدول غير الاسلامية من الروم أو الهند أو الفرنج . والاحتفال بذلك يختلف باختلاف الاحوال ، نذكر من أمثلته احتفال المقتدر العباسى برسل جاءوه من ملك الروم سنة ٣٠٥ هـ فانه استقبلهم في « دار الشجرة » التى تقدم ذكرها وعبى لهم الجيوش ، وصفت الدار بالاسلحة وأنواع الزينة ، وكانت جملة العساكر المصفوفة حينئذ ١٦٠٠٠ رجل بين

(١) ابن الاثير ٦٥ ج ١٠

(٢) المقرئى ٩٩ ج ٢

(٣) بكسر الحاء وسكون الجيم ، هي الفرس . انظر : ملحق القواميس لدوزى ، مادة حجرة

(٤) السيوطى ٢٥ ج ٢

(٤) السيوطى ٥٨ ج ٢

راكب وواقف . ووقف الفلمان الحجرية (❖) بالزينة والمناطق المحلاة وكانوا اثنين وعشرين الفا . ووقف الخدم والخصيان كذلك وعددهم سبعة آلاف ، منهم ٤٠٠٠ خادم أبيض و٣٠٠٠ خادم أسود. ووقف الحجاب وكانوا سبعمائة حاجب ، وزينت المراكب والزوارق في دجلة أعظم زينة . وزينت دار الخلافة، وكانت جملة الستور المعلقة عليها ٣٨٠٠٠ ستر منها ديباج مذهب ١٢٥٠٠ ستر ، وكانت جملة البسط ٢٢٠٠٠ بساط . واستعرضوا مائة سبع مع مائة سباع . وكان في جملة الزينة الشجرة الذهب والفضة التي تشتمل على ثمانية عشر غصنا من الذهب والفضة ، فكانت أغصانها تتمايل بحركات موضوعة وعلى الأغصان طيور وعصافير مختلفة من الذهب والفضة تصفر بحركات مرتبة كما وصفناها في محلها . فشاهد الرسل من العظمة ما يطول شرحه (١)

الخلفاء والدول المعاصرة

هب العرب للفتح والعالم قد تضعضع وأهله في خمول ، فبغتوهم وفتحوا بلادهم في بضعة عشرة سنة على أسلوب لم يسبق له مثيل . فلما أفاقوا أرادوا ردهم فعجزوا عنه ، وما لبثوا أن شاهدوا تمدنهم وعمران مملكتهم واشتغالهم بالعلوم والفنون والصناعة والتجارة والرحلة والسياحة ، فهابوهم وأخذوا يتقربون إليهم بالوفود والهدايا إلى المدينة فدمشق ، ثم أصبحت بغداد مجتمع الوفود القادمين من أطراف العالم من الهند والصين شرقا إلى أعالي آسيا وأواسط أوروبا شمالا إلى أقصى أفريقيا غربا والبحر الهندي جنوبا . وصارت البصرة مركز التجارة البحرية في الشرق وملتقى السفن القادمة من أقاصي البحور

الإسلام في تاريخ الصين

المشهور أن الإسلام لم يذكر ظهوره وانتشاره غير أصحابه ، ولم يدون أخباره غير أهله ، حتى الروم مع ما كان من مدنيته يومئذ لم يكتب المعاصرون منهم شيئا عن الإسلام أو المسلمين (❖❖) . ولكن الباحثين عثروا في الكتب

(❖❖) الحجرية بضم الحاء وسكون الجيم نسبة إلى حجرة ، ويريد بهم الفلمان الذين تربوا داخل القصر (في الحجرات)

(١) أبو الفدا ٧٣ ج ٢ وابن السامى ٧٥

(❖❖❖) كان هذا هو المظنون حتى أواخر القرن الماضي ، ثم ظهر بعد ذلك أن المدونات اللاتينية والنصرانية في الشرق والغرب حافلة بالإشارات إلى ظهور الرسول صلى الله عليه وسلم وانتشار الإسلام ، بل فيها مدونات أرخت للإسلام تاريخا منتظما ، وفيها ماعرض للإسلام وحاول إعطاء فكرة منه ، وهذه الكتابات كلها تحمل طابع التحامل والتعصب الشديد ، من جهل بالإسلام حيناً وميلاً إلى العصبية الدينية حيناً آخر ، وعلى سبيل المثال فقط نذكر مايلي من الأصول والأبحاث مما كتبه أهل العصور الوسطى من النصارى عن الإسلام :

الصينية على خبر الاسلام وانتشاره الى استقلال معاوية بالخلافة لنفسه ، فقيام أبى مسلم الخراساني ونقله الدولة الى العباسيين وغير ذلك . فقرأوا أسماء محمد وقريش ومعاوية وأبى العباس وأبى جعفر وغيرهما من رجال الاسلام مكتوبة بالأحرف الصينية . ومما جاء هناك أن أبا جعفر أرسل سنة ٧٥٦ م وفدا الى إمبراطور الصين التقى عنده بوفد قادم من « هوى هو » من مغول الشمال فاخترص الوفدان فيمن يتقدم بالدخول على الإمبراطور ، فانصف الحاجب بينهما وأدخل كل وفد من باب - ذكروا ذلك بكتاب طنغ شو الفصل العاشر في أثناء سيرة الإمبراطور سوتسونغ . قالوا : « ثم تولى المهدي وخلفه هرون الرشيد وفي أيامه (سنة ٧٨٥ م - ٨٠٤) جرد العرب أصحاب الجبة السوداء على توفان (تيب) ثم صار أهل توفان يتجندون لقتالهم كل سنة . وفي (٧٩٨ م) جاء ثلاثة سفراء من العرب الى بلاط الإمبراطور الخ » (١)

ووقفوا في تاريخ الصين أيضا على نصوص تشير الى ما كان من العلاقات التجارية بين الصينيين والعرب من أواسط القرن العاشر للميلاد أو الثالث للهجرة ، فذكروا سفنا تجارية عربية كانت ترسو على شواطئ الصين يحملون فيها الزجاج والسكر وغيرها . وان تجار العرب وريان سفنهم كثيرا ما كانوا يفدون على البلاط ويدخلون على الإمبراطور فيخاطبهم ويسألهم عن بلادهم وملوكهم وسائر أحوالهم . ووقفوا على نصوص أخرى تدل على علائق مثل هذه بين الصين وغير العرب من دول الاسلام مما يطول بيانه . ومع اختصار هذه الاخبار وتشوش حوادثها وفساد تهجئة الاعلام فيها فهي عظيمة الأهمية، لانها منقولة عن مصدر صيني مستقل (*)

E.W. Brooks, The chronological canon of James of Edessa. ZDMG, vol 53 (1899)
 Ibidem, A. Syria Chronicle of the year 846. ZDMG, vol. 53 (1897)
 H. Buk, Zur ältesten christlichen Chronographie des Islam, in Byzantinische Zeitschrift. Vol. 14 (1905)
 Georg Jakob, Berichte von Gesandten an germanische Fürstenhöfe aus dem 9. und 10. Jahrhundert. Berlin und Leipzig 1927.
 H. Zotenberg, Mémoire sur la chronique byzantine de Jean, évêque de Nikion. dans J.A. (7ème série) X (1877) p 451 sqq; XII (1878), p. 245 sqq. XIII (1879). p. 291 sqq.
 Monumenta Germaniae historica, Auctorum antiquissimorum, tomus XI, Chronica minora saec. IV, V, VI, VII, Vol. II, éd. Th. Mommsen. Berolini 1893.
 Neophori (Archiepiscopi Constantinopolitani) Opuscula historica. éd. C. de Boor. Bib-Teubneriana, Lipsiae 1880.
 Theodor Noeldeke, Zur Geschichte der Araber im ersten Jahrhundert der Hira aus syrischen Quellen ZDMG. XXIX (1875).
 L. Schwenkow, Kritische Betrachtungen der lateinisch geschriebenen Quellen zur Eroberung Spaniens durch die Araber. Goettingen 1894.

وانظر بصفة خاصة

Cesar Dubler, Sobre la Cronica arabigo-bizantina de 741 y la influencia bizantina en la Peninsula Ibérica. Al-Andalus, Vol. XI, fasc. 2, 1846.
 E. Reischneider, The knowledge Possessed by the Ancient Chinese of the (1) Arabs & Arabian Colonies 7.

(*) انظر عن هذا الموضوع : العلاقات بين العرب والصين ، بقلم بدر الدين حى الصنى ، القاهرة ١٩٥٠

أما العرب فقد ذكر مؤرخوهم وأهل الرحلة منهم كثيرا من أخبار نزولهم شواطئ الصين والهند ودخولهم على ملوكها ومخاطبتهم في بعض الشؤون التجارية . ولكن أكثر الناس كانوا لا يكتثرون بتلك الروايات لاعتقادهم أنها محشوة بالمبالغات والخرافات ، كأنهم قاسوها بما يقرأونه من الاقاصيص الخرافية في ألف ليلة وليلة مثل قصة السندباد البحري والفرس المسحور وغيرهما . على أن هذه الاقاصيص منقولة في الاصل عن غير العربية ، وأكثر خرافات العرب دخيلة في آدابهم - وأما ما يكتبونه من عند أنفسهم فالغالب فيه التحقيق والصدق ، ولا سيما كتب التاريخ ونحوها إذا نظرنا فيها نظر الناقد المنصف واعتبرنا الفرق بين عصرهم وعصرنا

على أننا لا نلوم المنكرين ، لأنهم إنما عرفوا العرب بعد ذهاب دولتهم وانحلال عصبيتهم وانحطاط همهم وضعف عزائمهم ، فأكبروا أن يكون لهم مثل تلك الهمم السماء في عهد ذلك التمدن، فكذبوا ما قرأوه في كتبهم من هذا القبيل . أما وقد رأينا ما يؤيده في كتب أهل الصين على غير تواطؤ أو نقل فلم يبق لنا بد من تصديقه

وأقدم ما وصل إلينا من الكتب العربية التي ذكرت تجارة العرب مع الصين والهند ونزول تجار العرب شواطئ تلك البلاد كتاب « سلسلة التواريخ » وهو يشتمل على السياحات البحرية التي أجرتها العرب والعجم من شواطئ خليج فارس إلى بلاد الهند والصين ، تأليف سليمان التاجر وأبى زيد حسن من أبناء القرن الثالث للهجرة . وقد طبع هذا الكتاب ببازيس سنة ١٨١١ ومعه ترجمة فرنسية للمستشرق الشهير رينو . ثم « مروج الذهب » للمسعودي ، وهو مشهور ومتداول ، غير أمهات كتب الجغرافية العربية وكلها مبنية على رحلات حقيقية أشهرها ما كتبه البلخي والاصطخري وابن حوقل والمقدسي وغيرهم . ، وليس هنا مكان الافاضة في ذلك (*)

(*) معظم من تكلم عن الصين من كتاب العرب وجغرافيتهم يتحدثون أيضا عن بقية ما عرفوه من بلاد آسيا ، وكتاباتهم على درجة عظيمة من الاصالة والصراحة لان الكثير منها مبنية على مشاهدة وتجربة مباشرين ، مثل كتابات سليمان التاجر السراق وأبى دلف الينبعي ورشيد الدين فضل الله وسيدى الحلبي، وقد نشر معظم هذه النصوص المستشرق الفرنسي Reinaud في كتابه Relation des Voyages وكذلك ابن بطوطة في رحلته المعروفة وهي منشورة ، وبعضهم الآخر يعتمد على النقل مثل أبى زيد الحسن السراق والمسعودي وابن خرداذبة ، وبعضهم الآخر ينقل عن روايات مثل أبى زيد الحسن السراق والمسعودي وابن خرداذبة ، وبعضهم الآخر يعتمد على النقل مثل أبى الفقيه وابن حوقل واليعقوبي والادريسي ، ويقاوت . ومن أهم هذه الاصول رحلة سليمان التاجر السراق ، فقد كتب في عام ٨٥١ بعد أن زار الصين أكثر من مرة ، وهو الوحيد الذي وصف لنا الطريق البري من العراق إلى الصين ويبدو أنه كان شديد الإعجاب بالصين وأهلها ، فقد قال مثلا : « والصين كلها عمارة ، أهلها أجمل من أهل الهند وأشبه بالعرب في اللبس والدواب ، وهم في هيئتهم في مواكهم شبيهون بالعرب ، يلبسون الاقنية والمناطق » وقال في موضع آخر : « بلاد الصين أنزه وأحسن وأصح وأقل أمراضا وأطيب هواء . لا تكاد يرى بها أعشى ولا أمور ، ولا من به عاعة ، وأهل الصين في كل موضع لهم مدينة محصنة عظيمة وعطاؤهم كمطاء العرب »

ومن أهم الكتب التي ألف حديثا عن الاسلام في الصين

Marshall Broomhall, Islam in China. London, 1906.

ويقال بالاجمال ان في كتب التاريخ نصوصا كثيرة تدل على علائق تجارية وسياسية بين العباسيين وملوك المشرق في الهند والصين ، وان المهاداة كانت متواصلة بينهما . فكانت وفود ملوك الهند تؤم بغداد من أواخر القرن الثاني للهجرة تحمل الهدايا او كتب المخابرة (١) ولا بد أيضا من وفود كانت تأتي بغداد من صاحب الصين

الاسلام وملوك اوربا

على ان علاقات ملوك المسلمين مع ملوك أوربا - وأعظمهم يومئذ الروم والجرمان والافرنج والاسبان - كانت أوثق من سواها . أما الروم ، وهم ملوك القسطنطينية ، فكانت المخابرات متواصلة بينهم وبين المسلمين من أيام بنى أمية أما لصلح أو مهادنة أو مهاداة أو مفاداة (٢) . والحرب كانت سجالا بينهما على الحدود أو في البحار . وقد حاصر الامويون القسطنطينية غير مرة ولم يفتحوها ولكنهم فتحوا بلادا أخرى من أوربا وأوقعوا الرعب في دول الافرنج . وكذلك بنو العباس (٣) فان الرشيد أخذ الجزية من ايريني صاحبة القسطنطينية (*)

وأما حوادث المهاداة فهدية الرشيد الى شارلمان ملك فرنسا أشهر من أن تذكر (***) . على أن هدايا ملوك الروم الى دار الخلافة كانت متواصلة ،

(١) العقد الفريد ١٤٩ ج ١ والمسعودي ٢:٤٨ ج ٢ وترتيب الدول ٩٦

(٢) المبرد ٢٩٦ و ٢٢٤

(٣) ابن الاثير ٧٤ ج ٦

(*) في تحقيق هذه العلاقات يستطيع القارئ الرجوع الى المراجع التي ذكرناها في تعليقنا رقم ١ ص ١٥١

(**) سبق أن ذكرنا في تعليقاتنا على الجزء الاول من هذا الكتاب ان قصة هدية الرشيد الى شارلمان قصة وضعها بعض تجار المغرب الذين ارادوا الحصول على بعض الامتيازات التجارية في بلاد الدولة الكارولنجية ، فزعموا أنهم رسل من الرشيد الى شارلمان ، وحملوا اليه هدايا في جملتها فيل يسمى ابا العباس ، وليس من المعقول ان يطلق الرشيد اسم جده على فيل . أما القول بان الرشيد أرسل الى شارلمان مفاتيح بيت المقدس فقد اخترعه الرهبان ليدهوا به حقوقا لشارلمان والبابوية على الاراضي المقدسة . وهم لم يكتبوا باختراع القصة ، بل صنعوا المفاتيح أيضا ، وقد ناقش الموضوع الدكتور عبد العزيز الدوري في كتابه « العصر العباسي الاول » وختم حديثه بقوله : « أما ونسيهان ، فيرى في نظرية حماية شارلمان على فلسطين أسطورة اخترعها المؤرخ الاسطوري الراهب سنت كول الذي كتب حوالي خمسين سنة بعد وفاة شارلمان ، اذ جمع المعلومات عن الهدايا التي ارسلها الخليفة والبطريق مع معلومات اينهارد المضطربة ليكون قصة مضمونها ان الرشيد تنازل لشارلمان عن سيادة فلسطين وأرسل اليه وارادتها وهكذا يظهرون نظرية الحماية واساسها الاسطوري . والذي اراه من هذه المعلومات المحدودة (ولم أظفر في المصادر اللاتينية الثلاثة بالنص) احتمال وجود نوع من الصلات ولكنها صلات تجارية لاسياسية ، وان المسئول عنها هم التجار اليهود العالميون الذين كانوا حلقة وصل بين الغرب والشرق ، ولعلمهم من اليهود الرادانية الذين كانوا يحسنون عدة لغات ويتاجرون بين فرنسا والاقطار الاسلامية والصين كما بين ابن خرداذبة ، خاصة وان من اساليب التجار آنئذ ان يدعوا بأنهم سفراء لتسهيل مصالحهم »

وقد ناقشنا الموضوع كله في فقرة « العباسيون والكارولنجيون » من بحثنا « المسلمون في حوض البحر الابيض المتوسط الى الحروب الصليبية » في المجلة التاريخية المصرية ، مجلد ٤ عدد ٢١ مايو ١٩٥١ ص ١٥٧ وما يليها

واكثرها من السيوف والثياب والاطياب والذهب والكلاب . منها هدية بعث بها قيصر الروم (ربما ميخائيل الثانى) الى المأمون وفيها تحف سنية من جعلتها مائة رطل مسك ومائة حلة سمور (١)

وأهدت ثريا بنت الاوبارى (كذا) ملكة الافرنج الى المكتفى بالله سنة ٢٩٣ هـ خمسين سيفاً و ٥٠ رمحاً و ٢٠ ثوباً منسوجاً بالذهب و ٢٠ خادماً صقلبياً و ٢٠ جارية و ١٠ كلاب كبار لا تغلبها السباع وستة بازات وسبعة صقور ومضرب حرير ملون كقوس القزح وغيرها (٢) (*)

وكان الخلفاء أيضاً يوجهون وفوداً من عندهم فى مراسلة أو مخابرة ، وممن سار فى ذلك القاضى الاشعرى المعروف بأبن الباقلانى أنفذه عضد الدولة سنة ٣٧١ هـ الى قيصر الروم (باسيل الثانى) فى جواب رسالة فآظهر فى بلاط القيصر أنفة زادت مقام المسلمين عندهم (٣)

الاندلسيون وملوك الافرنج

على ان العلاقات كانت أكثر وثوقاً بين ملوك أوربا وملوك الاسلام فى الاندلس، لأن قياصرة القسطنطينية كانوا يتقربون من الخلفاء الامويين فى قرطبة ليستنصروهم على العباسيين أعداء الجانبين . حتى ان ثيوفيلوس ملك الروم المعاصر لعبد الرحمن الاوسط هاداه سنة ٢٢٥ هـ وكتب اليه يرغبه فى ملك المشرق من أجل ما ضيق عليه به المأمون والمعتصم ، وقد ذكرهما فى كتابه له وعبر عنهما بأبن مراجل وأبن ماردة ، تحقيراً لهما بالانتساب الى أمهات من الجوارى . فكافاه عبد الرحمن عن الهدية وبعث اليه يحيى الفزال شاعره وأحد كبار دولته فأحكم الصلة بينهما (٤) فلما ظهر الخليفة الناصر عبد الرحمن الثالث وأوطأ عساكر المسلمين من بلاد الافرنج ما لم يطأه أحد من أسلافه ، تقدم اليه ملوكهم بالطاعة وتقربوا بالهدايا فأوفدوا رسلهم وهداياهم من رومية والقسطنطينية وغيرهما على سبيل المهادنة والسلم والعمل على كسب مرضاته ، ووصل الى باب الملوك من الاسباب المتأخمين لبلاده بجهات

(١) فوات الوفيات ٢٤٠ ج ١

(٢) المستطرف ٤٦ ج ٢

(*) يبدو أن هذا الخبر لا أساس له من الصحة ، ومصطلحه على أى حال هو الابشيى فى كتابه «المستطرف من كل فن مستظرف» وهو ليس مؤرخاً ولا محلقة . وقد حققنا الموضوع فلم نجد له أثراً فى المطولات العربية والبيزنطية ، فعام ٢٩٣ يقابل ٩٠٩ ميلادية ، وكان امبراطور الدولة البيزنطية اذ ذاك ليون الرابع (٨٨٦ - ٩١٢) من ملوك الاسرة المقدونية ، وكانت الحرب هواناً بين الروم والمسلمين ، مما ينفى احتمال التهادى . وليس بين ملكات الروم من تسمى ثريا بنت الاوبارى ، وربما كانت سيدة من اصحاب الاقطاعات الواسعة فى آسيا الصغرى ، فأرادت ان تتقرب الى المسلمين حتى لا يغزوا ارضها

(٣) ابن الاثير ٦ ج ٩

(٤) نفع الطيب ١٦٢ ج ١

قشتالة وبنبلونة وما ينسب اليها من الثغور الشمالية فقبلوا يده والتمسوا رضاه واحتقبوا جوائزه وامتطوا مركبه (١)

وتوالت الهدايا على عبد الرحمن الناصر من سائر ملوك الاسبان . فملكها برشلونة وطركونة هادياه يلتمسان تجديد الصلح (٢) وملك الصقالبة وهو يومئذ « ذوفوة » (كذا) أوفد اليه رسولا مع رسل آخرين من ملك الالمان (ربما أوتو الاعظم) وملك الفرنجة وراء الرون وهو يومئذ « أوفه ؟ » ورسول آخر من ملك الفرنجة بقاصية المشرق واسمه «كلدة» (ربما كونراد) واحتفل الناصر لقدمهم احتفالا شائقا . ولما رجعوا بعث مع رسول الصقالبة ربيعا الاسقف الى ملكهم . وبالجمله ان الخليفة الناصر كان سلطانه ضخما عزيزا ، لم يبق ملك من ملوك أوربا الا خطب مودته ، وفي جملةهم قياصرة الروم وملوك الافرنج والاسبان والجرمان . وفي نفح الطيب للمقرى تفصيل ما كان يجريه من الاحتفال في استقبالهم (٣) تعظيما لدولة المسلمين . ولما اراد بناء « الزهراء » أهدها أولئك الملوك من أصناف الحجارة والرخام على اختلاف ألوانه وأشكاله شيئا كثيرا (٤) وقد ذكرنا ذلك في كلامنا عن بناء هذا القصر الفخيم

وقس على ما تقدم علاقات ملوك أوربا بسائر خلفاء المسلمين وملوكهم ، فكانت هدايا قيصر القسطنطينية ترد على صاحب مصر ، ولا سيما في زمن الفاطميين بعد أن ضخمت دولتهم ، منها هدية بعث بها الامبراطور قسطنطين التاسع الى المستنصر بالله الفاطمي سنة ٤٣٧ هـ اشتملت قيمتها على ثلاثين قنطارا من الذهب الاحمر ، كل قنطار في عشرة آلاف دينار، الجمله ٣٠٠.٠٠٠ دينار (٥) وكان رسول الروم اذا قدم القاهرة في ذلك العهد نزل عند باب الفتوح ، ولا يزال يقبل الارض وهو ماش حتى يصل القصر الكبير مقر الخليفة (٦)

(١) نفح الطيب ١٦٧ ج ١
(٢) نفح الطيب ١٨١ ج ١
(٣) نفح الطيب ١٧٢ ج ١
(٤) نفح الطيب ٢٧٠ ج ١
(٥) المستطرف ٤٦ ج ٢
(٦) القريري ١٠٧ ج ٢

ألعاب الخلفاء وملاهيهم

ما برح الملوك من قديم الزمان يلهون في ساعات الفراغ بألعاب يروضون بها عقولهم وأبدانهم . ولكل أمة ألعاب تلائم عاداتها وتشاكل أخلاق أهلها ، ولكن الملوك يتشابهون في أكثرها لتشابه مرادهم منها . وألعاب الخلفاء كثيرة ، بعضها كان معروفا في الجاهلية كالصيد والسباق ، وبعضها اقتبسوه من الأماجم كاللعب بالكرة والصولجان والرمى بالبندق واللعب بالنرد والشطرنج ونحوها . وأسبق الدول إلى الاحتفاء بهذه الألعاب العباسيون في أيام الرشيد ، فانه أول من لعب بالصولجان والكرة ، وأول من رمى بالنشاب في البرجاس ، وأول من لعب الشطرنج والنرد وقرب اللاعبين وأجرى عليهم الأرزاق^(١) واليك وصف أهم ألعابهم في أبان تمدنهم :

١ - الصيد والقنص

كان الصيد معروفا في الجاهلية ، ولكنه كان قاصرا على صيد غزال أو طائر بالنبل أو الفخ ، فلما تمدن العرب بعد الاسلام وخالطوا الفرس والروم توسعوا في طرائق الصيد والقنص ، فاتخذوا الجوارح من الطير وهي الباز والشاهين والعقاب والصقر يعلمونها صيد الطيور ، وغالوا في اقتناء الكلاب والفهود ونحوها يستعينون بها على صيد الخنازير والغزلان وحمر الوحش . وأول من اشتغل بالصيد من الخلفاء يزيد بن معاوية ، وكان صاحب طرب وجوارح وقروود وفهود ، وله كلف بالصيد فاتخذ له للهو وليس للرياضة . وكان يلبس كلابه الاساور من الذهب والاجلة المنسوجة بالذهب ، ويهب لكل كلب عبدا يخدمه (٢) . واشتغل بالصيد غيره من خلفاء بني أمية على تفاوت في ذلك

حتى اذا افضى الامر الى بني العباس ورسخت أقدامهم في الدولة ، اهتموا بالصيد وتفننوا في تربية الجوارح والكلاب والفهود ، وغالوا في انتقائها وبدلوا الاموال في اقتنائها وتربيتها ، واقاموا عليها أناسا ينظرون في شؤونها وفيهم البيازرة والحجالون والفهادون وأصحاب الصقور والكلاب ، واطلقوا لهم الأرزاق الجلييلة واقطعواهم الاقطاعات السنية وسهلوا عليهم حجابهم . وتسابق

(١) المسعودي ٣٦٥ ج ٢

(٢) الفخرى ٤٩

الشعراء الى وصف تلك الجوارح وحركاتها وسرعتها وخصالها (١) وكتبوا في فنون الصيد واساليبه كتباً عديدة ، ككتاب البزاة والصيد وكتاب المصائد والمطارد (٢)

وكان العباسيون يصيدون السباع والخنازير (٣) فضلاً عن الغزلان والطيور وحمير الوحش ونحوها . وأول من أحب الصيد منهم المهدي فالرشيد ، وكان ابنه صالح يحب صيد الخنازير (٤) وابنه الامين يهوى صيد السباع يصطادها له جماعة يعرفون بأصحاب اللبايد (٥) وكان المعتصم ألهمهم به ، فبنى في أرض دجيل قرب بغداد حائطا طوله فراسخ كثيرة يحدون الصيد عنده ، وذلك أن يطارد رجاله تلك الحيوانات من الجهة المقابلة للحائط فتفرنجوه فيضربون حولها حلقة ، ولا يزالون يطاردونها بخيولهم وكلابهم وفهودهم وهي تثب بين الاعشاب والادغال حتى يضايقوها ويحصروها بين الحائط ودجلة ، فلا يبقى لها مجال للنجاة فيقبل المعتصم وأولاده وأقاربه وخواص حاشيته ، ويتأنقون في القتل والصيد ويتفرجون فيقتلون ما يقتنون ويطلقون الباقي (٥) وقس على ذلك سائر الخلفاء من بنى العباس والفاطميين والمروانيين وغيرهم من ملوك المسلمين السلاجقة والأتابكة والايوية والمماليك . فقد عدوا ما اصطاده السلطان ملك شاه السلجوقي من الحيوانات فبلغ عشرة آلاف رأس ، حتى بنى من حوافر الحمر الوحشية وقرون الظباء التي صادها منارة (٦) وكان السلطان مسعود السلجوقي يبالي في ترفيه الكلاب حتى البسها الجلال الاطلس الموشاة وسورها بالاساور الذهب . واصطنع السلطان أبو عبد الله المستنصر في المغرب مصيدا بناحية بنزرت في بقعة ببسيط من الارض ، وأحاطها بسياج خرج نطاقه عن التحديد بحيث لا يبرأ فيه حمر الوحش ، فاذا ركب للصيد تخطى السياج في أصحابه ومواليه وفعل فعل المعتصم بحصر الصيد عند ذلك السياج (٧) وفي كتاب الاعتبار لابن منقذ فصول طويلة في الصيد وطرقه (٨)

٢ - الخلبة أو السباق

لم تبق أمة من الامم القديمة أو الحديثة الا لهجت بالسباق ، ولا سيما اليونان والرومان والفرس . وكان العرب في الجاهلية يتسابقون بخيولهم

(١) ترتيب الدول ١٣٦ وديوان أبي نواس والافاني ١١٦ ج ٩

(٢) ابن خلكان ٢٣٥ ج ٢ و ٤٢٣ ج ١

(٣) المراد الخنازير البرية ، وهي أشخم بكثير من الخنازير المستأنسة ، ومعروفة بشراستها وخطورتها على من يتعرض لصيدها

(٤) الافاني ٩٧ ج ٩

(٥) المسعودي ٢١٣ ج ٢

(٦) الفخرى ٤٧

(٧) ابن خلكان ١٢٤ ج ٢

(٨) ابن خلدون ٢٨١ ج ٦

(٩) كتاب الاعتبار ١٥٠

ويتفاخرون بذلك ، وكثيرا ما انتشبت الحرب بين القبائل من أجل السباق . وكانوا يرسلون خيلهم الى الحلبة وهى ميدان السباق عشرة عشرة ، وعندهم لكل منها اسم باعتبار تقدمها فى السبق بعضها على بعض (١)

ولما تحضروا بعد الاسلام بالغوا فى اتخاذ الميادين ، واستكثروا من الخيول وتفننوا فى تضيئها . وكان لمعاوية حلبة يخرجون اليها فى أيام معينة للسباق ، فمن حاز قصب السبق أجازوه - وقصب السبق قصبه يفرسونها فى آخر الحلبة فمن سبق اليها واقتلعها فهو الفائز . ومن غريب ما ذكره أن يزيد ابن معاوية كان له قرد يكنى أبا قيس ، يحضره مجلس منادته ويطرح له متكئا ، وكان نبيها خبيثا يحمله على أتان وحشية قد ربيحت وذلت بسرج ولجام ، وكان يسابق بها الخيل يوم الحلبة . فجاء أبو قيس فى بعض الايام سابقا وتناول القصبه ودخل الحجرة قبل الخيل ، وعليه قباء من الحرير الاحمر والاصفر ، وعلى رأسه قلنسوة من الحرير ذات ألوان بشقائق ، وعلى الاتان سرج من الحرير الاحمر المنقوش (٢)

وكان لهشام بن عبد الملك رغبة فى الحلبة ، يستجيد الخيل للسباق ويبدل فى اقتنائها الاموال ، فاجتمع عنده ٤٠٠٠ فرس ولم يسبقه أحد من العرب الى ذلك . وكان له فرس سابق اسمه « الزائد » اشتهر فى ذلك العصر . وكان الوليد بن يزيد مغرما بخيل السباق ، فجمع منها ألف فرس أسبقها فرس اسمه « السندى » كان يسابق به فى أيام هشام ، وكان يقصر عن فرس هشام « الزائد » وربما ضامه أو جاء مصليا (أى جاء الثانى) . وكان ميدان السباق يومئذ فى الرصافة (بالشام) ولهم فيها ميادين مشهورة وحوادث مذكورة (٣) ولمحمد بن يزيد بن عبد الله بن مروان قصيدة عامرة وصف بها خيل الحلبة العشرة بأسمائها وصفاتها ، هى أحسن ما نظم فى هذا الموضوع (٤)

أما العباسيون فلم يكونوا أقل رغبة فى السباق ، وكانت لهم ميادين كبيرة فى الرقة والشماسية ، وللرشيد مواقف شهيرة فى الحلبة ، نظم فيها الشعراء القصائد فى مدح السوابق (٥) وقس على ذلك ما كان من ميادين الحلبة فى سائر دول الاسلام ، ومن أشهرها ميدان ابن طولون وميدان بيبرس بمصر (٦) وميادين الحكم فى الاندلس

(١) المسعودى ٢٨٠ ج ٢

(٢) المسعودى ٦٨ ج ٢

(٣) المسعودى ١٢٩ و ١٣٥ ج ٢

(٤) المسعودى ٣٨١ ج ٢

(٥) العقد الفريد ٤٧ ج ١ والمسعودى ١٩٩ ج ٢

(٦) المقرئى ١١١ ج ٢

٣ - الكرة والصولجان

هى لعبة فارسية لم يكن بنو أمية يعرفونها ، وأول من لعبها بنو العباس واسبقهم اليها الرشيد . وهى عبارة عن كرة تصنع من مادة خفيفة مرنة كالفلين ونحوه تلقى فى أرض الميدان فيتسابق الفرسان الى التقافها بعضا عقفاء يسمونها الصولجان أو الجوكان ، ويرسلون الكرة بها فى الهواء وهم على خيولهم ، وكان المعتصم شديد الرغبة فيها . ومن لطيف ما يحكى أنه قسم أصحابه يوما للعب بها ، فجعل الافشين فى جهة وهو فى جهة ، فقال الافشين : « يعفنى أمير المؤمنين من هذا » فقال : « ولم ؟ » قال : « لانى ما أرى ان أكون على أمير المؤمنين فى جد ولا هزل » فاستحسن ذلك منه وجعله فى حزبه (١)

٤ - البندق

البندق كرات تصنع من الطين أو الحجارة أو الرصاص أو غيرها ، وهى فارسية بلفظها واستعمالها ، ويسمونها أيضا الجلاهقات جمع جلاهى . فكان الفرس يرمون هذا البندق عن الاقواس كما يرمون النبال . واقتبس العرب هذه اللعبة فى أواخر أيام عثمان بن عفان ، وعدوا ظهورها فى المدينة منكرا (٢) ثم الفوها حتى شكلوا فرقا من الجند ترمى بها . وقد رأيت أن الرشيد كان عنده فرقة يقال لها النمل تسير بين يديه ترمى البندق على من يقف فى طريق الموكب . وكان رماة البندق فى العصر العباسى طائفة كبيرة يخرجون الى ضواحي المدن يتسابقون فى رميه على الطير ونحوه (٣) ويعدون ذلك من قبيل الفتوة ويغلب فى رماة البندق أن يشتغلوا بتطير الحمام . ولهم زى خاص يمتاز بسراويل كانوا يلبسونها ويسمونونها سراويل الفتوة . وكان العيارون من أهل بغداد يلبسونها فى أواخر الدولة . حتى اذا أفضت الخلافة الى الناصر لدين الله العباسى المتوفى سنة ٦٢٢ هـ جعل لرمى البندق شأنا ، لانه كان ولعا به وباللعب بالحمام المناسيب (أى المنسوب ذى الاصل المعروف) وكان يلبس سراويل الفتوة . وقد بلغ من رغبته فى ذلك أن جعل رمى البندق فنا لا يتعاطاه الا الذين يشربون كأس الفتوة ويلبسون سراويلها ، على أن يكون بينهم روابط ونيقة نحو ما عند بعض الجمعيات السرية . وجعل نفسه رئيس هذه الطائفة يدخل فيها من شاء ويحرم من شاء . وكتب سنة ٦٠٧ هـ الى ملوك الاطراف الذين يعترفون بخلافته أن يشربوا له كأس الفتوة ويلبسوا سراويلها ، وأن ينتسبوا اليه برمى البندق ويجعلوه قدوتهم فيه ، فأجابوه الى ذلك فمن أراد

(١) ترتيب الدول ١٣٠

(٢) ابن الاثير ٩٠ ج ٣

(٣) الاغانى ٩٣ ج ٢٠

الانتظام في سلك هذه الطائفة يأتي بغداد فيلبسه الخليفة السراويل بنفسه . . فبطلت الفتوة في البلاد جميعها الا من لبس سراويلها منه ، ومنع الرمي بالبندق الا من ينتسب اليه . فأجابه الناس في العراق وغيره الا اناسا اسمه ابن السفت من بغداد هرب الى الشام ، فأرسل الخليفة اليه يرغبه ببذل المال ليرمي عنه وينتسب في الرمي اليه فلم يفعل فلامه بعضهم على ذلك فقال : « يكفيني فخرا انه ليس في الدنيا أحد لا يرمى للخليفة الا أنا » (١)

وكان لرمي البندق شأن كبير في العصور الاسلامية الوسطى بالعراق والشام ومصر وفارس وغيرها . وخط البندقانيين بالقاهرة ينسب الى صناعة اقواس البندق (٢) ثم تفننوا في رمي البندق بالمزاريق أو الأنايب بضغط الهواء من مؤخر الأنبوب بما يشبه أنايب البنادق . . فلما اخترعوا البارود صاروا يرمون البندق به من تلك الأنايب وسموا هذه الآلة بندقية نسبة اليه . ومن قبيل رمي البندق رمي النشاب في البرجاس ، وهو غرض في الهواء أو على رأس رمح أو نحوه يطلبون اصابتة بالنشاب ، وهي لعبة فارسية أول من لعبها من الخلفاء الرشيد

ومما يدخل في الألعاب والملاهي لعبة الشطرنج ، وهي هندية الأصل اخذها العرب عن طريق الفرس ، وأول من لعبها من الخلفاء الرشيد أيضا ، وهو أول من لعب النرد كما تقدم ، ولا تزال هاتان اللعبتان شائعتين الى اليوم

٥ - ارتباط السباع

وكان من ملاهي الخلفاء والملوك ارتباط الأسود والفيلة والنمور لاثبات الهيبة في قلوب الرعية ، وأول من اهتم بذلك بنو العباس ، فكان المنصور كثير العناية في جمع الفيلة لتعظيم الملوك السالفة ايها ، وكان الرشيد اقفاص فيها الاسود والنمور وغيرها (٣) وغالى الذين جاءوا بعده في اقتنائها واقتناء الكلاب والقردة ونحوها - ذكروا انه كان عند أم جعفر زوج الرشيد قرد يخدمه ثلاثون رجلا ، وكانوا يلبسونه لباس الناس ويقلدونه السيف ، واذا ركب ركبوا في خدمته واذا دخلوا عليه قبلوا يده . فجاء يزيد بن مرثد يوما الى أم جعفر ليودعها قبل سفره فأتوا اليه بالقرد وأمره أن يقبل يده ، فشق عليه ذلك وجرد السيف وقطعه نصفين وانصرف ، فبعث اليه الرشيد وعاتبه فقال : « يا أمير المؤمنين أبعد أن أخدم الخلفاء أخدم القرد ؟ لا والله أبدا » فعفا عنه (٤) وما زال شأن الخلفاء وأهلهم على ذلك حتى تولى المهدي ، وكان يتشبه

(١) ابن الاثير ٢٠٢ ج ١٢ وابو الفدا ١١٩ و ١٤٢ ج ٣ وابن خلدون ٣٥ ج ٣

(٢) المقرئ ٣١ ج ٢

(٣) المقفد الفريد ١٥٠ ج ١

(٤) تاريخ طبرستان لابن اسفنديار ترجمة ادورد برون الى الانجليزية صفحة ٤٥

بعمربن عبد العزيز في التقوى والزهد، فأمر بقتل السباع التي كانت في القصور وطرده الكلاب ، ولكن ذلك المنع لم يدم طويلا . فلما مات المهتدى عادوا الى المغلاة في اقتناء السباع حتى أربطها بعضهم في مجلسه . فقد كان عضد الدولة بن بويه اذا جلس على سريره احضرت الأسود والفيلة والنمور في السلاسل ، وجعلت في حواشي مجلسه تهويلا بذلك على الناس وترويعا لهم (١)

وقس على ذلك سائر دول المسلمين في مصر والأندلس وغيرهما ، فقد كان خمارويه بن أحمد بن طولون دار خاصة بالسباع ، عمل فيها بيوتا بأزاج كل بيت يسع سبعا ولبؤته ، وعلى تلك البيوت أبواب تفتح من أعلاها بحركات ، ولكل بيت منها طاق صغير يدخل منه الرجل الموكل بخدمة ذلك البيت يفرشه بالرمال . وفي جانب كل بيت حوض من رخام بميزاب من نحاس يصب فيه الماء . وبين يدي هذه البيوت قاعة فسيحة متسعة فيها رمل مفروش بها ، وفي جانبها حوض كبير من رخام يصب فيه ماء من ميزاب كبير . فاذا أراد سائس سبع من تلك السباع تنظيف بيته ، أو وضع وظيفة اللحم لفدائه ، رفع الباب بحيلة من أعلى البيت وصاح بالسبع فيخرج الى القاعة المذكورة ، فيرد الباب وينزل الى البيت من الطاق فيكنس الزبل ويبدل الرمل بغيره مما هو نظيف ، ويضع الوظيفة من اللحم في مكان معد لذلك بعد ما يخلص مافيه من الغدد ويقطعه له ، ويغسل الحوض ويملاه ماء ثم يخرج ويرفع الباب من أعلاه . وقد عرف السبع ذلك فحالما يرفع السائس باب البيت يدخل اليه الاسد فيأكل ماهيئه له من اللحم حتى يستوفيه ويشرب من الماء كفايته . فكانت هذه البيوت مملوءة من السباع . ولهم أوقات تفتح فيها فتخرج السباع كلها الى القاعة وتتمشى فيها وتمرح وتلعب ويهارش بعضها بعضا ، فتقيم يوما كاملا الى العشي فيصيح بها السواوس فيدخل كل سبع الى بيته لا يتخطاه الى غيره

وكان من جملة هذه السباع سبع أزرق العينين يقال له زريق ، وقد انس بخمارويه وصار مطلقا في الدار لا يؤذى أحدا ، ويقام له بوظيفته من الغذاء كل يوم . واذا نصبت مائدة خمارويه أقبل زريق معها وربض بين يديه ، فيرمى اليه الدجاجة بعد الدجاجة والفضلة الصالحة من الجدى ونحو ذلك مما على المائدة فيتفكه به . وكانت له لبوة لم تستأنس كما انس هو ، فكانت مقصورة في بيت ولها وقت معروف يجتمع معها فيه . فاذا نام خمارويه جاء زريق ليحرسه ، فان كان قد نام على سرير ربض بين يدي السرير وجعل يراعيه مادام نائما ، وان نام على الأرض بقى قريبا منه وتفطن لمن يدخل ويقصد

خمارويه لايففل عن ذلك لحظة واحدة . وكان على ذلك دهره وقد الفه ودرب عليه ، وكان في عنقه طوق من ذهب . فلا يقدر أحد أن يدنو من خمارويه مادام نائما لمراعاة زريق له وحراسته إياه (١)

وتطرف آخرون في اقتناء الحيوانات حتى الهوام والحشرات ، فالوزير جعفر ابن خنزابه أحد وزراء المقتدر بالله العباسي كان يهوى النظر الى الحشرات من الأفاعى والحيات والعقارب وأم أربعة وأربعين ومايجرى هذا المجرى ، وكان في داره بمصر قاعة لطيفة مرخمة فيها تلك الحيات بالسلاسل ولها قيم وفراش وحاو يستخدمون برسم نقلها وحطها، وكان كل حاو بمصر يصيد له مايقدر عليه من الحيات ويتناهون في ذوات العجب من أجناسها وفي الكبير والقريب منها وهو يشبههم على ذلك أجل ثواب ويبدل لهم المال الجزيل . وكان له وقت يجلس فيه على دكة فيدخل المستخدمون والحواة فيخرجون مافي تلك السلاسل ويطرحونه على ذلك الرخام ويحرشون بين الهوام وهو يستعجب من ذلك ويستحسنه (٢)

وكانت لهم عناية في تربية الحيوانات الداجنة أيضا كالغزلان والقمارى واشباههما ، يجعلونها في حظائر وأقفاص مخصوصة عليها قوام يخدمونها (٣)

واجتمع عند العزيز الفاطمي صاحب مصر من غرائب الحيوانات ما لم يجتمع عند غيره وذكروا بينها العنقاء (٤) قالوا : « وهو طائر جاءه من صعيد مصر في طول البلاشون وأعظم جسما منه ، له غيب ولحية وعلى رأسه وقاية وفيه عدة ألوان ومشابهة من طيور كثيرة » (٤)

واتخذ الخليفة الناصر الأموى في مدينة الزهراء بالاندلس محلات للوحوش والسباع واسعة الأرجاء متباعدة السياج ، ومسارح للطيور مظلة بالشباك كالأقفاص الكبيرة (٥)

وهناك ألعاب آخر تتعلق بالحيوانات كسمكة كانت للأمين مقرطة صيدت له وهى صغيرة فقرطها بحلقتين من ذهب فيهما جتا در، وكلعب الحمام وتطيره ، واللعب بالكباش والديوك للمناطحة والمهارشة ، وغير ذلك مما لا محل لذكره

(١) القرطبي ٢١٧ ج ١
(٢) فوات الوفيات ١٠٥ ج ١
(٣) المسعودي ٢٦٠ ج ٢ وابن الأثير ٦٦ ج ٨
(٤) ابن خلكان ٢٦٧ ج ١
(٥) نفح الطيب ٢٧٤ ج ١

الكتب التي وردت في هوامش الكتاب (* ١)

وهي المؤلفات التي وردت أسماؤها في هوامش صفحات هذا الكتاب مرتبة على حروف الهجاء ، مع أسماء مؤلفيها وسنى طبعها وأماكنه ، وهي غير ما رجعنا إليه في التحقيق من القواميس والموسوعات العربية والافرنجية

اسم المؤلف	اسم المؤلف	مكان طبعه وسنته
الآثار الباقية عن القرون الخالية	البيروني	ليبسك سنة ١٨٧٨ م
الآداب السلطانية (الفخرى)	لابن الطقطقي	مصر ١٣١٧ هـ
أبجد العلوم ، ٣ أجزاء	لصديق القنوجي	الهند ١٢٩٦ هـ
ابن الأثير ، تاريخ	انظر : الكامل	
الجوزي ، »	» : كتاب الأذكياء	
» حوقل ، جغرافية	» : المسالك والممالك	
» خرداذبة ، »	» : »	
» خلدون ، تاريخ	» : العبر والمبتدا والخبر	
» خلكان ، معجم	» : وفيات الأعيان	
» الساعي ، تاريخ	» : مختصر أخبار الخلفاء	
» عساكر ، »	» : تاريخ دمشق	
» الفقيه ، جغرافية	» : كتاب البلدان	
» هشام ، تاريخ	» : السيرة النبوية	
أبو الفرج الملقب ، تاريخ	» : مختصر الدول	
» المحاسن ، تاريخ	» : النجوم الزاهرة	
الانليدي ، معجم	» : أعلام الناس	
أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم	للمقدسي	ليدن ١٨٧٦ م
الأحكام السلطانية	للماوردي	مصر ١٢٩٨ هـ
أخبار الدول وآثار الأول	لأحمد شلبي بن يوسف الدمشقي القرماني بغداد	١٢٨٢ هـ
أدب الدنيا والدين	للماوردي	بهامش الكشكول (* ٢)
الاستقصا في المغرب الأقصى ٤ أجزاء	للسلاوي	مصر سنة ١٣١٢ هـ (* ٣)

- (* ١) تركنا طبعات الكتب كما هي ، لأنها هي التي رجع إليها المؤلف ، وقد أشرنا إلى الطبعات الجديدة في تعليقاتنا على النص ، ونذكر هنا ما قلنا ذكره هناك .
- (* ٢) طبع طبعة جديدة محققة سنة ١٩٢٥ بالقاهرة ، ثم أعيد طبعه بعد ذلك مرارا نظرا لأنه كان من الكتب المقررة للمطالعة المدرسية في مصر
- (* ٣) طبع طبعة جديدة بإشراف ولدي المؤلف أحمد الناصري السلاوي في فاس في تسعة أجزاء ، ابتداء من سنة ١٩٥١ إلى سنة ١٩٥٧

اسم المؤلف	اسم الكتاب	مكان طبعه وسنة
لابن الأثير	أسد الغابة في أخبار الصحابة ٥ أجزاء	مصر سنة ١٢٨٦ هـ
انظر : المسالك والممالك	الاصطخرى ، جغرافية	
الانليدي	أعلام الناس	مصر ١٣١٨ هـ
لأبي الفرج الأصفهاني	الافغانى ٢٠ جزءاً	بولاق ١٢٨٥ هـ (١*)
لعبد اللطيف البغدادي	الافادة والاعتبار	مصر ١٢٨٦ هـ
يوسف البلوى	ألف باء ، جزآن	مصر ١٢٨٧ هـ
انظر : صحيح البخارى	البخارى ، صحيح	
لأحمد بك كمال	بنية الطالبين في علوم وعوائد المصريين	بولاق ١٣٠٩ هـ
انظر : فتوح البلدان (٢*)	البلاذرى ، تاريخ	
للألويسى	بلوغ الأرب في أحوال العرب ٣ أجزاء	بغداد ١٨٩٨ م
للجاحظ	البيان والتبيين جزآن	مصر ١٣١٣ هـ
انظر : الآثار الباقية	البيرونى ، تاريخ	
للملك المؤيد	تاريخ أبي القداء ٤ أجزاء	الاستانة ١٢٨٦ هـ
للطبرى	الأمم والملوك ١١ جزءاً	لندن ١٨٨٥ م
لابن عساكر	دمشق	(خط) (٣*)
لصلبيا بن يوحنا	المشاركة	(خط)
للهملال الصائى	الوزراء	بيروت ١٩٠٤ م (٤*)
محمد ظافر	تحذير المسلمين	مصر ١٩٠٤ م
لابن الفقطى	تراجم الحكماء	(خط) (٥*)
للحسن بن عبد الله	ترتيب الدول	بولاق ١٢٩٥ هـ
لداود الأنطاكي	تزيين الأسواق	مصر ١٣٠٨ هـ
لتنووى	تهذيب الأسماء	جوتنجن ١٨٣٢ م
انظر : عجائب الآثار	الجبرتي ، تاريخ	
حسن المحاضرة في مصر والقاهرة جزآن للسيوطى	حسن المحاضرة في مصر والقاهرة جزآن	مصر ١٢٩٩ هـ

(١*) بدأت دار الكتب المصرية في طبعه ابتداء من سنة ١٩٠٦ وأصدرت عدداً من الاجزاء ولكنه لم يتم الى الآن . وقد صنع المستشرق جويدي فهرساً مفصلاً لطبعة الساسى التى تمت على أساس طبعة بولاق ، وقد ترجم هذا الفهرس الى العربية ونشره في القاهرة الاستاذ محمد مسعود ، ولا غنى من هذا الفهرس في مراجعة الافغانى . وقد شرعت احدى دور النشر في بيروت في طبع الافغانى على أساس طبعة دار الكتب

(٢*) أعيد طبعه بعد ذلك في القاهرة بإشراف الاستاذ بهجت الاثرى

(٣*) طبع التاريخ الكبير المعروف بتاريخ دمشق لابن عساكر في دمشق ، في خمسة اجزاء . دمشق ١٢٢٩ - ١٣٢٣ ، ثم شرع الدكتور صلاح المنجد في نشره نشرة علمية محققة وأصدر منه الجزء الاول وذيله ثم الجزء الثانى

(٤*) أعيد نشره نشرة علمية محققة بإشراف الاستاذ عيد الستار فراج في القاهرة سنة ١٩٥٨

(٥*) نشره Lippert في لايبسك ١٩٠٣ واسم الكتاب الكامل اخبار العلماء بأخبار الحكماء

اسم المؤلف	اسم الكتاب	مكان طبعة وسنته
لشمس الدين النواجي	حلية الكيميت	مصر ١٢٩٩ هـ
للدميمري	حياة الحيوان الكبرى (جزآن)	مصر سنة ١٣٠٩ هـ
لأبي يوسف	الخراج - كتاب	بولاق ١٣٠٢ هـ (*)
لقدامة بن جعفر	»	ليدن ١٣٠٦ هـ
لعلى باشا مبارك	الخطوط التوفيقية ٢٠ جزءاً	بولاق ١٣٠٦ هـ
للمقرئى	خطط مصر (جزآن)	بولاق ١٢٧٠ هـ (*)
لنديار بكري	الخمس (جزآن)	مصر ١٨٢٣ م (*)
انظر : حياة الحيوان	الدميري ، كتاب	مصر ١٨٩٨ م
للحسن بن هاني	ديوان أبي نواس	مصر ١٢٨٧ هـ
لابن بطوطة	رحلة ابن بطوطة جزآن	ليدن ١٨٥٢ م (*)
لابن جبير	رحلة ابن جبير	الاستانة ١٢٩٧ هـ
لأبي بكر الخوارزمي	رسائل الخوارزمي	على هامش مقدمة ابن خلدون مصر سنة ١٣١١ هـ (*)
للطرطوشى	سراج الملوك	باريس ١٨١١ هـ (*)
لسليمان وأبي زيد	سلسلة التواريخ	مصر ١٣٠٢ هـ
لعلى بن برهان الدين الملقب نور الدين الحلبي القاهري	السيرة الحلبية ٣ أجزاء	بيروت ١٨٨٥ م (*)
لعبد الرحمن الأربلي	سير الملوك	بولاق ١٢٩٥ هـ
لابن هشام	السيرة النبوية ٣ أجزاء	
انظر : حسن المحاضرة	السيوطي ، تاريخ	
للقرداحي	شعراء السريان	رومية ١٨٧٥ م
لابن قتيبة	الشعر والشعراء	ليدن ١٩٠٢ م (*)

- (١*) أعاد نشره محققا الاستاذ محمد شاكر ، بالطبعة السلفية بالقاهرة سنة ١٣٤٦
- (٢*) اسم الكتاب : المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار ، وقد نشر الاستاذ جاستون قبيبت جانبيا من الجزء الاول من طبعة بولاق في اربعة اجزاء ضمن منشورات المعهد الفرنسي للآثار الشرقية بالقاهرة ، القاهرة ١٩١١ - ١٩٢٤
- (٣*) الخميس في احوال أنفس نفيس للمفاضى حسين بن محمد بن الحسن الدياربكري ، المنوف في مكة في حدود ٩٦٦ هـ . وهو كتاب في السيرة النبوية
- (٤*) أعاد نشره محققا الدكتور حسين نصار ، القاهرة ١٩٥٧
- (٥*) طبع طبعة خاصة غير محققة في القاهرة ، بدون تاريخ ، وقد ترجم الى الاسبانية ونشرت الترجمة في مدريد سنة ١٩٣٨ في مجلدين
- (٦*) ألف هذا الكتاب سليمان الناحر وأبو زيد الحسن السيرافي من أهل القرن الثالث الهجري ، وقد اخذ عنوانه من فاتحته : « هذا كتاب فيه سلسلة التواريخ والبلاد والبحور وأنواع الاسماك وفيه علم الفلك وعجائب الدنيا وقياس البلدان والمعبر منها ... الخ » . قام على نشره Langlès وعلق عليه رينو في باريس ١٨١١ - ١٨٤٥
- (٧*) ويسمى نهاية الارب في أخبار الفرس والعرب وهو كتاب في تاريخ الفرس والعرب واحوالهما من بدء الخليقة الى فتح العرب فارس
- (٨*) أعاد نشره نشرة صحيحة محققة الشيخ محمد محمود شاكر ، في جزئين ، القاهرة ١٩٤٢

اسم المؤلف	اسم الكتاب	مكان طبعه وسنته
لطاشكبرى زاده	الشقائق النعمانية في علماء الدولة العثمانية	على هامش ابن خلسكان
انظر : الملل والنحل	الشهرستاني ، كتاب	
للإمام البخارى	صحيح البخارى ٤ أجزاء	مصر ١٣٠٤ هـ
لابن أبى أصيبعة	طبقات الأطباء - جزآن	مصر ١٨٨٢ م
لعبد الرحمن الاثبارى	» الأدباء	مصر ١٢٩٤ هـ
لابن سعد	» ابن سعد	(خط) (١٤)
انظر : النجوم الزاهرة	تاريخ تمرى بردى	
لابن خلدون	العبر والمبتدا والخبر ٧ مجلدات	بولاق سنة ١٢٨٤ هـ
للجبرى	مجائب الآثار ٣ أجزاء	على هامش ابن الأثير (٢*)
للقزوينى	» المخلوقات	على هامش الدميرى
لابن عبد ربه	العقد الفريد ٣ أجزاء	مصر ١٣٠٥ هـ (٣*)
للملك السعيد	» »	مصر ١٢٨٣ هـ
للبلاذرى	فتوح البلدان	ليندن ١٨٦٦ م (٤*)
انظر : الآداب السلطانية	الغنى في الآداب السلطانية ، تاريخ	
للتنوخى	الفرج بعد الشدة جزآن	مصر ١٩٠٣ م
لابن وحشية	الفلاحة النبطية	(خط)
لابن النديم	الفهرست	ليبسك ١٨٧٢ م
لابن شاکر السکتي	فوات الوفيات جزآن	مصر ١٢٨٢ هـ (٥*)
ليفيلب جلاد	قاموس الادارة والقضاء ٧ أجزاء	مصر ١٨٩٠ م
لابن سينا	القانون	رومية ١٥٩٣ م (٦*)
للدكتور فاندیک	القبة الزرقاء	بيروت ١٨٩٣ م
انظر : الحراج	قدامة ، كتاب	
انظر : أخبار الدول	القرماني ، تاريخ	
انظر : عجائب المخلوقات	القزوينى ، كتاب	

- (١*) الطبقات الكبرى لابی عبد الله محمد بن سعد بن منيع الزهرى كاتب الواندى ، نشر جزءا كبيرا منه المستشرق ادوارد سخاو بمعاونة يوسف هورنثن ويوليوس ليبرت وبسترشتين وبروكلمان ، صدر منه ١٣ جزءا (١٢٢٢ - ١٣٣٩ هـ) ثم طبع منه جزآن فى القاهرة سنة ١٩٣٠
- (٢*) طبع فى بولاق طبعة جيدة فى اربعة مجلدات ، ثم أعيد طبعه على اساس طبعة بولاق فى اربعة مجلدات ايضا
- (٣*) نشر نشرة علمية محققة بإشراف أحمد أمين وآخرين فى سبعة مجلدات ، القاهرة ١٩٤٠ وما بعدها
- (٤*) طبع فى القاهرة طبعة غير محققة سنة ١٩٣٢ ثم أعاد نشره محققا الدكتور صلاح المنجد ، القاهرة ١٩٥٦ - ١٩٥٨
- (٥*) أعيد نشره فى القاهرة بتحقيق الشيخ محيى الدين عبد الحميد ، القاهرة ١٩٥٤
- (٦*) نشر فى القاهرة فى بولاق فى اربعة مجلدات

اسم المؤلف	اسم الكتاب	مكان طبعه وسنته
القوانين العقارية للحكومة المصرية	الكامل ١٢ جزءاً	مصر ١٨٩٣ م
الكامل	الكامل	مصر ١٣٠٢ هـ (*)
كتاب الأذكياء	كتاب الأذكياء	مصر ١٢٨٦ هـ (*)
كتاب الاعتبار	كتاب الاعتبار	مصر ١٣٠٦ هـ
كتاب البلاء	كتاب البلاء	لیدن ١٨٨٤ م
كتاب البلدان	كتاب البلدان	مصر ١٣٢٤ هـ (*)
»	»	لیدن ١٨٨٥ م
كتاب الحيوان ٣ أجزاء	كتاب الحيوان ٣ أجزاء	»
كشف الظنون جزآن	كشف الظنون جزآن	مصر سنة ١٣٢٤ هـ
الكشكول	الكشكول	الاستانة ١٣١١ هـ (*)
لطائف المعارف	لطائف المعارف	مصر ١٣٠٥ هـ
اللمعة الذهبية في اللغة السريانية	اللمعة الذهبية في اللغة السريانية	لیدن ١٨٦٧ م
الماوردي ، كتاب	الماوردي ، كتاب	الموصل ١٨٧٩ م
بجمع الأمثال جزآن	بجمع الأمثال جزآن	بيروت ١٣١٢ هـ
مختصر أخبار الخلفاء	مختصر أخبار الخلفاء	بولاق ١٣٠٩ هـ
»	»	بيروت ١٨٩٠ م
مروج الذهب جزآن	مروج الذهب جزآن	مصر ١٣٠٤ هـ (*)
الزهر جزآن	الزهر جزآن	بولاق ١٢٨٢ هـ (*)
المسالك والممالك	المسالك والممالك	لیدن ١٨٧٣ م (*)
»	»	» ١٨٨٠ م

- (١*) نشره نشره محققة في أويسالا بالسويد كارل يوهان تونبرج ونشره في لايدن في ١٤ مجلداً من ١٨٧٤ إلى ١٨٧٦
وقد أعيد نشره في القاهرة بالمطبعة المنيرية نشره غير محققة في عشرة مجلدات ، القاهرة ١٩٤٢
(٢*) نشره المستشرق وليام رايت في لیدن
(٣*) نشره جزئياً المستشرق فان فلوين في لیدن ، ثم نشره نشره علمية محققة الاستاذ الدكتور طه الحاجري ، القاهرة ١٩٤٧
(٤*) أعيد طبعه محققاً في الاستانة سنة ١٩٣٦
(٥*) طبع في باريس باشراف باربييه دي ميفار ١٨٦١ - ١٨٧٧ في تسعة مجلدات مع ترجمة فرنسية
(٦*) أعيد طبع الزهر في علوم اللغة لجلال الدين عبد الرحمن السيوطي ونشر محققاً في القاهرة في جزئين سنة ١٩٥٠
(٧*) الاسم الصحيح لكتاب ابن حوقل هو « صورة الأرض » وقد أعيد طبعه في لايدن باشراف المستشرق باركر في جزئين بهذا الاسم سنة ١٩٤٠

اسم المؤلف	اسم الكتاب	مكان طبعه وسنته
للإصطخرى	المسالك والممالك	ليدن ١٨٧٠ م
للإبشي	المستطرف جزآن	مصر ١٣١١ هـ
انظر : مروج الذهب	المسعودى ، كتاب	
لولي الدين العمري	مشكاة المصابيح	دهلي ١٣١٠ هـ
لابن قتيبة	المعارف	مصر ١٣٠٠ هـ
لياقوت الحموي	معجم البلدان ستة أجزاء	ليبسك ١٨٧٠ م (*)
لطاشكبرى زاده	مفتاح السعادة	(خط)
انظر : أحسن التقاسيم	المقدسي ، جغرافية	
» : نفع الطيب	المقرئ ، تاريخ	
» : خطط مصر	المقرئ ، تاريخ	
للشهرستاني	الملل والنحل جزآن	لندن ١٨٤٢ م (*)
للإمام مالك	الموطأ	(خط) (*)
انظر : بجمع الأمثال	الميداني ، كتاب	
	ميزانية مصر لسنة ١٩٠٢ للحكومة المصرية	بولاق سنة ١٩٠٣ م
لأبي الحسن	النجوم الزاهرة جزآن	ليدن ١٨٥١ م (*)
للمقرئ	نفع الطيب ٤ أجزاء	بولاق ١٢٧٩ هـ (*)
للقلقشندي	نهاية الأرب في قبائل العرب	(خط)
برهان الدين الفرغاني	الهداية	لكنهو ١٣١٤ هـ
انظر : كتاب البلدان	الهمداني ، جغرافية	
لابن خلصان	وفيات الأعيان ٣ أجزاء	مصر ١٣١٠ هـ (*)
انظر : كتاب البلدان	اليقوت ، جغرافية	

(*) طبع كتاب معجم البلدان لياقوت الحموي طبعة محققة بمعرفة السيد أمين الخانجي في القاهرة سنة ١٩٠٦

(٢) أميد نشر كتاب الملل والنحل للشهرستاني في القاهرة بتحقيق الشيخ محمد فتح الله بدران بالقاهرة ١٩٥٦ في مجلدين

(٣) طبع الموطأ للإمام مالك بن أنس مراراً متعددة في مصر والمغرب بروايات شتى

(٤) بالإضافة إلى هذين المجلدين اللذين طبعوا في لايدن من كتاب النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة لأبي المحاسن جمال الدين يوسف بن تغري بردي الاتاكي ، طبع المستشرق بوبر Popper تسعة مجلدات في كاليفورنيا بالولايات المتحدة . ثم أعادت دار الكتب المصرية نشر الكتاب نشرة محققة وظهر في ١٠ أجزاء من ١٩٢٩ إلى ١٩٤٩

(٥) طبع نصف كتاب نفع الطيب من غصن الاندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب لأحمد بن محمد بن أبي العيش المعروف بالمقرئ في لايدن فيما بين سنتي ١٨٥٥ و ١٨٦٦ في مجلدين بتحقيق المستشرقين دوزي وكريل ودوجاورايت . وهذا القسم المطبوع في لايدن يشمل المقدمة العامة المشهورة في التعريف بالاندلس . وقد توقفت هذه اللجنة من المستشرقين عن طبع القسم الثاني الخاص بلسان الدين بن الخطيب . ثم طبع الكتاب كله طبعة غير محققة بإشراف الشيخ محيي الدين عبد الحميد في القاهرة سنة ١٩٤٩ في عشر مجلدات

(٦) نشر الشيخ محيي الدين عبد الحميد وفيات الأعيان نشرة لأبأس بها في ست مجلدات في القاهرة سنة ١٩٥٢ ثم الحقها بمجلدين يضمان قوات الوفيات لابن شاذي الكتيبي

فهرس

الصفحة

الموضوع

٥

مقدمة

نظام الاجتماع

نظام الاجتماع فى المملكة الاسلامية ١٢

طبقات الناس قبل الاسلام

طبقات الناس فى الشام والعراق ١٢

نظام الاجتماع فى الشام والعراق ١٦

طبقات الناس فى مصر ١٧

طبقات الناس فى افريقية ١٨

طبقات الناس فى بلاد فارس ٢٠

طبقات الناس عند العرب الجاهلية ٢٢

نظام الاجتماع فى عصر الراشدين ٢٣

نظام الاجتماع فى عصر الأمويين ٢٤

نظام الاجتماع فى العصر العباسى

طبقات الخاصة ٢٦

أتباع الخاصة ٢٧

الخدم ٢٨

الأرقاء ٢٩

الحصيان ٣٣

الجوارى ٣٥

طبقات العامة

الطبقة الاولى ٣٨

أهل الفنون الجميلة ٣٨

المغنون ٣٩

العلماء والفقهاء والادباء ٤٤

التجار ٤٥

الموضوع	الصفحة
الصناع	٤٩
الطبقة الثانية من العامة	
المزارعون أهل القرى	٥١
العامة سكان المدن	٥١
أخلاق العامة	٥٦
الآداب الاجتماعية	
آداب العرب في الجاهلية	٦٠
مناقب العرب الجاهلية	٦٠
المرأة في الجاهلية	٦٣
آداب العرب في صدر الاسلام	
الآداب الاجتماعية في عصر الراشدين	٦٧
الآداب الاجتماعية في عصر الأمويين	٦٩
الآداب الاجتماعية في العصر العباسي	
المرأة في العصر العباسي	٧٧
الارتزاق بالسخاء	٧٩
المجاملة في المعاملة	٨٤
العائلة في أتمدن الاسلامى	٨٦
المعيشة العائلية	
الطعام	٩١
اللباس	٩٢
المأوى	٩٥
حضارة الدولة الإسلامية	
عمارة المدن والقصور	١٠٠
القطر المصرى	١٠٠
الاندلس	١٠٥
القصور والمباني	١٠٧
مباني الأمويين في الشام	١٠٨

الموضوع	الصفحة
مباني العباسيين بالعراق	١٠٨
مباني الأمويين بالاندلس	١١١
مباني مصر	١١٥

الثروة والرخاء ونتائجهما

ثروة الخلفاء وأهلهم	١١٨
ثروة رجال الدولة وغيرهم	١١٩
نتائج الثروة	١٣٠
التأنق في الطعام	١٢١
البذخ في اللبسة	١٢٣
الاثاث والرياش والمجوهرات	١٢٥
التسرى	١٣٤
السخاء	١٣٦
التهتك	١٤٥

أبهة الدولة

مجالس الخلفاء	١٥٠
شكل المجلس وقرشه	١٥١
مجالسة الخلفاء	١٥٢
مجالس الادب والشعر	١٥٨
مجالس المناظرة والعلم	١٦١
مجالس الغناء والانس	١٦٣

مواكب الخلفاء

مواكب الخلفاء في ابان التمدن	١٦٥
احتفالاتهم	١٦٧
الخلفاء والدول المعاصرة	١٧١

العباب الخلفاء وملاهيهم

الصيد والقنص	١٧٧
الحلبة أو السباق	١٧٨
الكرة والصولجان	١٨٠
البندق	١٨٠
ارتباط السباع	١٨١



ملتزم التوزيع : مؤسسة المطبوعات الحديثة